نعيمة ب. روبرت

نساء اعتنقن الإسلام

«كتاب مثير جداً للأفكار يتحدى التصورات الغربية المسبقة عن النساء المسلمات» ديلي تلغراف

نقله إلى العربية

مروان سعد الدين



العبيكان
Obeikan

نعيمة ب. روبرت

نساء اعتنقن الإسلام

«كتاب مثير جداً للأفكار يتحدّى التصورات الغربية المسبقة عن النساء المسلمات»

نقله إلى العربية

مروان سعد الدين



Original Title

FROM MY SISTERS' LIPS
A unique celebration of Muslim womanhood

BY
NA'IMA B. ROBERT

ISBN: 0-553-81717-5
ISBN: 978-0-553-81717-1

ISBN 978 - 9960 - 54 -506 -6

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937574 / 2937581، فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض 11517

الطبعة العربية الأولى 1429هـ ـ 2008م

ⓒ مكتبة العبيكان، 1429هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

روبرت، نعيمة

نساء اعتنقن الإسلام. / نعيمة روبرت؛ مروان سعد الدين. - الرياض 1429هـ

337 ص؛ 14× 21 سم

ردمك: 6- 506- 54 - 9960 - 978

1 ـ اعتناق الإسلام　　2 ـ الدعوة الإسلامية

أ. سعد الدين، مروان (مترجم)　　ب. العنوان

ديوي: 213　　1429/3358

رقم الإيداع: 1429/3358

ردمك: 6- 506- 54 - 9960 - 978

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 / 4654424 - فاكس: 4650129 ص.ب: 62807 الرياض 11595


بسم الله الرحمن الرحيم

آراء نقدية في
«نساء اعتنقن الإسلام»

«بالنسبة لبعض الناس يمثل [الإسلام] الانتحاريين وجرائم الشرف واضطهاد النساء. كيف يمكن تغيير هذا المفهوم؟ نعيمة بداية جيدة حقاً... «نساء اعتنقن الإسلام» كتاب يستثير الأفكار إلى أقصى حد ويتحدّى التصورات المسبقة عن النساء المسلمات».

ديلي تلغراف

«تتخذ المزيد والمزيد من النساء قراراً استثنائياً باعتناق الإسلام. تصوّر وجهة نظر نمطية، ذلك على أنه الدين الذي يضطهد النساء ويرغمهن على إخفاء أنفسهن خلف أثواب طويلة حتى الأرض. لكن هذه ليست الصورة الكاملة، كما تجادل امرأة بريطانية، اسمها نعيمة ب. روبرت، في كتابها الجديد».

ديلي ميل

«الإشراق الروحي في قلب «نساء اعتنقن الإسلام» ... توضح روبرت كيف أثّر الإسلام إيجابياً على حياة نساء من خلفيات مختلفة تماماً، مع نتائج مذهلة».

إيمج

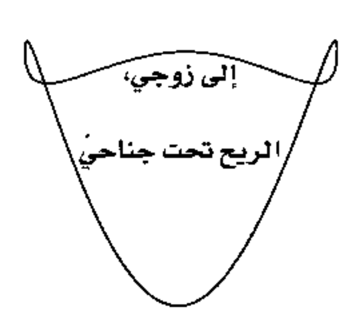
«إحدى نقاط قوة هذا الكتاب الرئيسة هي التعريف الواضح والبسيط لمعتقدات الإسلام الرئيسة ... لا يسعك سوى الغوص فيه عندما تقرؤه. هناك شعور بالحيوية، والنشوة فيه».

مجلة إيمل

يلقي «نساء اعتنقن الإسلام» الأضواء على سبب اعتناق النساء للإسلام ... كتاب ممتع مليء بالمعلومات ... فقط من خلال مناقشة التصوّرات المسبقة والأفكار الجاهزة سلفاً، نستطيع ـ على مستوى الأفراد ومن وجهة نظر المجتمع ـ أن نتطور».

ذا بروغرام

نعيمة ب. روبرت ابنة أب أبيض جنوب إفريقي من أصول أسكتلندية وأم جنوب إفريقية تعود أصولها إلى قبائل الزلو. ولدت في ليدز، وترعرعت في زيمبابوي وتابعت دراستها حتى حصلت على إجازة جامعية من جامعة لندن. كانت قد عملت في صناعة السياحة والسفر، وكانت مدرّسة وكتبت للأطفال ورسمت. بعد اعتناقها الإسلام وزواجها من غاني اعتنق هو الآخر الإسلام، استقرت في جنوب لندن حيث تعيش الآن مع زوجها وابنين صغيرين.



إلى زوجي،

الريح تحت جناحيَّ

شكر وتقدير

أولاً، أشــكر الله رب العالمــين؛ لأنه أتــاح لي تأليف هــذا الكتاب. أرجو أن يتقبّله مني ويضــعه في ميزان حسناتي. بالنسبة لأخواتي: «جزاكن الله خيراً» كثيراً لكل اللواتي شــاركن بوقتهن، وأفكارهن العميقة ومشــاعرهن معي. على الرغم من كل الأولاد وضياع أجهزة التسجيل، نجحنا في ذلك، ما شــاء الله. خــذن هذا الكتــاب: إنه لكُــنّ. إكراماً لذكــرى والدتي: أمي العزيزة، كنت ســتحبين هذا الكتاب، أنت تعيشــين فينا جميعاً. شكراً من «فتــاة كبيرة» إلى والدي الرائع: لم تذهب آمالك سُــدى. أنا ســعيدة جداً؛ لأننــا كنا جزءاً من هذه الرحلة «الأصــعب». تحياتي لشــقيقي وشــقيقتي: شكراً لتصديقكما إياي والوجود إلى جانبي - مع هوفر (مكنسة) ومجالسة الأطفال! إلى عائلتــي، عماتي وأعمامي، خالاتي وأخــوالي، أبناء عمومتي وأجدادي المحبوبين: شــكراً لدعمكم ومحبتكم لي وقبولي برغم الكثير من التحدّيات. فنجان قهوة لذيذ لمريم، زميلتي في هندســة الصوت والجدال، أديــن بجزء كبير من هذا الكتاب لــك! «تحية كبيرة» لكل زميلاتي في هذه الرحلة مــن إفريقية، آســيا، أوروبة والولايات المتحــدة: أحبيكن! تاتيندا، سيسي بريسيلا ومي إيثل: تســتحقّن ميداليات على صبركن! شكراً لكِ يا مشتي (تشاترجي)، لمنح الفرصة لكاتبة مغمورة.

قبلاتي إلى شــيري باي (شيري صفران)، وكيلتي، المرأة التي ساعدت في هذا كله. شــكراً لك يا بريندا (كيمبر)، المحرّرة، التي أسهمت في جعل أفكاري تتدفق ـ ولكل تلك الأسئلة التي تثير الأفكار!

ملاحظات المؤلفة

هذا كتاب سيرة ذاتية، ولهذا يركّز على جزء يسير من تجربة المسلمة. بوصفنا نساء مسلمات، نشعر بالراحة لمشاطرة تجاربنا والكلام بصراحة عن حياتنا وأفكارنا الخاصة؛ لأن لنا مثالاً رائعاً في عائشة، زوجة النبي ﷺ، التي شاركتنا في التفاصيل الحميمة لحياتها معه. حتى نتعلم من تجاربها. ربما سيتعلم بعضهن منا.

الآراء المذكورة في هذا الكتاب نتيجة تجارب وفهم شخصي، ولهذا لا تمثّل كل النساء المسلمات. لا تعدّ كذلك تجاربنا بوصفنا نساء اعتنقنا الإسلام انعكاساً لتجارب كل النساء المسلمات. يعد المسلمون اعتناق الإسلام مجرد «رجوع» إلى فطرة الإنسان الطبيعية في الاعتراف بوجود رب واحد وعبادته، لهذا يستعملون كلمة «رجوع» بدلاً من «تحوّل».

أيضاً، برغم أنني حاولت شرح المفاهيم الإسلامية وتوضيحها قدر الإمكان، إلا أنه توجد بعض الأشياء التي سيكون صعباً على غير المسلمين، فهمها. يقبل المسلم تلك الأشياء بسبب إيمانه وانغماسه في المعرفة الإسلامية، لا يمكن توقع الشيء نفسه من أولئك الذين لم يدخلوا الإيمان.

المسلمون مطالبون بالصلاة والسلام على النبي محمد ﷺ كلما ذُكر اسمه. لهذا السبب، يوجد ﷺ خلف اسمه، برغم أنه ينبغي قول التحية كاملة. يُظهر المسلمون احترامهم أيضاً لصحابته رضوان الله عليهم بقول (رضي الله عنه/عنهم) لدى ذكر أسمائهم.

وفقاً للمصـطلحات الإسـلامية، غطاء الرأس يدعى الخمار بالعربية. بأي حال، على أن كلمة حجاب أكثر شـيوعاً، اسـتعملت الكلمتان بالتناوب في هذا الكتاب.

برغم أن قصص أخواتي حقيقية، إلا أنني قمت بتغيير أسمائهن كلهن.

مقدمة

رؤية امرأة مسلمة في شوارع مدينة غربية، مغطّاة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، نادراً ما يفشل في إثارة رد فعل قوي. لا تعد مشاعر الصدمة، الرعب، الاشمئزاز أو الشفقة غير مألوفة؛ خاصةً لدى رؤية هذا المنظر الغريب للمرة الأولى. تتراوح التعليقات من التعاطف: («امرأة مسكينة، ألا تعرف أنها في إنكلترا الآن، وأنه ليس عليها ارتداء مثل تلك الملابس؟») والإهانة: («تجعلني رؤيتهن يرتدين مثل تلك الملابس أشعر بالاشمئزاز!») إلى السخيفة: («أرى أنها تبدو مثل كلب تحت تلك الملابس!»).

دون شك، هناك افتراض بأن تلك المرأة المسكينة قد تم إرغامها من قبل زوجها أو عائلتها على ارتداء تلك الملابس، وأنها مهاجرة غير مثقفة تتكلم الإنكليزية بالكاد أو لا تتكلمها على الإطلاق، غارقة في الجهل وأن عليها اختبار مباهج الحريات الغربية. إنها، في الحقيقة، بحاجة ماسّة للحصول على حريتها.

ذاك هو التصور الشائع عن تلك المرأة، التي تبقى دون وجه، أو اسم أو صوت شخصاً نكرة!

لكن ماذا إن كان لهذه المرأة اسم، ماذا إن كان لها صوت؟ ماذا إن كانت تستطيع إخبارِك عن نفسها، وتاريخها، وعائلتها، وأفكارها ومشاعرها؟ ماذا إن استطعت، بمشاطرتها لمشاعرها معك، رؤية ما وراء الرداء الخارجي، وراء الخمار، وأن تشاهدي بنفسك أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بينكما؟

بحلول سـنة 1977، كان والداي قد غادرا جنوب إفريقية حيث التمييز العنصري واستقرا في ليدز، حيث ولدت. سافرنا بعدها إلى أثيوبيا ثم إلى زيمبابوي، حيث قضيت الاثنتي عشرة سنة اللاحقة، والتحقت بالمدرستين الابتدائية والثانوية هناك، وعشت حياة مراهقة، جنوب إفريقية عادية من الطبقة الوسطى. لعبت وأقمت حفلات مع أندادي، وعشنا وفقاً للعوامل التي أثّرت بنا ثقافياً، أعني: الموسيقى، والفيديو والأفلام الأمريكية. في السابعة عشـرة، تخليت عمّا كنت أعده «ذهنية البلدة الصـغيرة» في هراري وجئت إلى لندن للدراسـة. عندما كنت في الجامعة، تعرفت على طرق جديدة في التفكير والحياة ـ أصـبحت أكثر اهتماماً بقضايا العالم، ومثل العديد من طلاب الدراسات الاجتماعية، أصـبحت أكثر تشدّداً واهتماماً بالسياسة، وتحولـت إلى اعتنـاق كفاح القومية السـوداء. على أي حـال، تعرّفت على الإسـلام أول مرة خلال رحلة إلى مصر وقد صـدمني الحجاب، وطريقة سـتر النساء المسلمات لأنفسهن. كانت تلك الرحلة نقطة تحول في حياتي، ودفعتني للتسـاؤل عـن طريقة حياتي، ومعتقداتي وهـدفي في الحياة. بعد إمعـان التفكير واجتياز العديد من الأميـال الجوية، قطعت أولى خطواتي المترددة على درب الإسلام.

منذ اعتناق الإسلام، كنت محظوظة بلقاء العديد من النساء الرائعات اللواتي اعتنقن، مثلي، الإسـلام: نساء صـادقات، نساء حريصات، نساء قويات. عبر صداقاتنا المزدهرة، استطعت التعرف على جوانب عديدة من شخصـياتهن. كن قد كلّمنني عن الإيمان، والصـبر، عن أنفسهن وعني. لكن، حتى ذلك الوقـت، كان الآخرون يحددون لنا ما نحن عليه، وبكلمات ليست خاصة بنا.

لوقت طويـل، كانت فكـرة الكتابة عن تجاربي وتجـارب أخواتي تجول في خاطـري. اعتقدت أنه من المهم سـرد قصـتنا، لأولئك الذين يعرفوننا والذين لا يعرفوننا، وللغرباء الذين يشاهدوننا ويسيئون فهمنا.

أدعوكم الآن لمرافقتي إلى قلبي وقلوب «أخواتي في الإسلام»، لاكتشاف مـن نحن حقاً ليس ما تقوله الأفكار الجاهزة سـلفاً، أو ما تقوله وسـائل الإعـلام بل ما نقوله نحن. لقد تكلمنا بصـراحة حـول الكثير من مناحي حياتنا، ونثق بأنكم سوف تصغون دون تحيّز.

آمل أيضـاً أنكـم، فيما تقـرؤون، ستشـكّلون أفكاركم الخاصـة وتتحدّون تصـوراتكم المسـبقة عن الإسلام. بتقديم الإيمان الإسـلامي ظاهراً في حياة النساء في هذا الكتاب، آمل أن أقدّم جانباً شخصياً وخاصاً من الإسلام، جانباً لا يراه سوى أولئك المقرّبين بما يكفي للسماح لهم بدخول حلقته الضيقة.

هـذا الكتاب احتفالية. إنه احتفالية بالمـرأة. إنه احتفالية بالأخوّة. إنه احتفالية بالشـجاعة، الدفء والصـداقة. إنه احتفالية بالضحك، الصبر والمحبة. إنه احتفالية بالإسلام.

نعيمة ب. روبرت

كانون الأول 2004

الجزء الأول

اكتشاف الإسلام

هذه قصة عن كيفية اعتناقنا للإسلام.

هذه القصص ليست سوى أجزاء يسيرة من تاريخنا الشخصي.

جزء منا يريد إبقاءها كذلك، إبقاءها خاصة، لحمايتها.

لكن جزءاً آخر منا، الجزء الأقوى، يريد مشاركة تاريخنا معكم، واصطحابكم في هذه الرحلة أيضاً.

لإظهار أن الإسلام يخاطب قلوب الناس من خلفيات شديدة التنوّع، بطرق شديدة التنوّع.

لإظهار كيف يُغني الإسلام حياة ملايين الناس، كل يوم، بكل طريقة.

للاشتراك في حزن وسعادة لترك ما تعرفونه إلى ما يمكنكم تخيّله فقط.

لإظهار أننا قد اخترنا أن نكون ـ وفخورات بأن نكون ـ نساء مسلمات.

لإظهار أننا نبذل كل ما في جهدنا للتمسك بإسلامنا بكل قوانا، وأننا سوف نتمسك به، حتى عندما يحرقنا مثل جمرات ساخنة.

لإظهار أننا منكم، وأن جذورنا تنبت من المكان نفسه الذي تنبت منه جذوركم.

إنها فقط فاكهتنا وأزهارنا التي تختلف؛ لأننا نتغذى من مصدر مختلف.

1

دربــي

ولدت في ليدز شمال إنكلترا، حيث كان والدي ووالدتي قد اشتريا منزلاً صـغيراً ضمن صف من البيوت يقع على طريق ضـيق قبالة صف آخر من المنازل الشبيهة به تماماً. وبعد ثلاث سنوات، انتقلت عائلتنا إلى أثيوبيا ثم إلى زيمبابوي عندما كنت في السادسـة من العمر. في ذلك الوقت، أصـبح لي شقيق وشقيقة صـغيرة ممتلئة الجسم، أحببتها كثيراً. عشنا في منزل جميـل في إحدى ضـواحي هراري التي تنخفض فيها «الكثافة السـكانية»، مع حوض سـباحة وفدانين من الأزهار، وحديقة خضراوات وأشجار موز. خلال الثماني عشـرة سـنة الأولى من حياتي، عشـت مثل أي شابة أخرى أعرفها من الطبقة الوسطى في زيمبابوي.

التحقت بمدرسـة بنـات في هراري، وكنت أرتدي سـترة موحدة وأعتمر قبعة من القماش، وترأسـت البنات عندما أصـبحت في الصـف السادس. بـذل والدي ووالدتي جهدهما لتعلمينا جذورنا الأسـكتلندية، تلك التي تعود إلى قبيلـة الزولو، وثقافتنـا الجنوب إفريقية، وأن نقـدّر ما نحن عليه ومن أين جئنا. لم يرسلانا أبداً إلى مدارس خاصة استعمارية الأسلوب، وتعلمنا الرقصات الزيمبابوية التقليدية، وغالباً ما كنا نشدو بأغانٍ مناهضة للتمييز العنصري في أثناء سـيرنا إلى المدرسة. وبالفعل، كنا ناشطين سياسياً منذ عمر مبكر، وعندما أصـبحنا أكبر سـناً، غالباً ما كانت الرغبة بالتوافق مع الأنداد ومحاكاة ما نراه على التلفاز تطغى على أفضل نوايا أهلنا.

استمتعت بدراستي كثيراً وفزت دورياً بجوائز أكاديمية، فنية، وفي مجالي الخطابة والمسرح في نهاية كل سنة. كنت فتاة منطلقة وواثقة من نفسي، مفعمة بالحياة والأفكار، نشيطة، وأقوم بتطوير مشاريع جديدة دائماً. على أي حال، إلى جانب شخصيتي المدرسية المتميزة، كنت فتاة حفلات أيضاً، كما كانت حال جميع أصدقائي آنذاك. عشنا جميعاً حياة مزدوجة إذا صح القول، وتفوق الكثيرون منا في المدرسة برغم ظهورنا المستمر في حفلات هراري. لم تكن مثُلنا العليا مؤلفين كباراً أو مفكّرين يدعون للمساواة بين الجنسين، برغم حصولنا فعلاً على اشتراك في مجلة كوزموبوليتان Cosmopolitan الداعية إلى المساواة! ولم يكن مثلنا الأعلى كذلك بطلات كفاح التحرير الزيمبابوي المدعوات شيمورينغا Chimurenga. كانت مثلنا العليا الممثلات والمغنيات الأمريكيات وضمنهن فرق الفتيات ت-إل-سي TLC وسالت-إن-بيبا Salt-N-Pepa.

وجاء «توجيهنا الأخلاقي» من آر-و-ب R'n'B، موسيقى الراغا و«فرق» الراب ـ لم يكن بالتوجيه المهم كما سيخبركم أي شخص استمع مرة إلى تو لايف كرو 2 Live Crew، سنوب دوغي دوغ Snoop Doggy Dogg أو شابا رانكس Shabba Ranks! في الواقع، العادات الجنسية والأعراف الاجتماعية لغالبية شباب هراري «الباردين» كانت مستوردة بالكامل من الشواطئ الغربية كنا مثل الشباب في الكثير من الأماكن، مرتاحي البال ولا شيء يؤرقنا. أرتعش دائماً عندما أفكر في عدد المرات التي اقتربنا فيها من الخطر: نظراً لأسلوب حياتنا وافتقارنا إلى الحذر. كنا مهملين فيما يخص الشراب والقيادة، مخمورين، البقاء مع غرباء، الخروج وحدنا ليلاً دون نقود، تحت رحمة شباب حمقى مثلنا، الإصابة بفيروس الزهري، فيروس

إتش-آي-في (المسبب لمرض الإيدز)، الحمل المبكر، الإجهاض؛ سمّ ما شئت، فقد كنا قريبين من كل ذلك. على أي حال، مرّت سنوات مراهقتي بسلام دون أن أصاب بأذى، وفي جعبتي علامات جيدة في الامتحانات! لم يكن كل أصدقائي محظوظين بذلك القدر.

بخلاف غالبية الزيمبابويين، نشأت في أسرة غير متدينة. كانت والدتي، وهي امرأة بارعة الجمال من الزولو، قد ولدت ونشأت نصرانية، لكنها عاشت حياة مدنية صاخبة في جوهانسبرغ، وعملت ممرضة فيما كانت تحصد جوائز الجمال وبطولات الرقص. خالفت والدتي التقاليد (وقوانين التمييز العنصري)، ووقعت في حب والدي، الجنوب إفريقي الأبيض. برغم تلقين والدي أنه صاحب امتياز ومتفوق على ما سواه في مدارس خاصة بالبيض، إلا أنه رفض المعيار العنصري لنظام الفصل واحتضن الكفاح المناهض له في المسرح الثابت الجذور. في حال كان هناك «إفريقي أبيض»، سيكون هو! كان والدي ماركسياً ملتزماً وسفسطائياً (شخص يقول: إنه لا يمكن معرفة شيء عن الله) في ذلك. لهذا، عندما كنا أطفالاً، قيل لنا: إن الإنجيل مليء بحكايات الجان، وقد صدّقنا ذلك. على أي حال، كنت أشدو التراتيل وأتلو صلوات للرب مثل كل الأطفال الآخرين، برغم أنها لم تكن تعني شيئاً لي.

في سنتي الأخيرة في المدرسة الثانوية، قررت التقدم بطلب للحصول على مقعد جامعي في لندن. كنت مصممة على الخروج من زيمبابوي. لم أكن أريد الوقوع في مصيدة التفكير بأن حياة المدينة في هراري هي كل شيء وأن نادي سيركس (السيرك) الليلي هو أفضل مكان على وجه الكوكب. لهذا تقدمت بطلب وتم قبولي في إحدى كليات جامعة لندن.

كل ما كان علي فعله هو الحصول على المال اللازم لإيصالي إلى هناك! بعد نحو ثمانية شهور من العمل في صناعة السفر والغناء في فرق محلية ناجحة، ادخرت ما يكفي من المال لشراء التذكرة وقضاء الشهور الأولى في لندن. وهكذا، غادرت هراري لدراسة الفرنسية، علم السياسة والاقتصاد في لندن. هناك، التقيت المجموعة الأولى من صديقاتي المقرّبات، وبدأت اكتشاف المعنى الحقيقي للصداقة بين النساء. قرأنا معاً، عملنا معاً، أكلنا معاً واحتفلنا معاً. استكشفنا فرانتز فانون، أليس وكر وديكارت. أحنينا رؤوسنا احتراماً لطاقم عمل بوف دادي، ماكسويل وإيريكا بادو. تركنا شعرنا «ينمو بشكل طبيعي»، دون مواد كيميائية، وعقصناه وجدلناه ولففناه بأسلوب إفريقي. تكلمنا حول قضايا سوداء (أضحت وجهات نظرنا حولها أكثر حدّة)، حول حالة العالم، حول عائلاتنا وماضينا. كانت دائرتي الاجتماعية مكوّنة من مجموعة من الشابات السوداوات الجميلات الواثقات من أنفسهن، اللواتي يتابعن تعليمهن، ويستمتعن بالحياة، على قمة العالم، أو هذا ما كنت أعتقده.

خلال صيف سنتي الأولى في الجامعة، قمت برحلة غيّرت حياتي إلى الأبد. بدأ كل شيء مع دعوة بريئة للمشاركة في مهرجان موسيقي في مصر لتمثيل زيمبابوي، إلى جانب أحد أصدقائي الموسيقيين الذي كان مغنياً محترفاً وعازف مبيرا (أداة موسيقية زيمبابوية). برغم أنني لم أكن موسيقية محترفة، إلا أنني كنت أستطيع الغناء والضرب على الطبل الإفريقي نغوما، إضافة إلى إجادة العديد من الرقصات الزيمبابوية التقليدية.

كانت مصر حارة وتضج بالضوضاء، وتنشط فيها الحركة في ظلال من الرمال وضوء الشمس. بالطبع، زرنا الأهرامات، والمتاحف والأسواق

كما يفعل كل السياح. لكني أتذكر أيضاً اهتمامي الشديد بالنساء اللواتي يضعن غطاء الرأس، الحجاب، أينما ذهبنا، وبكل صراحة، شعرت بالخوف. ثارت كل غرائز المساواة الناشئة داخلي ضد فكرة قيام المرأة بتغطية نفسها، اعتقدت أنه رمز لاضطهاد المرأة، وهيمنة الرجل. لكن على الأغلب، كنت أعتقد أنه يجعلهن يبدون قبيحات. عادةً، عندما نشاهد أشياء غريبة عنا، نستند في آرائنا إلى تجاربنا ومعرفتنا. نادراً ما نتغاضى في الواقع عن ملاحظاتنا ونحاول فهم ما نراه من خلال عيون أولئك الذين يعيشونه. لسبب ما، تجرأت في تلك الرحلة على طرح أسئلة حول ما كان يبدو مبهماً بالنسبة لي.

في إحدى الأمسيات، كنا نقيم حفلة موسيقية في قرية خارج المدينة. بعد أن انتهينا، أتذكر أنني شاهدت شابة، زوجة المنظّم، وكانت ترتدي غطاء رأس ـ حجاب ـ بلون الكريم. كان يؤطر وجهها ثم يلتف في طيّات فوق عنقها وصدرها. نظرت إلى وجهها، كانت جميلة. بدا لي أن وجهها يشع ألقاً، ونوعاً ما وبطريقة ما، كان الحجاب يبرز ذلك. كنت مأخوذة للغاية بذلك المنظر، لدرجة أنني توقفت للحديث إليها. بعد تبادل الدعابات، طرحت عليها سؤالاً كان يشغل ذهني منذ وصلت إلى القاهرة: «لماذا تغطين نفسك؟ إنكِ جميلة للغاية». حتى يومنا هذا، ترن إجابتها الواضحة والبسيطة في ذاكرتي.

قالت: «لأنني أريد أن يحكم الناس علي بما أقوله وأفعله، وليس بما أبدو عليه».

بووم!

منــذ وعيت على هذه الدنيا وأنا أهتم بمظهري، ليس لأنني جميلة على وجه الخصوص (برغم أن أصدقائي وعائلتي سيشهدون على غروري)، لكن بسبب رد فعل الناس تجاهي. خلال سنوات مراهقتي، كنت أنا وصديقاتي مرتاحات تماماً للفكرة القائلة: إن مظهرنا الخارجي ميزة لنا، ونســتطيع الســيطرة علــى الرجال بهذه الطريقــة. في ذلك العالم، تعــرف كل امرأة الخدعــة: عندمــا تذهبين إلى مقابلة عمل، تأكــدي أن يكون مظهرك على أحسن ما يرام، وإذا كان من تقابلينه رجلاً، فربما ينبغي عليكِ أن تكشفي ســاقكِ قليلاً، تضــحكين على دعاباته، تمدّين شفتيك قليلاً؛ ليدعوك إلى الغداء، على ذلك النوع من الأشــياء تنشــأ معظم النساء وهن يعرفن تلك الخدع ويستعملنها بوعي أو عن غير إدراك.

في تلك الليلة في القرية المصــرية، عندما قالــت لي المرأة الفاتنة: إنها غــير مهتمة بأن يحكم الآخرون على مظهرهــا، وإنما على ما تقوله وتفكّر فيه، كان علي التوقف قليلاً وتســجيل ملاحظــة! ما الذي كانت تعنيه؟ هل تريد إزالة المظاهر الجســدية من المعادلة؟ لم أشعر سوى بالإعجاب تجاه تلك المرأة. أخذت أفكّر في الإسلام الذي يجعل المرأة قوية جداً لدرجة أنها لا تبذل كل ما بوسعها للفت انتباه الرجال، ولا تحتاج إلى نظرات الإعجاب تلك لتشــعر بأنهــا جذابة، ولا تعرض نفســها لمجرد أن باقــي العالم يفعل ذلك؟ أثّرت هذه الأســئلة بي بعمق. بدأت التفكير في حياتي، في الصــورة التي أكوّنها عن نفســي وكيف أريد أن أكبر وأتطور. ســألت نفســي: ما إذا كنت أتحلى بالشــجاعة، الثقة، والتقدير الذاتي للمضــي قدماً بشخصيتي وتفكيري فقط.

هذا ما كان، وبدأت في تلك الرحلة المصيرية إلى مصر في صيف 1998 التفكير حول الإسلام، ودارت عجلة التغيير. وبدا أن الحديث مع تلك المرأة الجميلة التي أثارت إعجابي بقوة شخصيتها قد فتح عينيّ. فجأة، بدأت أشاهد التقوى في كل مكان حولي، في المساجد، في الشوارع، وفي كل مكان. في ذلك الوقت، بدأت أهتم بكلمات التقوى، التي تُلفظ بالعربية: «بسم الله»، «الحمد لله»، «إن شاء الله»، «ما شاء الله». شعرت في الوقت نفسه بالدهشة والفضول؛ لأنني أدركت فجأة أن لدي جانباً روحياً لم يسبق لي استكشافه من قبل. شعرت بالقلق؛ لأنني لم أكن أعرف الكثير عن أحد أعظم أديان العالم. كنت ممتلئة بالنصرانية، ولم تحرك كل دروس الثقافة الدينية التي حضرتها في المدرسة مشاعري، وعلقت ذكرى قراءة الإنجيل، وصور المستعمرين حاملي البنادق في ذهني بشكل لا يمكن طمسه.

كان شبه مستحيل بالنسبة لي فصل النصرانية عن كل عواملها الثقافية وعن الإمبريالية التي نقلتها إلى إفريقية. نتج عن ترعرعنا في زيمبابوي، إحدى دول المواجهة التي تحد جنوب إفريقية التمييز العنصري، موزامبيق التي تعصف بها النزاعات، أنغولا وناميبيا، معرفتنا العميقة بالطريقة التي يتم بها استعمال النصرانية ستارة لحجب الأنظار عن سرقة أرضنا بشكل كامل. برغم أن ذلك لم يمنع (وما زال لا يمنع) غالبية الجنوب إفريقيين من التشبث بإيمانهم، إلا أنه كان يزعجني. ازداد هذا القلق باعتناقي لفكرة السود والأفارقة في الجامعة، التحول إلى النصرانية يماثل التخلي عن كل شيء. لكن الإسلام كان جديداً تماماً بالنسبة لي، ولا أعرف شيئاً أبداً عن تاريخه. بدأت أطرح أسئلة حول الإيمان: ما يؤمن به المسلمون، ما يفعلونه وما يمتنعون عنه. عقدت العزم على قراءة القرآن

لدى عودتي إلى لندن. والإنجيل أيضاً، شعرت أنني أريد منح النصرانية فرصة أخرى.

تركت مصر مصدومة: لقائي بالإيمان الإسلامي أثّر بي حتى النخاع. لم أستطع وضع إصبعي على ما أثارني إلى ذلك الحد، لكن مهما كان السبب فقد تحول إلى تساؤل عن كل تلك الافتراضات والتوقعات القائمة منذ أمدٍ طويل حول طموحاتي المستقبلية. ما هو هدف حياتي؟ هل سأتخرج في الجامعة وأحصل على عمل مرموق، وأعمل من التاسعة حتى التاسعة؟ هل سأنفق مالي على الملابس والأثاث المنزلي، وأزور زيمبابوي كل سنة؟ هل سأعود في النهاية إلى هناك، أتزوج من «رجل محلي» وأعيش في ضاحية راقية مع خادمة، طاهٍ وبستاني، بعيداً عن عامة الشعب ـ بوفو؟ هل سأنتظر حتى أبلغ الثلاثين من العمر لأنجب أطفالاً، وأتأكد من التحاقهم بأفضل المدارس الخاصة الاستعمارية الأسلوب وأصطحبهم في رحلات ما وراء البحار كل سنة؟ في الجوهر، هل سأعيش الحياة التي اخترتها خلال سنوات مراهقتي، الحياة التي كان يصبو إليها كل الزيمبابويين الشباب في دائرتي الاجتماعية؟ بشكل ما، كل ما رأيته وسمعته في مصر أيقظ شيئاً ما في داخلي، توقاً إلى استشراف الوجهة، إلى العمق والجوهر، اشتياقاً إلى شيء أكثر من مجرد وجود مبتذل كنت أخطط له. للمرة الأولى، بدأت أتساءل حول العالم وموقعي فيه: بدأت أتساءل حول معنى الحياة؟

لدى عودتي إلى لندن، كنت مقتنعة آنذاك بأنني أريد منح موضوع «اللباس المحتشم» فرصة. لهذا غطيت رأسي، كما كانت تفعل المغنية إيريكا بادو في تلك السنة، وارتديت ملابس فضفاضة، قمصان مغلقة عند الصدر وسراويل واسعة ذات ألوان هادئة. إضافة إلى ذلك، كنت أتأكد

دائماً من ارتداء معطف عندما أرتدي سـرولاً ضـيقاً. لم يمر تحولي من مغنية ملهى إلى «أخت إفريقية» مرور الكـرام في الحرم الجامعي. كانت إحدى الشـائعات التي وصلتني أنني قد انضممت إلى فرقة دينية وأن علي وضـع غطاء الرأس طيلة الوقت. على أي حال، لم تزعجني تلك الشائعات لأن غرائزي كانت توحي إلي بأنني أقوم بالعمل الصحيح، بغض النظر عن الاستنتاجات المتطرفة التي قد يقفز إليها بعضهم.

اشتريت نسخة من القرآن مترجمة من قبل مارمادوك بيكتهول، المؤلف الإنكليزي الذي اعتنق الإسـلام في بداية القرن العشرين. لخوفي الشديد، لم أسـتطع اسـتيعاب معانيـه العظيمة. بغض النظر عن دروس الثقافة الدينية في المدرسـة، إلا أنني نشـأت خارج تقاليد الكتاب المقدس ولم أكن أشعر بأنني على صلة جيدة بقصص الأنبياء وشعوب الماضي. وبما أنني لم أكن أسـتطيع قراءة العربية في ذلك الوقت، فقد كان عليّ تدبر أموري مع النسخة الإنكليزية التي سيخبركم أي شخص بأنها مجرد ترجمة سيئة. لم يشـرح لي أحد مصادرها، لم أكن أعرف كيف خرجت إلى الوجود بشكلها الحالي، وما إذا كانت الوحي الأصـلي نفسـه أو أن شخصـاً ما، مثل النبي محمد ﷺ أو أصحابه، قد كتبوها بأنفسهم. كنت أعتقد أنه يشبه الإنجيل كثيراً، وأنه لذلك يحتوي على بعض القصـص نفسـها التي وضـعها رجال مختلفـون عبر مر السـنين. في الحقيقة، لم تكن ردة فعلـي الأوّلية موقرة وكانت نسـختي الأولى مليئة بالخطوط تحت الكلمات، علامات الاستفهام والتعجب. كانت هناك بعض المفاهيم التي لم أسـتطع اسـتيعابها في ذلك الوقت، والتي بدأت أفهمها فقط عندما عرفت المزيد عن القرآن.

لكن كان هناك جوانب من الشريعة القرآنية فهمتها بسهولة. استطعت رؤية الجمال والحكمة في إقامة الصلاة خمس مرات يومياً. كان ذلك يعني أن أول عمل يقوم به المرء في اليوم هو العبادة، صلاة الفجر، كما أن آخر عمل هو صلاة العشاء. ما بين هاتين الصلاتين، تأتي الصلوات الثلاث الأخريات؛ صلاة الظهر وقت الغداء تقريباً، صلاة العصر في منتصف المدة بعد الظهر، وصلاة المغرب التي تقام عندما تصبغ الشمس الغيوم باللون الأحمر الداكن عند المغيب. تعد هذه الصلوات الخمس تذكيراً مستمراً بالرب، وفرصة لتجديد علاقة المرء بالمولى عزّ وجل.

كانت هناك قوانين أخرى بدت معقولة بالنسبة لي أيضاً. برغم أنني كنت معروفة مع صديقاتي بانغماسنا في شرب الخمر بين الفينة والأخرى، إلا أنه لم تكن لدي مشكلة في قبول تحريم الكحول والمُسكرات الأخرى. هناك حقيقة معروفة تماماً بأن رجال زيمبابوي يحبون جعتهم، وقد شاهدت خلال طفولتي ومراهقتي بأم عيني آثار إدمان الكحول، تبذير النقود، والعنف، والاختلاط غير الشرعي والعواقب المدمرة التي ترافق الشرب بشكل مفرط في التجمعات الإفريقية. لكن أي شخص في أي مكان في العالم عاقر تلك الجعة البغيضة حتى خرجت رائحتها من أنفاسه، لا بد أن يكون قد شعر بآثار الإسراف في الشراب، واختبر التقيؤ الذي يثير الغثيان، وشاهد الألم المثير للشجن الناتج عن الحاجة للكحول أو عانى من عواقب ثمالة «بعض المرح»؛ وسيفهم، قليلاً على الأقل، الطريقة التي يحط بها الكحول من كرامة البشر. على الرغم من أن هذه السيناريوهات لا ترافق كل المغامرين (المُبتلين) باحتساء الكحول، إلا أن إمكانية الوصول إلى ذلك كانت كافية لإقناعي بحكمة الابتعاد عنها تماماً.

علـى أي حال، تطلب الأمر مفاجأة بشـعة؛ حتى أتوقف عن تناول لحم الخنزير. كنت قد اشـتريت مع زميلتي في السـكن بعضاً منه، ووضعناه في الثلاجة. ما أثار اشـمئزازنا الشـديد أننـا عندما أخرجنـاه من الثلاجة لنطهوه في اليوم اللاحق، كانت قطعة اللحم الشاحبة اللون مليئة بالديدان. كان ذلك كافياً بالنسبة لي، حتى أقسم على عدم تناول لحم الخنزير طيلة حياتي. لغاية يومنا هذا، حتى الكلمة نفسها تجعلني أشعر بالغثيان.

بالنسـبة لي، توصـية الرجـال والنسـاء بالتواضـع ومعاملة بعضـهم باحترام كانت تعني وضع حد لاهتمام الرجال غير المرغوب فيه، صيحات الاستهجان، صـفير التحرش، الغمز واللمز والتحرش الجنسي. كان يعني أيضاً وضع حد للسـعي وراء الحصول على موافقة الذكور على مظهري أو ملابسـي. كان ذلك يعني تغيير نوعية ملابسـي وكيفية تفاعلي مع الرجال والمحافظـة على مسـافة معينة بينهم وبيني. كانـت تلك طريقة جديدة في الحياة، وطريقة جديدة في النظر إلى العالم. كان ذلك يعني أنني صاحبة القول الفصل: أشاطر من نفسي قدر ما أراه مناسباً، لا أكثر ـ ليس هناك رجل لديه حق عليّ. ماذا عساي أقول؟ كان ذلك يمنحني السلطة.

لهـذا، ببطء لكن بثبـات، كانت حياتـي تتغير. على أي حـال، لم أكن مقتنعـة بأننـي أحتاج لاعتناق الإسـلام فعـلاً حتى أعيش علـى الطريقة الإسـلامية. كنت أعتقد أنني سأسـتمر فقط في تغيير بعض الأشـياء هنا وهناك والحفاظ في الوقت نفسه على أسلوب حياتي وأهدافي الشخصية. وكنـت مـا أزال أدين بالـولاء لـ«إخوتي» و«أخواتي» السـود أكثر مما أدين به للمسـلمين الذين التقيـت بهم. بالفعل، برغم أننـي كنت منجذبة نحو الإسـلام، إلا أن المسـلمين كانوا ما يزالون غامضـين بالنسـبة لي. كانت

جامعتي تقع في مايل-إند، على الطريق بين وايتشابل وبريك-لين الذائعة (السيئة) الصيت الآن، ويقطن تلك المنطقة كثافة سكانية كبيرة من الآسيويين، معظمهم مسلمون. كانوا في كل مكان حولنا هناك ـ في المنازل المنفصلة والمتصلة، ومحال بيع الدجاج ورقائق البطاطا والمساجد. غالباً ما كنت أرى الرجال، المتجهمين، ذوي اللحى الشائبة والبيضاء، يمشون عاقدي العزم نحو منزل صغير قرب الحرم الجامعي يستعملونه مسجداً ـ مسجداً، كما علمت لاحقاً، لا مكان فيه للنساء لتأدية الصلاة. برغم أن النساء يتمتعن بخيار الصلاة إما في البيت أو المسجد، إلا أن بعض المساجد التقليدية لم تكن تفسح المجال للنساء باعتماد أحد الخيارين بأنفسهن.

كان معظم المسلمين هناك بنغالاً وكنت أرى النساء أيضاً، اللواتي يرتدين فساتين (ساري) تلوح من تحت عباءاتهن السوداء، ويضعن أوشحة غير ثابتة على رؤوسهن. وشفاههن وأسنانهن مصبوغة بلون برتقالي داكن نتيجة تناولهن جوز نخل التنبول (فوفل) الذي يحببن مضغه. ثم كان هناك الفتيات الصغيرات المشرقات الوجه، بأوشحتهن المزركشة وملابسهن النسائية الطراز، السروال والقميص، والفتيان الصغار، النحيلون، بشعرهم المصفف وهواتفهم المحمولة المنتشرة في كل مكان. شاهدت كل أولئك الناس، أولئك المسلمين، وعرفت أنهم يؤمنون بالله وأنهم دون شك يقرؤون القرآن نفسه الذي أحاول جاهدة قراءته كل يوم. وبرغم ذلك، لم أشعر بأي صلة نحوهم على الإطلاق، لم أرَ نفسي في عيونهم. ولهذا بقيت بعيدة.

انتهت عزلتي الدينية عندما شاهدت فتاة من الجامعة كانت أقدم مني بسنة. كان اسمها ساندرا، وكنت أحاول جعلها تنتسب إلى الجمعية

الكاريبيــة ـــ الإفريقيــة منذ وقــت طويل. علــى أي حال، كانت صــديقتها الحميمة هناء عربية، مســلمة، من والد مصــري وأم مــن زنجبار. أتذكر أنها كانت تعترض دائماً على ما تعده الإقصــاء والتمييز العنصــري الذي تمارســه الجمعية، لهذا تخليت تماماً عن محاولة ضم كلتيهما. لكن، يوماً ما، كنت أســير عبر مطعم الجامعة ووقع بصــري على ساندرا، التي كانت تجلس مع مجموعة من الأصدقاء. كانوا جميعاً يبدون متشابهين، عدا تلك النظرة الغريبة على وجه ســاندرا والوشــاح الذي كانت تلفه حول رأسها. كان واحداً من تلك الحجابات المزركشــة المفضــلة لدى البنغاليات، لكنها كانــت تلفّه حول رأســها بدلاً من تركه ينســدل؛ ليغطي عنقها وصــدرها. كانت تبدو مختلفة تماماً. ســألت نفســي: ما الذي فعلته؟ كنت مهتمة جداً بذلــك، حتى إنني لم أســتطع مقاومة الرغبة الذهاب إليها وســؤالها حول مظهرهــا الجديد. أخبرتني عندها بأنها نطقت بالشــهادة في عطلة نهاية ذلك الأسبوع، لقد نطقت بشهادة الإيمان الإسلامي:

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».

كانت مسلمة آنذاك. شــعرت الصدمة والحسد في الوقت نفسه، كانت تبدو ســعيدة جداً، كما لو أنها أدركت أنها فعلت شيئاً مهماً وذا معنى، وأن مــا قامت به هو الصــواب. لقد خطت خطوة شــجاعة، خطوة كنت خائفة جداً من الإقدام عليها.

تمالكت نفسي لأقول: «حسناً، أنتِ أكثر شجاعة مني». ثم أخبرتها عن خطواتي المترددة نحو الإســلام وعن تحفظاتي. سألتني في ذلك الوقت ما إذا كنت أرغب في المجيء إلى غرفتها في المدينة الجامعية، وتعليمها كيفية

ربط غطاء الرأس؟ كنت سعيدة لقبول ذلك. في اليوم اللاحق، ذهبت مع بعض الأشياء، بينها قطعة قماش ذهبية جميلة مقلّمة بالأحمر من مصر، قطعة من النسيج الأسود السميك الممتازة لوضع «حجاب» ثابت وقطعة من القماش الشفاف الأزرق الداكن. وفي تلك الليلة، فيما كنا نحاول القيام بذلك، وبين عقد الحجاب والقيام بعدة محاولات فاشلة، بدأت عرى الصداقة تتوثق بيننا، صداقة كانت ستغير حياتي إلى الأبد.

فجأة، كان لدي شخص يشاركني اهتمامي بالإسلام، أناقشه وأتجادل معه في تفاصيل الإيمان، وقد استسغت ذلك. وفيما بدأ اهتمامي بكل الأمور الإسلامية يزداد، بدأ شغفي بـ«قضايا السود» يتضاءل. لم نكن نناقش قضايا جدّية حقاً في اجتماعات الجمعية الكاريبية ـ الإفريقية، وأصابني الإحباط خاصةً من الطريقة المتكررة التي نناقش بها الموضوعات نفسها، سنة بعد أخرى. وفيما استمرت النقاشات القديمة نفسها حول الهوية الإفريقية مقارنة بالكاريبية، ومخاطر العلاقات بين السود والبيض، والأغاني المناهضة للنساء وتلك التي تحض على العنف في رفع حرارة اجتماعاتنا، بدأ قلبي يشعر بالاستياء بشكل غريب. بدا كل ذلك سطحياً جداً، ولا معنى له، هل كانت تلك حقاً أهم القضايا التي تواجهنا بصفتنا بشراً؟ قادني اهتمامي المتزايد بالإسلام إلى رؤية وجهة نظر مختلفة تماماً عن العالم، وإلى فهم جديد لهدف وجود البشر، ووجدت من الصعوبة بمكان أن أتجاهل كل ما كنت أعرفه آنذاك. كانت القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لي عندما نظمت الجمعية عرضاً للفيلم الجامايكي ملكة الرقص ضمن أمسية ثقافية.

شعرت عندما جلست في القاعة المظلمة، أستمع إلى موسيقى الراغا

تصــدح من حولي، وأنظر إلى الأجســاد التي تتلوى على خشــبة المســرح، والســيقان المنفرجة، المكســوة «بالكاد» والأحذية التي تصل إلى الفخذين، بأنني بعيدة جداً، ومنعزلة تماماً عما يجري. فكّرت في قرارة نفسي بأنني لا أريد الاستمرار على المنوال نفسه، وأنني لم أعد أنتمي إلى ذلك المكان.

لهذا نهضــت، غادرت القاعة وذهبت إلى مصــلى الطلاب في الجانب الآخــر مــن الحرم الجامعــي. كنت بحاجــة للوجود مع أشــخاص آخرين يكونــون على الموجة نفســها معي. كنــت بحاجة إلى صــحبة مفيدة. كنت بحاجــة إلى العمــق والمعنى. كنــت بحاجة إلى غذاء الــروح! أدركت وقتها أننــي لم أعــد أرتاح تماماً لشخصــيتي القديمــة وأن قلبي يتحول، شــيئاً فشيئاً، نحو الإسلام.

لكــن، برغــم كل اشــتياق قلبي، كانــت هناك أمــور ينبغــي أخذها في الحســبان. وأيديولوجيات وسياســات. كيف يمكنني، وأنا المرأة الإفريقية الســوداء (كما كنت أرى نفســي في ذلــك الوقــت، دون أن أمانع كوني من أصــول مختلطة!) أن أعتنق الإسلام؟ مما كنت أراه آنذاك، كان الإسلام ديناً للآســيويين والعرب! بالمحصــلة، كان أولئك هم المســلمين الوحيدين الذين سبق ورأيتهم من قبل. فشلت في تخيل قدرتي على التوافق مع طريقة الحياة تلك دون أن أخســر شعوري بالهوية. وملأتني فكرة اعتناق دين قد يبعدني عن عائلتي، وأصدقائي وتقاليد أسلافي بالرعب.

كانت صــديقتي الجديدة، ساندرا، صبورة للغاية معي عندما كنت أثير تلك الاعتراضات. أعتقد أن جزءاً منها كان يرى الخلفية التي جئت منها، لكن جزءاً أكبر منها كان يتســاءل عن سبب تشبثي الشديد بفكرة «الهوية

الإفريقية». كان الأمر بالنسبة لها بسيطاً: إذا كان الإسلام هو الحقيقة، فكل تلك الأشياء الأخرى ثانوية، لهذا لماذا ندعها تعترض طريق اعتناقنا ما نعرف أنه الحق؟

لكن كان لدي المزيد من الأسئلة لها. أتذكر بكل وضوح أنني صرخت يوماً ما: «ماذا إن وهبت حياتي لله وفعل بها شيئاً لا أريده؟». بالمحصلة، كان لدي خطط: العمل الممتاز، المال، الزفاف الكبير في الديار، الأطفال بسترات مقلّمة وضفائر مجدولة، كنت وضعت كل ذلك بالحسبان! لكن إذا اعتنقت الإسلام، كنت أعرف أن ذلك كله سيتغير. هل كنت مستعدة للتخلي عن طموحاتي وخططي للمستقبل؟ لا، لم أكن مستعدة لذلك التغيير، لست مستعدة للتخلي عن مستقبل مخطط بعناية ومحدد سلفاً بالماضي الذي عشته. كنت مترددة نتيجة الخوف من المجهول، الخوف من عدم اليقين، الخوف من الإذعان.

بحلول ذلك الوقت بدأت العمل موظفة بديلة في شركة أحذية كبيرة في لندن. التقيت هناك امرأة تنحدر من جزر الهند الغربية، وسررت عندما رأيت وجهاً أسود آخر في المكتب، ولهذا كنت ودودة معها. اكتشفت أنها متواضعة ولطيفة جداً، وتأثرت تماماً عندما أخبرتني أنها أضافت «إكس» بعد اسمها بدلاً من اسم العائلة التي لم تعرفها أبداً. في الغرب، يحمل كل شخص أسود كان أسلافه أرقاء اسماً أوروبياً، هو اسم مالك أسلافهم، أو سيد الرقيق. تغيرت أسماؤهم الإفريقية الأصلية الآن، التي لم تعد معروفة على الأغلب. سرعان ما اكتشفت أن عادة استبدال اسم عائلة الرقيق بحرف «إكس» هي ما يفعله مناصرو ما يدعى أمة الإسلام، تماماً كما فعل رئيسها ذو الشخصية الجذابة مالكوم إكس من قبل. لهذا عندما

أخبرتني مونيكا أنها تذهب بانتظام إلى المبنى الخاص بأمة الإسلام في شيفردز بوش ودعتني لمرافقتها، كنت متلهفة للذهاب واختبار ذلك بنفسي. ربما كان ذلك ما أنتمي إليه «نسخة سوداء» من الإسلام؟ لهذا، في أمسية اللقاء اللاحق، ذهبنا معاً وكانت تلك مواجهتي الأولى مع أمة الإسلام المثيرة للخلاف.

وصلنا إلى قاعة الاجتماع. كان حراس أمة الإسلام، طوال القامة عريضي المناكب ببذلاتهم وربطات أعناقهم الأنيقة على شكل فراشات، هناك لاستقبالنا. ضمن جوقة من كلمات الترحيب مثل: «السلام عليكم يا أخواتي السود»، «السلام عليكم يا ملكاتي السود»، قادونا إلى مقصورة في أعلى السلالم حيث تم تفتيشنا، وكانت تلك عادة متبعة نوعاً ما في اجتماعات أمة الإسلام. كانت المرأة في المقصورة ترتدي ما بدا أنه لباس رسمي: فستان أزرق داكن وغطاء على رأسها، يشبه ما ترتديه الراهبات إلى حد بعيد، والذي يغطي شعرها وينسدل خلف أذنيها حتى ظهرها. قامت بتفتيشنا، وأتذكر أن كفاءتها وجدّيتها أعجبتني، وهو شيء نادراً ما وجدته في منظمات السود التي عرفتها. عندما دخلنا قاعة الاجتماع، كانت النساء يجلسن على صفوف المقاعد الأقرب إلى المدخل والرجال على صفوف المقاعد في الطرف الآخر من الغرفة. كان هناك ممر ضيق يفصل بينهم. كان الجميع ينظرون نحو المنصة، حيث يقف أعضاء جدد في «فاكهة الإسلام»، الإطار التنظيمي لكوادر أمة الإسلام، وقد باعدوا بين أقدامهم، ينظرون دون أي انفعال على الفراغ، تماماً كما فعل غيرهم في الستينيات في عهد إلياس محمد. كان الرجال الآخرون يرتدون بذلات رسمية جميعاً، ويضع الكثيرون منهم ربطات عنق على شكل فراشة، وكانت

النســاء يرتديــن أغطية رأس شــبيهة تماماً بذلك الذي تضــعه أول امرأة قابلناها. جلست الزائرات في الصفوف الخلفية، يضعن أغطية الرأس من أجل تلك المناسبة.

يــدأ الاجتماع بتحية: «الســلام عليكم» وتلاوة أول ســورة مــن القرآن الكريم، الفاتحة. ما أعقب ذلك كان مزيجاً من الوعظ التبشــيري (الذي يشــتهر به متحدثو أمة الإســلام)، الحكايات الشخصية وعرضاً تقدم به أطفال مدرســة أمة الإســلام. أثار الاجتماع وما تضمنه مشاعر قوية فينا جميعاً، خاصــةً أولئك المهتمين بـ«قضايا السود» في الاجتماع. ذهبت ثانيةً بعد بضــعة أســابيع، واصــطحبت معي زميلتي في الســكن عفوة، وزميلتي نيشل. لم تفلح الأفكار العنصــرية التي أطلقها المتحدثون في إثارة اهتمام نيشــل على الإطلاق، كما أنها لم تؤثر بي أو بعفوة كثيراً. لكن فقط عندما ذهبت إلى الاجتماع الثالث مع صديق مسلم، حتى بدأت الشكوك تراودني فيما إذا كانت «أمة الإســلام» تناســبني حقاً. في البدايــة، لم أكن مقتنعة بفرضــيتهم القائلة: إن كل الحضــارات في العالم قامت على عاتق «الرجل الأســود الآســيوي». وجدت من الســخف أن تقوم حركة تدّعــي العمل على تعزيز مكانة الســود باختيار بذلات رسمية وربطات عنق على شكل فراشة لباســاً لأفرادها. كان الأمر الآخر الذي لا يُصــدّق هو الاســتعمال المتكرر لاسم «محمد» ـ اسم عربي بامتياز ـ والادعاء في الوقت نفسه بأنه لم يكن إفريقياً أو كاريبياً، وإنما من أصــل «آســيوي». في محطــة القطارات، قال صــديقنا المســلم: «ليس ذلك هو الإســلام الحقيقي». وبرغم أنني لم أكن أعرف الكثير في ذلك الوقت، إلا أنني أدركت أنه على حق. ومقارنة بمبادئ أمة الإســلام، كان الإسلام «الحقيقي» يبدو متناســقاً، متوازناً ومنفتحاً.

بدلاً من التركيز على العلاقة بين الإنسان الأسود و «الشياطين البيض»، مكانة السود والمشكلات الاجتماعية الأخرى التي تواجه مجتمعات السود، يشدد الإسلام على العلاقة بين كل البشر وخالقهم، الإيمان، الأخلاق والعبادة. بدت هاتان الطريقتان في العيش والاعتقاد متباعدتين تماماً. ولم يكن بحثي قد انتهى بعد.

لم يفارقني الشعور بأنني قد وصلت إلى نقطة تحول في حياتي. فيما شعرت، من ناحية، أنني لا أستطيع انتقاء واختيار جوانب الإسلام التي تناسب نظرتي للعالم؛ عرفت، من ناحية أخرى، أنني لا أستطيع العودة إلى أسلوب حياتي السابق. كان الوقت قد حان بالنسبة لي لأتخذ قراراً. وقالت لي ساندرا، التي أصبحت إحدى صديقاتي المقرّبات بحلول ذلك الوقت: إنه ينبغي علي اتخاذ قرار أو أنني سأخاطر بالموت كافرة؛ لأنني لست مسلمة. كنت أتعذب، لكن الأعياد النصرانية كانت على الأبواب، وكنت استلمت راتبي من المتجر الذي عملت فيه بدوام جزئي. ماذا عساي أفعل؟ هل أذهب لقضاء عيد الميلاد مع عائلتي التي كانت في الولايات المتحدة؟ أو هل أذهب إلى مكان آخر يساعدني على فهم ما ينبغي عليّ فعله بقية حياتي؟ اخترت الخيار الأخير. قررت الذهاب إلى إفريقية المسلمة، إلى غينيا، أرض الحياة المفعمة بالحيوية كما تخيلتها في ذهني بعد قراءة كتاب كامارا لين، لو إنفانت نوار L'Enfant Noir. اخترت غينيا أيضاً؛ لأنني عرفت أن غالبية سكانها مسلمون؛ ولأنني التقيت أيضاً، خلال رحلتي إلى مصر، مدير الخدمات البريدية الغيني الذي أثار هو وقومه إعجابي بإيمانهم الثابت وشعورهم القوي بالهوية. كان ذلك الرجل حلقة اتصالي فيما كنت أقوم بالاستعدادات لرحلتي.

كان كل أصدقائي خائفين. بالنسبة لهم، كانت الفكرة بمجملها جنونية: لم أكن أعرف مضيفي جيداً، ولم يسبق لي أن زرت البلد، وسوف أسافر وحدي دون وجود أحد يعتني بي. كانت اعتراضاتهم قوية جداً إلى درجة أنني كنت على وشك إلغاء كل شيء تقريباً، لكن حدثت بضعة أمور جعلتني أؤمن بأنه مقدّر لي القيام بتلك الرحلة. أول شيء كان التعرف مصادفة على مجموعة من النساء النيجيريات المسلمات في أثناء عملي في سوق البيع. عرفت فوراً أنهن نيجيريات؛ لأنهن كن يرتدين ملابس تقليدية (بوبو) وهي تلك الأثواب الإفريقية الفضفاضة المعروفة أيضاً باسم القفطان. لكن بدلاً من غطاء الرأس الشائع، كن يضعن على رؤوسهن الحجابات المزركشة المفضلة نفسها لدى الشابات الآسيويات في منطقتي. أثار ذلك فضولي، وجرياً على عادتي في تلك الأيام، ذهبت إليهن مباشرة وقلت: «السلام عليكم». أجبن جميعهن بابتسامات مشرقة: «وعليكم السلام». تابعت الحديث وسألتهن: من أين جئن وماذا يفعلن؟ قالت لي إحداهن، صاحبة الابتسامة الأكثر إشراقاً: إنهن من لاغوس وجئن إلى لندن في إجازة. اكتشفت لاحقاً أنها تمتلك وكالة سفر في وطنها نيجيريا. خلال سياق حديثنا، تبين أن لديها زميلة تدير وكالة سفر في كوناكري، عاصمة غينيا! عندما قلت لها: إنني أخطط للقيام برحلة لكنني لا أعرف أشخاصاً آخرين هناك، أصرّت أن آخذ بطاقتها واسم السيدة في كوناكري، وأن أبحث عنها حالما أصل إلى البلد. جعل ذلك قلبي ينشرح سروراً، هل كانت تلك إشارة على حتمية ذهابي بالمحصلة؟

ثم، في طريقي إلى المنزل على متن قطار الأنفاق، التقيت امرأة منحتني - لسبب ما - الشعور بأنها تؤمن بما أبحث عنه. شعرت أنني مرغمة على الحديث إليها.

سـألتها بعـد التعريـف بنفسـي: «هـل أنـتِ مسـلمة؟»، وردت: «نعم». اكتشـفت أنها من سـيراليون، لكني أعتقد أن والدهـا كان من غينيا. كان الأمر واضـحاً للغاية، كما لو أن جرسـين يقرعان في رأسـي، يشـيران إلى أنني أمتلك الجواب الصـحيح. برغم أن ذلـك كان يبدو عملاً متهوراً، إلا أننـي حزمت أمـري عندها وقررت الذهـاب إلى غينيا. أتذكـر أنني قلت لإحدى صـديقاتي في ذلك الوقت: «سـأذهب وإذا مت هناك، أعرف أنها ستكون مشيئة الله».

هكذا، عندما حصـلت على راتبي الشـهري الذي يتضمن أجور العمل الإضـافي وسـحبت مبلغاً أكثر من رصـيدي المصرفي، اشـتريت تذكرتي، وحزمت حقائبي وودّعت شقيقي وشقيقتي اللذين كانا يسافران عبر لندن. ثم صعدت الطائرة المتجهة إلى باريس. هناك، كان علي اللحاق برحلة إلى داكار في السـنغال، ومن هناك، اتجهت إلى كوناكري. كان يغمرني شـعور غريب طوال الرحلة. شـعرت أنني أسـبح في موجات القدر. كنت صـافية الذهـن وغير خائفة، برغم أنني كنـت قلقة من الخطر المحتمل. ربما كان مديـر البريد يكذب طوال الوقت، وقد لا يكون هناك زوجة وأطفال، وربما يكون الأمر كله حيلة لاستدراجي إلى هناك واستغلالي. لكن ذهني لم يكن مشـغولاً بمثل تلك الأفكار. لم يكن لدي هواجس، وفي الوقت الذي وصـلت فيه إلى قاعة العبور في باريس، كنت أعرف أنني أريد أن أكون مسلمة. كنت أريد أن أكون مثل أولئك الناس من حولي الذين يتمتعون بثقة كبيرة بالنفس ويبدون قانعين باعتناقهم الإسـلام. هذا اقتباس من دفتر المذكرات الذي احتفظت به عندما كنت هناك:

13/12: انتابتني مشاعر قوية لدى رؤيتي للمسلمين السنغاليين أول مرة ـ إنهم يبدون مثل قومي! ارتعش صدري وامتلأت عيناي بالدموع، الحمد لله! ... الرجال يتجادلون بشأن موضوع ما الآن، هل يتكلمون العربية؟ خواتم فضية في كل مكان، ومدرب يرتدي ملابس أديداس ينظر من خلف رجل عجوز. الرجل العجوز يرتدي بوبو بنيّاً ووشاحاً من قماش مشمّع (يمنع نفاذ الماء) على رأسه!

أعجبني كثيراً منظر هؤلاء المسلمين المختلفين تماماً عن أولئك الذين قابلتهم في إنكلترا. كنت ما أزال مشبعة بأفكار القومية السوداء، ولهذا كان أولئك المسلمون يروقون لهويتي الإفريقية وشعوري بالكبرياء؛ لأنني سوداء. كانوا فخورين لأنهم أفارقة، بمظهرهم، وعاداتهم وملابسهم، وهي ميزة نادرة تماماً في الكثير من بقاع جنوب القارة الإفريقية. هناك، تظهر تركة الاستعمار البريطاني بطريقة يرى فيها الكثير من الناس الوقار والهيبة بأن يكونوا بريطانيين. في تناقض صارخ، أعجبني ما عددته ثقة المسلمين في غرب إفريقية «الفرنسية».

بعد توقف قصير في داكار، طرت إلى كوناكري، ووجدت نفسي بأمان وعافية في منزل مدير مكتب البريد مع زوجته، سيدة، وابنيه الصغيرين. وكانت تلك بداية أربعة أسابيع لا يمكن نسيانها. في ذلك الوقت، وفي حرّ كوناكري القائظ، اعتدت ارتداء غطاء الرأس مع قفطان ـ بوبو. وجدتها فضفاضة ومريحة؛ وبرغم أنها جميلة جداً، إلا أنها كانت تخفي شكل جسدي وقد أعجبني ذلك. لم أكن أشعر بالحر، وأمرٌ دون أن يلاحظني أحد تقريباً بين السكان المحليين. كنت أكره ارتداء بعض الملابس الغربية التي أحضرتها معي، وأتلهف دائماً للعودة إلى الراحة والطمأنينة التي

توفرهمـا لي طيّـات القماش الفضـفاض. على أي حـال، لم يكن الجميع يشـعرون بذلك. لم تكن مضـيفتي تغطي نفسـها على الطريقة الإسلامية بتاتـاً، وكان هناك أوقات حاولت فيها مع نسـاء أخريـات إقناعي بالتخلي عن بوبو «العجائز» لصـالح الجينز الذي يمكن شـراؤه من السـوق. غني عن القول: إن الفكرة أخافتني وإنني رفضـت كل مرة. أولاً، لم أكن مهتمة بالعـودة إلى ارتـداء الجينز، وثانيـاً، لم أكن لأتجول «مرتديـة جينزاً من سـوق غير غيني». بالمحصلة، كان علي المحافظة على انطباع ذهني معين! ازدادت الرغبة في «حماية نفسي» مع البوبو نتيجة حادثة وقعت معي وتتعلق بواحـد من أغنى الرجال في غينيا في ذلـك الوقت. منذ أعلنت رغبتي بأن أصـبح مسلمة، كان هناك قضية واحدة تشـغل بال الجميع: من سأتزوج؟ لأكون صادقة، لم يكن الزواج في مقدمة اهتماماتي حتى ذلك الوقت، لكن هناك، وفجأة، أخذت الفكرة تشغل ساعات يقظتي.

كان لـدى الجميع شـقيق، عـم أو ابن عم قد يصـبح زوجـاً رائعاً لي، دفعنـي ذلك إلى الجنـون بالتأكيد! إحدى الخيـارات المحتملة كانت ذلك الرجـل الفاحشـ الثراء الـذي يتمتع بنفـوذ كبير في كوناكـري، ويبلغ من العمر ضـعف عمري تقريباً. فكرت عائلة مضـيفي أنه سيكون قريناً رائعاً لي وشـجّعته على المجيء إلى المنزل وسرد أحاديثه السخيفة أمامي. دعانا في إحدى الأمسـيات لزيارة مقر فريقه لكرة القدم، الذي كان يقع في أحد فنادق الخمس نجوم في المدينة. عندما شاهدت سيدة أنني سأرتدي بوبو، اختلقت مشكلة وأصرّت على قيامي بارتداء شيء يجعلني أبدو أصغر عمراً، أكثر أناقة وأقل حجماً. استسـلمت لها بكل غباء. قضيت بعدها واحدة من أكثر الأمسيات إزعاجاً في حياتي: تجاهلني الرجال الذين تحدثوا عن كرة

القدم، وكان واضحاً أنني محط إعجاب لكن دون أن أتدخل في الحديث. الغريب تماماً بالنسبة لي أنه غالباً ما يتوقع الرجال من النساء قبول هذا الدور. يجب أن يكنّ مع رجل يعتني بهن ويكيل لهن المديح والإطراء لكن لا أن يتحدث معهن أو يعبّر عن أي فكرة عقلانية بحضورهن. الغريب أيضاً كيف يستمع الرجل إلى تعليقات الإعجاب بـ «امرأته» من أصدقائه الذين يحسدونه ويشتهونها سراً. يجعله ذلك يشعر بأنه رجل، فحل؛ كما لو أن مظهرها الحسن يثبت جدارته وذوقه الرفيع.

لم أكن مرتاحة لذلك أبداً، برغم أنني مثل الكثير من الشابات الحسّاسات اللواتي يسعين إلى الحصول على استحسان الآخرين، غالباً ما كان ذلك جزءاً من السلوك في حياتي. في تلك الأمسية الحارة في كوناكري، شعرت بالإذلال وغضبت من نفسي؛ لأنني استسلمت ولم أتمسك بما أومن به. تركت الرجال فجأة على نحوٍ فظ وذهبت إلى الشاطئ، على حافة حديقة الفندق، حيث استطعت تذوق الرذاذ المالح من الأمواج التي تتكسر على الصخور. كنت على الأقل ما أزال أضع غطاء الرأس. كان ذلك غريباً، لكن برغم أن غطاء الرأس ليس شكلاً إسلامياً بحتاً، إلا أنه أصبح هاجسي في تلك الأيام. طالما كنت أضعه، كنت أشعر بأنني أستطيع الحفاظ على كرامتي ومبادئي. وعرفت أنني إذا خسرت ذلك، فسأكون قد فقدت أكثر من مجرد الغطاء على رأسي، سأكون قد فقدت الكفاح من أجل هويتي الجديدة. عقدت العزم في تلك الأمسية ألا أسمح لأحد بدفعي إلى مثل ذلك الوضع المثير للشبهات مجدداً. كانت أيام شغفي بإثارة اهتمام الرجال قد انتهت.

انتشرت الأنباء عن عنادي في نطاق عائلتي وأصدقائي، وتعاطفوا معي وأطلقوا عليّ لقب «الحاجة»، تلك التي تحج إلى مكة. كان سبب ذلك أنه

من الشـائع للناس في العالم الإسـلامي عيش حياة غير إسلامية أبداً حتى يبلغوا منتصـف العمر ويقوموا بأداء فريضـة الحج، وعلى أن مكافأة الحج هي غفران كل ذنوب المرء، يعود الكثيرون من مكة بذهنٍ صافٍ، ومستعدين لعيش حياة إسـلامية بعد التخلي عن كل رغبات الشـباب الجامحة. لهذا، ولأنني كنت أتحاشـى ارتداء الملابس الضـيقة أو تلك التي تكشف الجسد، والأصدقاء الحميمين، وكشف شعري، كسبت لنفسي ذلك اللقب.

كنت في غينيا محاطة مجدداً بأشـكال العبادة المختلفة، الصـلاة التي تقـام عنـد الفجر عندمـا لا يزال الضـباب يلـف الأرض، صـوت المؤذن، شعائر صلاة الجمعة في المسجد. خمس مرات في اليوم، كنت أتوضأ، أضع الوشـاح الذي يغطي رأسي، عنقي وصدري، أمد سـجادة الصلاة، أواجه القبلة، الكعبة في مكة، وأصـلّي، أصبحت الصلوات اليومية الخمس النغم الطبيعي في حياتي.

كان يعني لي الكثير أن تلك العبادات أدّاها النبي محمد ﷺ وأصحابه وكل المسـلمين في جميع أنحاء العالم منذ ذلك الوقت. لاحقاً، كانت هناك أوقات أخذت أفكر فيها بالأمة الإسـلامية، وأشعر بالفخر؛ لأنني جزء من ذلك المجتمع الرائع.

كل جمعة، كنت أذهب إلى أحد المسـاجد مع والدة مضـيفي، الحاجة، وهي امـرأة رائعة تمتلك حس فكاهة وشخصـية مذهلة. كنا نضـع قطعة كبـيرة من القماش فوق أغطية الرأس وعلى أعناقنـا وفوق أكتافنا، بتلك الطريقـة، كنا نجهّز أنفسـنا للصـلاة. وفي المرة الأولى التي صـلّيت فيها بالطريقـة التي صـلّى بها النبي محمد ﷺ قبل ما يزيد عن 1400 سـنة،

حاكيــت ببســاطة ما كان يفعله الذين حولي. عندمــا رفعوا أيديهم، رفعت يديّ: «الله أكبر». عندما انحنوا إلى الأمام من الخصــر في الركوع، فعلت الشــيء نفسه: «ســبحان ربي العظيم». عندما ســجدوا، وجوههم وأكفّهم على الأرض، سجدت معهم: «سبحان ربي الأعلى».

هل هناك وضع أكثر رمزية في علاقة الإنسان بربه من السجود؟ يحني الإنســان، الذي يســير متباهياً وفخوراً للغاية بنفسه، جسده بإرادته، حتى يضــع وجهه على الأرضــ تذللاً أمام خالقه. وجدت هذه الوضــعية رمزية للغاية. في تلك اللحظة، في أثناء السجود، شعرت بأنني أقرب ما يكون إلى الله، الذي يلهج لســاني باسمه بســهولة الآن. كنت أستطيع في ذلك الوقت التكلم معه بســهولة، أن أتضرع إليه، أفضــي إليه بمكنونات نفسي وأذرف الدموع بين يديه. لقد تعلمت حب الله في أثناء السجود.

في أول أيــام الجمعــة، عندمــا عدنا إلى منــزل الحاجــة، علّمني أحد الرجال كيف أتلو السورة الأولى في القرآن:

﴿بِسْــمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْــدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيــمِ * مَالِــكِ يَــوْمِ الدِّينِ * إِيَّــاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّــاكَ نَسْــتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّــرَاطَ الْمُسْــتَقِيمَ * صِــرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ *﴾ [الفاتحة: 1 - 7]».

استساغ لســاني الكلمات الغريبة، وواظبت عليها، وتعلمت تلك السورة واثنتين أخريين سماعياً. ابتاع لي مضيفي كتيباً من بائع على جانب الطريق يشــرح الحركات والقراءات المطلوبة في أثناء الصــلاة، ومنحوني سجادة صــلاة من المخمل الأخضــر؛ لأســتعملها في غرفتي. علّموني أيضــاً كيفية الوضوء، وهو طقس الطهارة الذي يقوم به المسلمون قبل تأدية الصلاة.

في الحمام المكسو بالسيراميك الأزرق، نويت الوضوء ثم غسلت يديّ ثلاث مرات، وسال الماء البارد من بين أصابعي وفوق معصميّ. وبيدي اليمنى، حملت الماء إلى وجهي وقمت بالمضمضة والاستنشاق في الوقت نفسه، وأفرغت فمي وأنفي باستعمال اليد اليسرى. فعلت ذلك ثلاث مرات. ثم تابعت فغسلت وجهي ثلاث مرات. تدفق الماء على يدي، وعندما رفعت ذراعي، تدفق الماء عليه فيما كنت أغسلهما، اليمنى أولاً ثم اليسرى، ثلاث مرات. مسحت شعري بالماء، إلى الخلف، ثم إلى الأمام، ثم مسحت أذنيّ بأصابعي وإبهامي. أخيراً، سكبت الماء من الإبريق على قدميّ فيما كنت أغسلهما ثلاث مرات. اكتشفت أنه لا يوجد أشياء كثيرة منعشة مثل الوضوء، وخاصةً خلال الأيام الرطبة في غينيا. كان يجعلني أشعر بالنظافة والانتعاش، ومستعدة للصلاة في الظل داخل غرفتي، وكانت الظلال من الأشجار خارج نافذتي ترسم أشكالاً على سجادة صلاتي الخضراء والأرضية الفخّارية.

مرت الأيام بسرعة في كوناكري، وكانت مليئة برحلات إلى السوق، الصلاة، شراء بوبو جديد والأحاديث ـ بالفرنسية ـ مع الجيران والأشخاص الآخرين الذين التقيناهم. تعلمت أيضاً بضع عبارات باللغة المحلية، سوسو، وغالباً ما كنت أستعملها مما كان يثير سرور مضيفي. ثم حل علينا شهر رمضان فجأة، واستطعت أن أشعر بالإثارة في الجو.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: 185).

بالنسبة لي لا يوجد شيء مثل الوجود في بلد إسلامي في أثناء رمضان. لا يوجد شيء في تجربة المسلمين في الغرب يضاهي ذلك سواء من حيث الطقوس أو الشعور بالتضامن، ولا شيء يشبهه أبداً. لغاية يومنا هذا، أتذكر حسن الصحبة التي انبثقت عن معرفة أن الجميع (حسناً، الجميع تقريباً!) كان ممتنعاً عن الطعام، والشراب والعلاقات الجنسية من الفجر حتى المغيب. ومثل معظم بقاع العالم الإسلامي، كنا نأكل جيداً بعد غياب الشمس: أرزاً معطّراً وسمكاً كثير البهارات، خبزاً حلواً طازجاً من أفضل فرن في البلدة، بيساباً حلواً لاذع الطعم، مصنوعاً من أوراق الحمّاض (حبق خُراساني) وماء الزهر، الكوسكوس الساخن والدجاج المشوي واختصاص سيدة، سلطة الذرة الحلوة. بعد أن نأكل كفايتنا، كنا نتوضأ ونسير فوق التراب الرطب آنذاك إلى المسجد على ناصية الطريق حيث ستقام صلاة العشاء. كانت النساء، اللواتي يرتدين البوبو بألوان متعددة ويلقين بأوشحتهن شبه الشفافة فوق أكتافهن، يملأن دائماً القسم العلوي من المسجد وقت الصلاة، خاصةً عندما يحين وقت صلاة التراويح. تلك هي الصلوات الطويلة التي تُقام في كل مسجد تقريباً خلال رمضان، والتي يُتلى فيها عادة القرآن كاملاً في أثناء تسعة وعشرين أو ثلاثين يوماً في الشهر.

هكذا، يوماً بعد آخر، أخذت أشعر بالارتياح بوصفي مسلمة بين هؤلاء القوم الذين كانوا غرباء عني قبل شهر مضى. عاملني أولئك الذين استضافوني كما لو أنني ابنتهم، وانتابني شعور قوي بالانتماء بينهم. كنت واحدة من العائلة، وحاضرة في زياراتها، رحلات التسوق وحفلات الزفاف، ولم يتركوني وحيدة على الإطلاق. وغني عن القول: إنني لم

أشـعر بـأي توتـر، بالتأكيد كان هناك بعض المناوشـات الشخصـية، وقد شـهدت أشياء كثيرة كنت أعرف أنها لا تمت للإسلام بصلة وحرام، حتى مع معرفتي المحدودة بالدين. لكني رأيت أيضـاً أن الإسـلام شـيء يعيشه الناس، وأنـه ليس مجرد فكرة مثالية. وكنت أعرف آنذاك أنني أسـتطيع عيشه أيضاً. (السؤال الوحيد حينها كان: بمن سأتزوج؟!). لكن ينبغي أن أذكر هنا أنه برغم الصلاة، والصيام وتغطية الرأس، إلا أنني لم أكن قد نطقت بالشهادة، لم أكن مسلمة بعد.

عدت من غرب إفريقية امرأة أخرى. لم يكن لدي شكوك بأن الإسلام يناسـبني. كنت قد بـدأت عملية الاستسـلام، أو الخضـوع. في يوم كئيب في لندن، بعد بضـعة أسـابيع من عودتي، سرت مع صـديقتي ساندرا إلى المسـجد الكبير في منتزه ريجنت. وهناك، بعد شهور من البحث والسؤال، قبلـت أخـيراً ما كان موجوداً في قلبي منذ وقت طويل: «أشـهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله».

في الحقيقـة، كنت آخر شـخص يُتَوقَـع منه أن يعتنق الإسـلام. جئت مـن خلفية غـير متدينة على الإطلاق؛ وكنت شـابة، وأعيشـ حياة مرحة وصـاخبة. كنت أتابع تعليمي، وأخطط للمسـتقبل وناشـطة سياسياً. كنت شـغوفة بما أؤمن به. ثم جاء الإسلام وقلب عالمي رأساً على عقب. جعلني أطـرح أسـئلة، وأطالب بالأجويـة وأتعلم قبـول المسـلّمات. لم يكن هناك سـبيل لابتعادي عن الإسلام وإيجاد السكينة في نفسي. بالنسبة لي، كانت الحقيقة بسيطة للغاية، ولهذا قبلت بها.

2
دروب أخواتـي

لكننـي اسـتثناء بالتأكيد. بالمحصلة، يعتقد الناس أن معظم النسـاء اللواتي «يعتنقن الإسـلام» يمكن التأثير عليهن بسـهولة، يخضـعن لعملية غسـيل دمـاغ، أو أنهن يائسـات ويحتجـن إلى شـيء يؤمنَّ به؛ ليعوضـن الحرمـان الذي يعانين منه؟ أو أنهن يفعلن ذلك من أجل رجل، للمحافظة عليـه على أمـل أن يحملـن أطفاله. الشـيء المؤكـد أن العالم ليس مليئاً بالنسـاء الجميـلات الذكيات، الناجحـات في أعمال اخترنها بأنفسـهن، ويعشـن حياة اجتماعية نشـيطة، واللواتي يتركن كل ذلك عن طيب خاطر لاعتناق الإسـلام، سـتكون مفاجأة للكثيرين عندما يكتشـفون أن النساء اللواتي يعتنقن الإسلام هذه الأيام لسن من طينة واحدة، قصصهن أكثر تنوعاً وإثارة للاهتمام من أي أنماط جاهزة.

لماذا نقول لهم؟

المسـلمون لا يتعبون أبداً من سماع قصـص عن قيام أشخاص من أماكن بعيـدة وثقافات مختلفة باعتناق الإسـلام. يكـون الأمر مثـيراً دائماً عندما يتذكر المرء أن أشخاصـاً من خلفيات مختلفة يتحدون في فهم مشـترك لمعنى الحياة. ولأننا أخوات في الإسلام، وجزء من حلقة ضيقة، فإن تلك القصص السـاحرة مألوفـة تماماً بالنسـبة لنا، إنهـا جزء من تاريخنا. بالنسـبة لغير المسـلمين، على أي حال، تبقى تلك القصـص لغزاً غامضـاً، برغم أن هؤلاء

نســاء يقطعن دروبنا كل يوم، يعشن في حارتنا ويذهب أطفالهن إلى المدارس نفســها التي يذهب إليها أولادنا. أشـعر أن الوقت قـد حان لأفتح تلك الحلقة الضيقة. أريد أن أعرض ما تشرفت بأن أكون جزءاً منه خلال السنوات الست الماضية؛ حتى يمكن للآخرين أن يشاطروني عجائب رحلة روحية توحد الكثير من الناس من أعمار، وألوان، وأماكن وخلفيات مختلفة للغاية.

الجارات

الشـيء الذي يربط النساء المذكورات في هذا الكتاب أنهن جميعاً نتاج هـذا المجتمـع. لقد ولدن فيـه، تلقين العلـوم بطرائقه، تشـرّبن معتقداته وكـن على مسـتوى توقعاته. كان هنـاك وقت، ليس ببعيـد، لم يكن ممكناً رؤية نسـاء مسـلمات يضـعن «الخمار» في شارع أكسـفورد أو طريق إدغار سـوى العربيات. على أي حال، نظرة واحـدة على الأخوات في هذا الكتاب سـتدل على أن الوجه «خلف الخمار» في لندن المعاصـرة لم يعد بالضرورة من الشـرق الأوسط. منذ أصـبحت مسلمة، التقيت نساء اعتنقن الإسلام من إنكلترا، وويلز وأسـكتلندا، إضـافة إلى أخوات سوداوات من إفريقية، والكاريبـي والأمريكيتين، أخوات من الشـرق الأقصـى، الصـين، ماليزيا وتايوان. التقيت حتى نساء اعتنقن الإسلام من بقاع بعيدة مثل نيوزلندا ـ نعم، كيوي حقيقية ـ وأستراليا. لم تعد النساء المسلمات ينتمين بالضرورة إلى ثقافة مختلفة، برغم أنه من السـهل تعميم تلك الفكرة والترويج لها: «حسناً، إنها لا تشبهنا، أليس كذلك؟».

الحقيقة أن هذه المرأة قد تكون جارتكم، الفتاة التي ترافقها ابنتكم إلى المدرسة، المرأة التي كان ابنكم يأمل بالزواج منها، ربما تكون قد ترعرعت

في منزل مستقل أو شقة ضمن مبنى سكني لها إطلالة خلابة. ربما تستطيع التكلم بلغة فصحى أو بلهجة أهل لندن المقفّاة. ربما تستطيع دفع «صعلوك أشعث» للخجل بلهجتها العامية أو تتكلم الفرنسية، والإسبانية والإيطالية ـ دون أثر للهجة معينة. ربما تستطيع طهي أفضل شرائح اللحم وتحضير أشهى الفطائر المحلاة التي سبق أن تذوقتموها ـ ولن تعرفوا أبداً أنها حلال! إنهن نساء السمك والبطاطا المقلية، والأرز والبازلاء، والسباغيتي وسلطة الملفوف والجزر. إنهن نساء الأرز المفلفل، البايلا (أرز مع قطع اللحم والسمك والخضار)، المقالي، العجين بالخضار والحساء الشهي، لسن «تلك النساء اللواتي يأكلن الكاري طيلة اليوم». ومع وجود الكثير من النساء اللواتي يعشن في الغرب ويعتنقن الإسلام، من كل شرائح المجتمع، لم تعد الأحكام المسبقة القديمة راسخة كما كانت من قبل.

مسلمون دون جذور

على أي حال، ليس الغربيون غير المسلمين وحدهم من «يكتشفون» الإسلام. برغم أن معظم المسلمين بالولادة يترعرعون مع شكل ما من الإسلام في حياتهم، إلا أنه من الشائع جداً في هذا العصر والأوان وجود فتيات وفتيان يحملون أسماء إسلامية ويكونون غربيين مثل بيتر وجين تماماً. لفظ الجلالة الله جديد عليهم، والمعتقدات والفروض الإسلامية غريبة تماماً. هناك آباء يتخذون قراراً واعياً بتربية أبنائهم بعيداً عن الإسلام لأسباب شتّى. يريد بعضهم من أبنائهم الاندماج في المجتمع الذي يعيشون فيه والمضي قدماً، ويريد آخرون منهم التركيز على التعليم أو العمل بدلاً من «تشتيت انتباههم» بالدين، ولا يريد آخرون «تحميل» أبنائهم عبئاً

ثقافياً يعيقهم، وربما كانوا يشككون سراً بقيمة الإسلام في حياتهم وحياة أبنائهم. لهذا هناك نساء من والدين مسلمين في هذا الكتاب يذهبن إلى المدارس نفسها التي تذهب إليها نظيراتهن غير المسلمات، اللواتي يتمتعن بآداب السلوك نفسها، ويحملن القيم نفسها ويتعرضن للتأثيرات الثقافية نفسها. إنهن أيضاً نتاج هذا المجتمع واعتناقهن الإسلام ليس أقل غرابة أو توقعاً من أي امرأة غربية أخرى.

ترعرعت سارة في منزل مجرّد من أي تأثيرات إسلامية مهما كانت.

قالت لي: «لم يكن والدي مسلماً ملتزماً على الإطلاق. كان الشيء الوحيد الذي يتقيد به ومستمد من الإسلام أنه لا يأكل لحم الخنزير، لكن ما عدا ذلك، لم أسمعه إطلاقاً يتكلم حول الله أو الصلاة أو الصيام في شهر رمضان أو أي شيء آخر. كان ذلك شيئاً غريباً تماماً بالنسبة لي. كان والدي مفتوناً فعلاً بالثقافة الأوروبية: مقارنة بالفوضى في باكستان، كان معجباً بتنظيم المجتمع الأوروبي الذي يوافق ذهنيته. كان يحب الفن، والموسيقى، واللغات ويستمتع بالسفر إلى مراكز «الثقافة السامية».

بالفعل، كان تفاعل سارة الوحيد مع الإسلام عبر أصدقاء في المدرسة، وبرغم أنها كانت تعرف هويتهم المشتركة، إلا أنه لم يكن لديها أدنى فكرة عما تستلزمه تلك الهوية.

«أتذكر أنه كانت لي صديقة باكستانية تبحث عن هدية لشقيقها، وأنها وجدت خاتماً ذُكر لفظ الجلالة الله عليه».

سألتها: «ماذا يعني ذلك؟».

قالت لي: «حسناً، إنه اسم الرب. هذا ما نؤمن به نحن المسلمين».

شعرت بأنني: «آه، صحيح ...».

«كنت منفصلة تماماً عن هويتي الإسلامية. لم يسبق لي أن شاهدت مسلماً يصلي في حياتي من قبل، بالنسبة لي، كانت الصلاة تعني وضع راحتي اليدين معاً أمامي!».

بدلاً من الذهاب إلى المدرسة (صفوف لتعليم الأطفال تلاوة القرآن والقراءة والكتابة بالعربية) في المساء، مثل معظم الأطفال الباكستانيين، كانت سارة تذهب إلى الكنيسة ومدرسة الأحد مع فتيات الكشّافة.

ترعرعت هاجر في فرنسا، وانفصلت عن جذورها تماماً. لم تنشأ ضمن جالية عربية كبيرة كما هي حال الكثير من المهاجرين من شمال إفريقية إلى فرنسا، أو في جيوب ينجذب إليها جزائريون آخرون. الحرقي بربري جزائري قاتل إلى جانب الفرنسيين خلال حرب التحرير الجزائرية، ووالد هاجر كان أحدهم.

قالت لي: «ينشأ أطفال الحرقي فرنسيين؛ لأنهم لا يستطيعون غير ذلك حقاً، كما لو أن ليس لديهم أي حق بالهوية الجزائرية. كان والدي يبعدنا دائماً عن أي تأثير عربي، عشنا في مناطق كان الناس فيها فرنسيين تماماً. في منزلنا، لم يكن هناك توتر على الإطلاق بين هوية جزائرية وأخرى فرنسية: لقد ترعرعنا فرنسيين حقاً. لم أحظَ أبداً بصديقة حميمة عربية أو مسلمة، مطلقاً. كانت صديقاتي على الدوام كارين، إيفلين، إيزابيل: فرنسية، فرنسية، فرنسية».

لم يكن هناك أي تأثيرات عربية حولنا، ناهيك عن الإسلام الثمين أيضاً. «لم يكن هناك إسلام في منزلنا على الإطلاق، أو دين، برغم وجود عادات بربرية كان والداي يتبعانها مثل عقد القران والختان».

برغم أن والديها كانا من بنغلاديش، إلا أن جميلة نشـأت في بيئة غير إسلامية تماماً أيضاً.

«ترعرعت في أسـرة آسـيوية كان ينبغي أن تكون مسلمة، لكنها لم تكن كذلك. لهذا كان اسمي جين واسم شقيقي غافين. بلى، جين وغافين!».

واجهت تلك النسـاء الإسلام بوصـفه شيئاً جديداً، شـيئاً غريباً، كما فعلـت نظيراتهن غير المسـلمات تماماً. لم يكن هناك شـيء في خلفياتهن يجعلهـن مسـلمات ملتزمـات. كان عليهن اكتشـاف الإسـلام بأنفسـهن واعتناقه من جديد.

الكنيسـة والمعبـد

علـى النقيض منـي، ترعرعت معظم الأخوات مع شـكل ما من المعتقد الديني. تراوحت تلك المعتقدات من النصرانية الملتزمة إلى المتحررة، من الطاوية إلى اليهودية، من السيخية إلى الهندوسية، التقيت أخوات من كل خلفية دينية. بضع أخوات اشتركن في خلفيتهن الدينية معي.

مثل معظم نساء الكاريبي من جيلها، نشأت أم طارق نصرانية ملتزمة. تقول: «كان والدانا يخافان الرب دائماً، وكانا يعلّماننا دائماً أن نشكر الرب ونتعرف إلى مولانا؛ لهذا كان الخوف من الرب موجوداً دائماً في قلوبنا في أثناء نشأتنا».

نشـأت أم محمد أيضـاً مع تأثـيرات دينية قوية: «ربتنا أمي نصـارى: كنا نذهـب إلى الكنيسـة ومدرسـة الأحد. كنا نتعلـم دائماً أن نخـاف من الرب، ونتذكر أن الرب يستطيع رؤيتنا. كانت تربية تقليدية في جزر الهند الغربية».

على أي حال، نشـأت عالية في عائلة غـير متدينة من جزر الهند الغربية، وهي حقيقة قد تكون أسهمت في موقف جدّها المتشدد والقاسي تجاه الدين.

«لم نكن متدينين، ربما لأن والد أمي كان سبتي (الانقطاع عن العمل يوم السـبت والإيمان بأن المسيح سيعود إلى الأرض)، وكان تابعاً متزمتاً لدرجة أن الأمر انتهى به بإبعاد كل أبنائه عن أي نوع من الدين مهما كان».

آمنـت مي لنغ بالرب منذ كانت صـغيرة جـداً: «انغرس الإيمان بوجود الرب في داخلي عندما كنت صـغيرة، منذ وعيت على هذه الدنيا». أمضت السنوات الأولى من عمرها مع جدّتها لأبيها، التي كانت تؤمن بقوة بمبادئ الطاويـة، وكانت تزور المعبد بانتظام وتصـلّي؛ لتجتمع مجدداً مع والديها اللذين كانا قد استقرا في المملكة المتحدة.

كان والداي طاويين لكنهما لم يكونا ملتزمين حقاً ـ كانت جدّتي منغمسة بذلك حقاً وقد حذونا حذوها ـ كانت قوية جداً. كنا نشارك في كل الطقوس فقط لإسعادها. على أي حال، لم أحب أبداً التماثيل في المعبد. بالنسبة لي، كانت زخرفة وليست رباً. كنت أشعر أن الرب في داخلي، ولم يكن بالتأكيد تلك التماثيل الذهبية».

على أي حال، حالما أصـبحت مي في بريطانيا وجدت نفسها مشدودة إلى تعاليم النصـرانية، ويعود سـبب ذلـك جزئيـاً إلى تعرّفها عليها في مدرسـة الكنيسة الإنغليكانية التي انتسـبت إليها. لكن فيما كانت تدرس اللاهوت في مسـتوى متقدم، اكتشـفت أن إيمانها اهتز بشدة مما تعلّمته عن الإنجيل ومصادره.

«صُـدمت وذُعرت عندما اكتشـفت أن الإنجيل، العهـد الجديد، مبتدع وأن النصرانية مثل مسـرحية هزلية. كان العهد الجديد مؤلفاً من فصول

وأجزاء، كما أن اللغة المستعملة لكتابة النصوص سيئة ... كان الأمر مثل إلقاء كتاب على الأرض وتبعثر كل صفحاته ثم إعادة لصقها معاً دون معرفة أرقام الصفحات. لم يكن يبدو منطقياً فحسب. كانت العديد من الفتيات في المدرسة بنات الكهنة، وكن يقفن خلال المناقشة الصفّية ويقلن: «برغم أن الإنجيل مبتدع، ما زلنا نتشبث بإيماننا، وما زلنا راسخات على هذا الدين». كان ذلك هو اليوم الذي نزعت فيه صليبي وقلت: «انسي هذا».

لكن برغم أن مي اتخذت قراراً واعياً بالتخلي عن المعتقدات التي نشأت عليها لاعتناق الإسلام، لم تفعل غالبية الأخوات ذلك: بقي معروفاً عنهن أنهن نصرانيات، هندوسيات أو سيخيات، الأديان التي نشأن عليها.

أطفال محرومون

فيما يرى الكثير من الناس أن «التحول إلى الإسلام» هو الملاذ الأخير، ربما يكون هناك شعور بوجود عوامل معينة، مثل طفولة غير سعيدة، وراء ذلك. أعرف أن ذلك، في حالتي، كان أبعد ما يكون عن الحقيقة، فقد استمتعت بطفولة ومراهقة سعيدة ومستقرة في زيمبابوي. لكن ربما يكون لأخوات أخريات قصص مختلفة يسردنها؟ لهذا السبب، طلبت من الأخوات أن يخبرني عن خلفياتهن وطفولتهن.

لم يكن مفاجئاً أن أكتشف أن بعضهن جئن من عائلات مستقرة من الطبقة الوسطى، مؤلفة من والدين وتتمتع بتقاليد قوية وآمال كبيرة. أخبرتني كلير، مثلاً، حول طفولتها الهادئة في مزرعة والديها في أيرلندا: «نشأت كاثوليكية ملتزمة في أيرلندا. كانت نشأة مثالية، نشأة كاثوليكية أيرلندية بيضاء، في كنف العائلة، مع الكثير من أبناء العم، والعمات

والعائلــة الكبيرة. نشــأت دون هموم ... أركض في الجــوار، أجمع الأغنام وأمشي في الحقول ...».

قضــت مي لنغ حياتها المبكرة أيضــاً في بيئة ريفيــة، وإن كانت مختلفة تماماً عن المروج الأيرلندية.

«نشــأت مع جدتي لأمي في مزرعة بتايــوان، في قرية ريفية. بين الفينة والأخرى، كنت أذهب إلى الجبال؛ لأكون مع جديّ لأمي حيث كانت الحياة بسيطة حقاً: كان المرحاض في الخارج، في ساحة الدار ...».

عندما بلغت الرابعة والنصف من عمرها تقريباً، أرسل والداها يطلبان منها المجيء والعيش معهما في إنكلترا. لكن الحياة هناك بصــفتها البنت البكر لوالدين صينيين تقليدين يعملان بجد كان لها تحدياتها.

«في البداية، كان التأقلم مع الحياة في إنكلترا صعباً قليلاً بالنسبة لي، لغة جديــدة، ثقافة جديدة ولم يكن والداي يتحدثــان بعض اللهجات التي كنت أعرفها. كان هناك روتين صارم مع أنني نشأت دون شيء شبيه، كان علــي تناول الطعام والذهاب إلى الســرير عندما يطلبــان مني ذلك، فيما كانــت مدللة كثيراً في تايوان. في إنكلترا أيضــاً، كنــت دائماً مع أمي وأبي؛ بينمــا في تايــوان كنت مع جدتي وجدّي، هذا العم، تلــك العمة وأبناء العم أولئك، «كان «الأم والأب» روتيناً لست معتادة عليه».

بعضهن، مثل سارة، نشأن في منــازل يؤدي فيها كلا الوالدين أدواراً تقليدية.

«عندمــا تزوج والداي، لم يكن العمل مشــكلة لوالدتي. كانا يســتمتعان كثيراً، وفعلا كل الأشــياء التــي يقوم بها ثنائي أوروبي شــاب. لكن عندما

أنجبت والدتي الأطفال، قال والدي لها: «حسناً، انتهى الأمر، ستبقين في المنزل مع الأطفال وتقومين بالطهي والتنظيف. مكانك في المنزل». ولم تكن والدتي تعرف ما ينبغي أن تقوم به. فجأة، انقلب إلى هذا الرجل الباكستاني التقليدي برغم أنها لم تكن تتوقع منه ذلك. لكن لم يكن هناك أي شك إطلاقاً بأنه أحبني وشقيقي. كان حنوناً جداً وأحبنا كثيراً. خصص الكثير من الوقت لأبنائه، حتى بعد أن انفصلا».

نشأت أخريات، مثل عالية، في كنف أمهاتهن فقط: «كلا والديّ نصراني لكني نشأت في عائلة والد واحد، أمي فقط، شقيقي وأنا. ليس لدي أي ذكريات سيئة عن طفولتي. لم تكن أمي شخصاً يضربنا أو يرفع صوته كثيراً. لا أتذكر أياً من ذلك خلال طفولتي».

بعد الإصغاء إلى أخوات يصفن تجارب طفولتهن، أدركت أن خلفياتهن لا تدخل ضمن أي نمط معين. لا يمكن القول: إن كل هؤلاء النساء جئن من منازل محطمة، أو كن نتاج غياب الآباء، أو فساد الأمهات أو الافتقار إلى النظام أو التحفيز. مثل النساء أنفسهن، كانت طفولاتهن متنوعة وتشمل كل أنواع التجارب. بالتأكيد، حطمت تجارب تلك الشابات الأسطورة القائلة: إن الإسلام محاولة الفرصة الأخيرة للهروب من خلفيات بائسة! لن يكون عادلاً أيضاً القول: إن كل من اعتنقن الإسلام كن أساساً يائسات يفتقرن للمؤهلات والطموح. في الحقيقة، كان التعليم بالنسبة للكثير من أهل الأخوات أمراً ذا أهمية قصوى. كما قالت لي جميلة: «كان التعليم مركز اهتمام حياة والديّ، لقد كان المنطلق والغاية. كان حصولنا على العلم هدفهما الأساسي وكل ما سوى ذلك ثانوي. أعتقد أن السبب في موقف والديّ أنهما جاءا إلى هنا من وراء البحار وأدركا أنه في سبيل

الوصـــول إلى أي شـــيء في هــذا البلد، ينبغي أن يكون المــرء محترفاً. لهذا كان التعليم كل شيء».

تم إرسال مي أيضاً إلى مدرسة خاصة مع توقعات بأن تبلي بلاءً حسناً، وإن كانــت لم تحصــل علــى دعم كبير مــن والديها. أخبرتنــي عن موقف والديها من دراستها ومسؤولياتهما.

«أرادني والداي أن أكون مثالية، أرتدي ســترة ليس عليها بقع، جوارب نظيفــة وحذاء لامعاً ... لكنهما كانا فعلاً مشــغولين دائمــاً بالعمل، وإدارة المطعــم. كانــا متحفزين للغايــة وأرادا أن ينجحا. ذلك جــزء من الثقافة الصــينية: عندما تموت، ينبغي أن تترك شــيئاً لأبنائك، لعائلتك، وإذا لم تفعل، تكون قد فشــلت عندها. حتى إذا كنت تحب أبناءك كثيراً، إذا كان عليك العمل اثنين وعشرين ساعة في اليوم وألا تراهم، سيكون ذلك الثمن الذي ستدفعه».

عاليــة، من جانــب آخر، لم تنجح في المدرســة حيث وجدت نفســها في مستوى التوقعات السلبية التي حملها الآخرون عنها وعن «نوعها».

قالت لي: «كنت إحدى «الفتيات السيئات» في المدرسة. التحقت بمدرسة أساســية لم يكن فيها الكثير من الفتيات الســود؛ وكانت الغالبية بيضــاء، وكان هنــاك دائماً ذلك التوقع بأنكِ إذا كنت ســوداء، فأنتِ ســيئة. بدأت علــى نحو جيد، وهو ما أرســلتني والدتي إلى هناك لأجلــه في المقام الأول ـ لأحقق شــيئاً لنفســي، وبعد اتهامي باســتمرار أنني أقوم بأشياء لم أكن أفعلها، بدأت أفعلها. وهذا ما آلت إليه الأمور ـ اكتســبت لنفســي ســمعة. وقــد كنا ســيئات فعلاً ـــ كنا نهرب من المدرســة، ندخن، نزعــج الأطفال

الآخرين وكبار السن ونرسم على الجدران في كل مكان. تركت المدرسة في آخر يوم من الفصل الدراسي، ولم أعد إليها أبداً».

على أي حال، لم تنتبه إلى فداحة أعمالها سوى عندما حان وقت الامتحان فقط. لكنها عقدت العزم على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تعليمها عازمة على تحقيق شيء لذاتها.

«أردت الذهاب إلى الجامعة؛ لأنني شعرت بأنني قد أضعت الكثير من الوقت. حتى النهاية، كنت أدرك أن الوقت قد فات على الخضوع لأي امتحانات أو شيء من هذا القبيل. لكني أحببت الطهي عندما كنت في المدرسة؛ وبرغم أن علاماتي كانت سيئة في كل مادة أخرى، إلا أنني كنت أحصل دائماً على درجات جيدة في الاقتصاد المنزلي. كان لدي طموح بأن أصبح طاهية منذ عمر مبكر جداً؛ لهذا التحقت بكلية لدراسة ذلك».

برغم أن أم محمد بدأت تحب المدرسة وتجربة التعليم ككل، إلا أن المشكلات في المنزل بدأت تؤثر على موقفها من عملها.

«كنت الأولى على صفي دائماً، وأبلي بلاء حسناً في كل موادي، وفجأة، لم أعد أستطيع إنجاز فروضي. لم أكن أحب أن يُملي علي المعلمون ما ينبغي القيام به أو الامتناع عنه، وبدأت ألهو في الصف، وأهرب من المدرسة. كنت أذهب عادةً مع صديقة لي ونسجل اسمينا ثم نغادر دون أن نحضر أي دروس على الإطلاق. لم يكن ذلك يثير اهتمامي بسبب انشغال ذهني بالكثير من الأمور، لم أكن أستوعب ما يجري. في النهاية، انتهى بي الأمر بالخضوع لامتحان مستوى في إحدى المواد دون أن أستطيع اجتياز امتحانات المواد الأخرى، ولم أعد إلى تحقيق نتائجي السابقة أبداً».

التحقت مي بالجامعة؛ لتجهّز نفسها لإدارة عمل العائلة.

«بعد المدرســة، ذهبت للدراسة في جامعة نوتنغهام. تلقيت نصيحة من والديّ لدراسة علم يساعدني عندما يحين الوقت لأتولى إدارة العمل، لهذا اخترت إدارة الأعمال».

غادرت كلير أيرلندا لدراســة القانون في بريســتول؛ وقرّرت سارة، بعد حصــولها على إجازة في الجغرافيا، أخذ اســتراحة والسفر. عند عودتها، حصلت على درجة الماجستير في دراسات التنمية.

بعيــداً عــن النمط الجاهز الشــائع عن افتقــار أولئــك اللواتي يعتنقن الإســلام للثقافــة والكفاءة، هناك أخــوات نجحن في بيئــة مدارس عامة وأخريــات فشــلن، وتابعــت بعضــهن دراســتهن للحصــول علــى درجات ماجستير فيما غادرت أخريات الجامعة لتأسيس أعمال ناجحة. لا مجال، في هذا السياق، لتصــنيفهن في نمط نموذجي، هؤلاء لسن نساء جاهلات ساذجات لا يستطعن اتخاذ قرارات مهمة.

فتيات عاملات

لم تحصــل الكثير من الأخــوات على تعليم عالٍ وحســب، بل عمل عدد جيد منهن بجد لتأسيس مهنٍ لأنفسهن أيضاً.

بعد التســرّب من الجامعة في فرنســا، جاءت هاجر إلى لندن وأمضت ست ســنوات في بناء مهنة ناجحة في صــناعة الموسيقى، وعملت في مجال التسويق لشركة تسجيلات.

«بدأت طريقي في شركات تسجيل وعلاقات عامة مستقلة ... عشت من أجل الموســيقى وفيها ومعها. أظن أنها كانت ديانتي. اشتركت مع شريكي،

مهندس صوت، في هذا الشغف ووجدت نفسي أدير التسجيلات في النوادي ومحطة إذاعية اجتماعية كنت أقدّم عبرها برنامجاً صباحياً في عطلة نهاية الأسبوع».

بالعودة إلى قصة عالية مجدداً، الواضح أنه برغم بدايتها المتواضعة، إلا أنها سرعان ما ميّزت نفسها طاهية كفأة ومتحمسة، وحصلت على عمل في فندق فخم فيما كانت لا تزال تدرس. في ذلك الوقت، كان طموحها أن تصبح رئيسة طهاة، وأن تدير في النهاية مطعمها الخاص. بعد الابتعاد قليلاً لإنجاب طفل واستعادة عافيتها من الإجهاد الذي نال منها، عادت إلى المجال الذي اختارته واستمرت بالتفوق فيه.

«عدت للعمل في الفندق، ووضعت طفلي في حضانة، وفقدت الكثير من الوزن واستمتعت بارتداء أفضل الملابس، وضعت قطار حياتي على السكة من جديد. في ذلك الوقت، كنت أبلي بلاء حسناً في عملي وشعرت بأنني أملك كل شيء: أنجبت طفلاً كان لديه كل ما يحتاجه، لم تكن الملابس مشكلة، وكنت أذهب إلى حفلات شراب في عطلات نهاية الأسبوع، وإذا أردت السفر، كنت أستطيع ذلك». كانت تعيش الحياة التي حلمت بها، أو هكذا كانت تعتقد.

كانت مي تعمل بجد أيضاً، وتوزع وقتها بين وظيفتها ومطعم والديها، وتضغط حياتها الاجتماعية ما بين هذا وذاك، وصفت وقتها لي: «كنت آتي إلى المنزل بعد عملي من التاسعة حتى الخامسة نحو الساعة السادسة، السادسة والنصف، أغير ملابسي، أتناول شيئاً بسرعة وأعمل في المطعم حتى الحادية عشرة والنصف ليلاً، أخلد إلى النوم، أستيقظ مجدداً

وأذهب إلى العمل، كانت تلك الطريقة التي أحصل بها على نقودي وأجعل والديّ سعيدين أيضاً. إذا أردت حياة اجتماعية، كنت أخرج للسهر بعد الانتهاء من العمل. كنت أعيش في وسط لندن وأقضي وقتاً رائعاً، تعرفت إلى الكثير من الأصدقاء وجنيت النقود ...».

أوقات طيبة وفتيات الحفلات

إضافة إلى العمل والدراسة، كانت تلك النسوة يتمتعن بحياة اجتماعية نشيطة، نشيطة للغاية لدى بعض منهن!

أخبرتني أم محمد عن بعض مآثرها: «عندما بلغت أنا وشقيقاتي سن المراهقة، لم يكن هناك شيء يستطيع إيقافنا. أحببنا الموسيقى، الأزياء، الجمال، الإثارة، الأدب، وكل تلك الأشياء. كانت تلك حقبة الثمانينيات وكل ما يشغل بالنا هو الطماقات (غطاء للساق من الجلد)، التنانير القصيرة، السراويل الفضفاضة والمجوهرات الاصطناعية. كنا نرتاد باستمرار حفلات الشباب وقد استمعنا كثيراً».

عندما غادرت أيرلندا للالتحاق بالجامعة في بريستول، وجدت كلير نفسها تكافح لإيجاد آخرين يوافقون على أساليبها الجامحة.

«كنت أتناول الشراب كل ليلة، وأتعاطى المنوعات في عطلة نهاية كل أسبوع، لكني لم أستطع حقاً إيجاد أحد يجاريني في ذلك. كنت أقول آنذاك: «يا إلهي، من سيأتي إلى الحانة معي في الثانية بعد الظهر؟ لن يفعل ذلك أحد». كنت أريد خوض تلك التجربة الجنونية، لكني لم أقتنع بأنني أمرّ بها بنسبة مئة بالمئة. عندما كنت أعود إلى بلفاست لقضاء

عطلاتي والوجود مع أصــدقائي القدامى، كنــت أنغمس في ذلك النوع من الحياة تماماً».

كانــت هاجر وأصــدقاؤها أعضــاء منتظمين في نوادي لنــدن، يعملون في هندسة الصــوت، يرافقون نجوم الغناء والمشــاهير الآخرين، ينظمون الحفلات والمناسبات الأخرى. كانت تستمتع أيضاً بارتياد المطاعم الفخمة واقتناء ملابس المصممين.

كان لدى أخريات، مثل ســارة، هواجس أخرى مثل مشاهدة الأفلام في المنزل وزيارة المعارض الفنية. كانت سارة شغوفة بالسفر أيضاً، وحالما توافر لديها الوقت والمال للقيام بذلك، زارت عدّة بلدان أوروبية والأمريكيتين..

قالت لي: «كنت أسافر، أشاهد أشياء جديدة وأتعلم لغات جديدة، أحاول الاستفادة من تجاربي إلى أقصى حد».

برغــم أن جميلة كانت من أبوين مســلمين، إلا أنهــا كانت تتمتع بحياة اجتماعية لا تحدّها قيود تقليدية.

«عشــت حياة غربية الطراز تماماً، مــن جميع النواحي. لم يكن ارتداء الملابس الغربية مشــكلة بالنســبة لي، وكنت أســتطيع ارتــداء ما أحب. لم يكن هناك قيود مفروضــة عليّ وشقيقي. برغم قولي ذلك، إلا أننا وضعنا حــدوداً بأنفســنا، ولم نكن متحررين تماماً، أعنــي أننا لم نكن نتعاطى أي ممنوعات أو شيئاً من هذا القبيل. كانت نشأتنا أساساً متحررة جداً».

المساواة والتمرد

كثيرات ممن اعتنقن الإســلام باحثات، باحثات عــن المغزى، باحثات عــن الحقيقــة. نتيجة لذلــك، ليس غريبــاً أن نجدهن ينجذبــن إلى عدّة

إيديولوجيات مختلفة في طريقهن لاعتناق الإسلام، كما حدث في انجذابي للقومية السوداء.

كانت رحلة سارة نحو الإسلام مليئة بالتحولات والتوقفات، كما قالت لي: «كنت في ترحال مستمر، أحاول إيجاد نوع من الحقيقة، لم أتوقف أبداً عن المحاولة. كنت مقتنعة بضرورة وجود طريقة صحيحة للعيش، لكني لم أستطع معرفتها وحسب. بدأت في تلك المرحلة الاستكشاف وأصبحت شديدة الاهتمام بالسياسة. كنت مهتمة على وجه الخصوص بقضايا التنمية فيما يدعى «العالم الثالث» وقادني ذلك إلى الاهتمام بالاشتراكية. أيضاً، منذ كنت في السابعة عشرة تقريباً، أصبحت ناشطة في مجال المساواة بين الرجل والمرأة. كانت إحدى أسباب ذلك هي أنني أدركت، عندما فقدت والدي، أنني خسرت حب الرجل غير المشروط بعد أن كان قد كرّس حياته لي. أطلق ذلك الكثير من الأشياء في ذهني وبدأت أقرأ حول نظريات مختلفة عن المساواة. قرأت بلهفة كل الكتب، واكتشفت شير هايت، نعومي ولف، جيرمين كرير والأعمال الرائعة لسيمون دو بوفوار».

وجدت كلير نموذجها الخاص في التعبير عن نفسها في حركة شباب سرية تدعو للمساواة بين الجنسين، «رايوت غرلز» Riot Grrrls، وكانت دائماً «ثائرة ضد النموذج الآلي من الأشخاص»!

شرحت سبب إعجابها بتلك الحركة قائلة: «شدّتني غرلز؛ لأنني كنت أحب الموسيقى حقاً، وكنت أعزف على الغيتار الكبير مع صديقي الذي يعزف على غيتار صغير. وجدت بعض تسجيلات «رايوت غرلز» في محل لأحد الأصدقاء، وقد أعجبت بها في الحال. في ذلك الوقت أيضاً، كنت

مهتمة بالشعر ولهذا تفاعلت مع قصائدهم الغنائية كذلك. وكان هناك نوع من عدم المبالاة أيضاً، مثل قولهم: «لسنا بارعين في الغناء، لسنا بارعين في العزف على أي من تلك الآلات، ونقوم بذلك لأنه من يهتم؟». إنه ذلك النوع من التمرد الذي كنت أتكلم عنه».

ماذا الآن؟

لكن برغم كل التعليم، والمال، والأصدقاء والمرح، كان هناك شيء ما يزال مفقوداً في حياة هؤلاء النسوة. كانت بعضهن يدركن ذلك، فيما حاولت أخريات تجاهل الأمر، لكن دون أدنى شك، كان هناك خواء في مكان ما لا يمكن لكل الأوقات الطيبة في العالم أن تملأه.

كانت عالية تدرك في الواقع أن لا معنى لطريقة عيشها: «في السنة التي سبقت اعتناقي الإسلام، كانت معنوياتي منخفضة فعلاً. كان يبدو لي أنني أملك كل شيء، لكن كان هناك شيء ما يزال مفقوداً. كنت أفكر أنه لا بد من وجود شيء آخر في الحياة عدا ذلك. كان الرجال الذين يقودون سيارات البورش يعرضون اصطحابي هنا وهناك، لكن كل ذلك لم يكن يشدّني. كنت أشعر بأنني مثل الرجل الآلي في تلك المرحلة: تذهبين إلى العمل، تحصلين على تلك النقود، تنفقينها، تعودين إلى المنزل ـ لم يكن يبدو أن تلك الحياة تتجه إلى أي مكان. لهذا كنت أبحث عن شيء ما مدة طويلة من الوقت ـ أبحث عن أجوبة لأسئلة مثل: لماذا نحن موجودون؟».

أخبرتني أم محمد عن عودتها إلى المنزل بعد الحفلات والجلوس بجانب النافذة، تنظر من خلالها إلى السماء في الليل، تتساءل عما إذا كان هناك شيء آخر في الحياة غير الذي تعيشه، وعن الهدف الأسمى الذي تفتقر إليه حياتها.

حتى أسلوب حياة كلير الماجن بدأ يفقد سحره بعد مضي بعض الوقت. «خرجنا للاحتفال في إحدى الليالي وكان الجميع يتعاطى المنوعات. لكن كل شيء كان يبدو مبتذلاً حينها. لم يكن يبدو مناسباً. عدت إلى المنزل ليلاً وشعرت بخواء كامل: لم يعد الأمر «يناسبني» بعد ذلك. كان كل شيء قد فقد بريقه وسحره. في ضوء النهار الخافت، بدا كل شيء مروعاً بالنسبة لي».

لدى أم طارق قصة مختلفة تسردها. بعد أن وصلت إلى الخمسينيات من العمر، وبعد كل أعباء تربية العائلة والعمل، بدأت التفكير مجدداً بالإيمان الديني الذي ترعرعت عليه.

«فكّرت: «ماذا إن مت؟». تكبرين وأنتِ تسمعين عن نار جهنم وتعرفين أن ذلك ليس مكاناً لطيفاً ينتهي المرء به. وتعرفين بكل تأكيد أنك ستموتين وتتخيلين ما سيحدث لك بعد الموت. بدأت التفكير بشكل جدّي في عبادة الرب». قادها ذلك في رحلة استكشاف، وحاولت إيجاد الكنيسة الحقيقية، تلك التي تعبد الرب حقاً.

في كل مرة، كانت هناك لحظة إشراق، لحظة من التفكير الصافي الذي يقود إلى طرح أسئلة، والتي تؤدي بآلاف الطرق المختلفة ـ من الاشتياق الروحي، إلى التجارب التي تغير الحياة، إلى البحث عن الحقيقة ـ إلى أجوبة ... أجوبة الإسلام.

التعرف على الإسلام

لم يكن تعرّف هاجر على الإسلام مخططاً أو متوقعاً. فيما كانت تعمل مهندسة للصوت في نادي للجاز، التقت شخصاً اعتنق الإسلام حديثاً

وأصبحت صديقة له. في مناسبات عديدة، عبّرت عن مخاوفها بشأن مدرسة ابنها الذي كان يبلغ من العمر ثلاث سنوات. كانت تريده أن يكمل دراسته بين أطفال ذوي تربية حسنة، لكن في الوقت نفسه، لم تكن تريد إرساله إلى مدرسة خاصة وأن «ينتهي الأمر مع طفل صغير مزعج في منزلي ليس لديه شيء مشترك مع والديه». اقترح صديقها أن تحاول إلحاقه بمدرسة إسلامية.

«فكّرت في البداية: «محال»! لن أجعله يتعرض لعملية غسل دماغ على يد هؤلاء القوم المتدينين!».

«لكن، بعد عدد من الأحاديث اللاحقة، قررت القيام بزيارة إلى المدرسة الإسلامية المحلية. استقبلتني إحدى الأخوات، المغطاة بالأسود بالكامل. وقفت هناك، مترددة حيال الاستمرار في الأمر، لكنني شعرت بالفضول بشأن ذلك الصوت الذي رحّب بي من خلف الخمار. دُعيت للدخول وأرضت مديرة المدرسة، التي كنت أستطيع رؤية وجهها آنذاك، فضولي ثم غادرت وأنا أشعر بالراحة بعد أن علمت أنه لا يوجد أماكن شاغرة في الحضانة».

على أي حال، تلقت هاجر بعد أسبوع اتصالاً هاتفياً من المدرسة يخبرها بتوافر مكان شاغر، ويدعوها وابنها لإجراء مقابلة. بعد أن أقنعت نفسها أن ذلك سيكون مؤقتاً، سجلت ابنها وبدأ فارس الصغير الذهاب إلى حضانة إسلامية.

«لا أفهم حقاً ما جعلني أضعه في تلك المدرسة الإسلامية في النهاية. أفترض أنني اعتقدت أنه على الأقل لن يكون بصحبة أولئك الأطفال

الفظين الذين يشـتمون ويصـابون بنوبات غضـب، وأنه سـيكون في عهدة أولئـك الناس المتدينين الذين يبدون لطيفـين. لكني لم أكن أريده أن يعود إلى المنزل شخصـاً متديناً، أردته فقط أن يتعلم آداب السـلوك، وأن يكون فتى لطيفاً، وهذا ما كان».

بالفعل، بدأ فارس يحب مدرسته الجديدة ويعود إلى المنزل مع كل أنواع الحكايات المثيرة للاهتمام. لكنه كان يعود إلى المنزل أيضاً بقواعد وآداب سلوك إسلامية، وهو شيء لم تكن هاجر على استعداد لقبوله.

«كلما كان يخبرني عن شـيء لا يجوز إسـلامياً، كنت أقول له: «فارس، هـؤلاء القوم لن يملوا علينا طريقة حياتنا. إنهـا الطريقة التي نعيش بها، وأنـت تذهب للدراسـة هنـا، هذا كل مـا في الأمر، نقطة انتهـى». لكن في أحد الأيام، سـمعته يتلو القرآن وبدا جميلاً حقاً. وعاد إلى المنزل يوماً ما وأخـبرني عن قصـة إبراهيم، عندما تم إلقاؤه في النـار وجعلها الله برداً وسلاماً عليه. جلب معه إلى المنزل ذلك العمل الفني الذي عمل عليه لشرح القصـة وقـد كان جميلاً حقـاً. ومن الطريقـة التي أخبرني بها القصـة، أسـتطيع القول: إنها قـد أثّرت به فعلاً ـ وأثّرت بـي». قاد ذلك هاجر إلى بذل جهود لمعرفة المزيد عما يتعلمه ابنها في المدرسة.

بدأت أيضـاً قضاء وقت مع مديرة فارس وأطفالها، الذين كانوا رفاقه في اللعب. سـرعان ما أخذت تحضر خطبة الجمعة في المسجد، وتتأكد من عدم وجود مواعيد عمل في ذلك الوقت.

«كانت الخطبة أيضـاً ملهمـة لي وجعلتها حدثاً أسـبوعياً. كنت أذهب مرتديـة ذلـك المعطف المصـنوع من الكتان وأضـع وشـاحاً مـن الحرير الشـفاف يتناسب معه، وعندما كنت أعود إلى العمل، ممتلئة روحياً، كنت

أنزوي في مكان ما وأخلع تلك الملابس دون أن يراني أحد. كانت تلك تجربة صعبة كل مرة؛ لأنني كنت بدأت أستمتع بالراحة التي توفرها تلك الثياب. كنت أشعر كما لو أن لدي شخصيتين، هويتين وأنني أعيش حياتين. قررت مراقبة أسلوبي العيش واتخاذ قرار حول أيهما أكثر نفعاً وإرضاءً للذات. أخيراً، بعد مراجعة محاسن ومساوئ كل منهما، قررت أن أسلوب حياتي الجديد ـ دون شك ـ أفضل بكثير من الحياة التي اختبرتها حتى ذلك الوقت. كنت جاهزة للخروج من الشرنقة».

تعرفت أم طارق على الإسلام خلال بحثها عن الكنيسة التي تعبد الرب حقاً. بعد أن قررت أن تصبح أكثر تديناً، أخذت تطرح استفسارات عن كنائس مختلفة.

«تلقيت توصية باعتناق مبادئ كنيسة العنصرة (ذكرى نزول الروح القدس على الحواريين). ذهبت إلى هناك مدة من الزمن، وكانت الأغاني التي يصدحون بها ساحرة، وقلت: «نعم، هذه هي». لكني سرعان ما أدركت أن «لا»، هؤلاء الناس لا يعبدون الرب. كيف كان المسيح يصلي؟ لمن كان المسيح يصلي؟ هؤلاء الناس يصلون للمسيح، وليس للرب. لكن المسيح صلّى دائماً للرب، كما يقول الإنجيل، لـ «الأب». لهذا فكرت أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً. في الواقع، لم أشكك في النصرانية أبداً، وكنت أفكر أكثر في مصطلحات الكنائس المختلفة. قلت لنفسي: «لا بد أن الحقيقة في مكان ما هناك كيف أستطيع إيجادها؟»».

كان ابنها وكنّتها قد اعتنقا الإسلام آنذاك، وكما قالت: «انزعجت عندما أصبح ابني مسلماً؛ لأنني لم أسمع عن الإسلام من قبل. فكّرت أن ذلك غريب؛ لأنه لم يسبق لي أن سمعت عنه شيئاً. لا بد أنه شيء جديد».

«لهـذا كنت أقول لهما: «لا أعتقـد أنكما تمتلكان الحقيقة، وأعتقد أنها النصـرانية. إنها فقط مسـألة العثور على الكنيسة الصحيحة». كان ابني يقول لي: «ماما، أحدنا على الطريق الخاطئ».

قلت: «حسناً، لست أنا بالتأكيد».

«وبرغـم أنني كنت غاضـبة منـه، إلا أنه كانت تتملكنـي رغبة جامحة بمعرفة من لديه الحقيقة. لكن ما غيّر الأشياء حقاً بالنسبة لي كان عندما عـاد ابنـي إلى المنزل مع «كتاب ابن عباس». حسـناً، قرأتـه بذهن مفتوح وكان يقول: إن المسـيح لم يمت على الصـليب، ولأكون صـادقة، كانت تلك الطريقـة التي هداني بها الرب. جعلني ذلك أتوقف وأفكر. قلت: إن الرب يستطيع فعل أي شيء: لماذا سيدع المسيح، وهو نبي رفيع المنزلة، يموت تلك الميتة البشعة؟ وتابعت قراءة ذلك الكتاب وكان كافياً بالنسبة لي. لقد رفع الله الحجاب عن قلبي، وآمنت».

تعرفـت مـي على الإسـلام عن طريق أصـدقائها في الجامعـة، الذين اعتنق الكثيرون منهم الإسـلام عندما كانت في ديارها خلال السـنة التي انقطعت بها عن الدراسة. عندما عادت إلى الجامعة لرؤيتهم، سألوها ما إذا كانت مهتمة بالأمر.

«قلت: «لسـت مهتمة بهذا النوع من الأديان. إنه لا يناسـبني». كنت قد عرفت القليل عن الإسـلام في المدرسة، الأركان الخمسة، وذلك النوع من الأمور. لكن فيما عدا ذلك، كنت قد نسـيت كل شيء تماماً. ثم سألوني ما إذا كنت على دين ما، وما هي ديانتي. قلت لهم: إنني أؤمن بدين لكن ليس له اسم. وهكذا سألوني عنه».

قلـت: «أؤمن بوجـود رب، لكننا لا نعـرف كيف يبدو، ليس لديه لحية بيضاء أو شعر أبيض أو أي شيء من هذا القبيل. يستطيع سماع أي شخص عندما يكون بحاجة إليه. يتمتع بقوة لفعل كل ما تريد».

«في ذلك الوقت كنت أمارس اليوغا؛ لأنني كنت أعاني من آلام شديدة في ظهري، ويقال: إن وضعية القمر هي أفضل شيء للظهر. وقال أصدقائي: «هل تعرفين شيئاً؟ عندما يصلي المسلمون خمس مرات في اليوم، يتخذون تلك الوضعية أيضاً».

«قلت شيئاً مثل: «لا، حقاً؟!».

«لهذا قالت صـديقتي: إن ديني شـبيه بالإسـلام، طلبت منها ألا تكون سخيفة. لكننا بدأنا نتكلم عن الإسلام وبدا كل شيء يبدو منطقياً. وهكذا أخذنا نتكلم عن الإسـلام، ليلاً ونهاراً، ولا شـيء سـوى الإسـلام. لكنني بقيت أعتقد أن الإسلام لا يناسبني؛ لأنني لم أشعر بأنني مسلمة. ثم مرّر لي أحدهم ورقة عليها أسـئلة: هـل تؤمنين بإله واحد؟ (نعم). هل تؤمنين بالملائكة؟ (نعم). هل تؤمنين بالرسل؟ (نعم). ثم في نهاية الأسئلة هناك عبارة تقول: «إذا كانت كل الإجابات نعم، أنتِ مسلمة».

«شـهقت: «آه، أنا مسـلمة. يا إلهي، لا يمكن أن أكون مسـلمة! سيقتلني والـداي!». لكنـي كنت قد اتخذت قراري، وأدركت فجـأة أن الأمر لا يتعلق بوالديّ آنذاك، كان يتعلق بمولاي عزّ وجل».

لا يرحب الجميع بالإسـلام في حياتهـم أو يقبلونه حالما يتعرفون عليه. كان دخول الإسـلام إلى حياة جميلة في أثناء مراهقتها أقرب ما يكون إلى التطفل. كان شـقيقها، الذي تحبه حباً جماً، بعيداً في الجامعة وعاد يتكلم عن الإسلام.

«تعرف شقيقي على الإسلام بالمصادفة، وكان ذلك ما حمله معه إلى العائلة عندما عاد إلى المنزل. بالطبع، اعتقدوا أنه مجنون بكل معنى الكلمة».

«في ذلك الوقت، مشيت مع التيار بسبب ما كان يعنيه شقيقي لي. كان مثل مستشار لي كان يمثل كل شيء في حياتي في ذلك الوقت وأتبع ببساطة كل خطواته. على أي حال، لم يكن ذلك شيئاً ترتاح له نفسي بسبب كل ما يتطلبه الأمر».

لأنها يافعة، شعرت جميلة بأنها ممزقة بين الارتقاء إلى المستوى العالي الذي يتوقعه منها شقيقها من جانب، وعيش الحياة التي اعتادت عليها من جانب آخر.

«عندما كان يوجد في المنزل خلال العطلات، كنت أؤدي دوراً مزدوجاً. كان الأمر يشبه وجود شخصين معاً: جميلة وجين».

لكن هذا الوضع لم يكن ليدوم طويلاً، وبعد مواجهة كبيرة مع والدتها بشأن ارتداء الحجاب، قررت الرحيل عن المنزل.

لا بد أنها فعلت ذلك من أجله!

دون استثناء تقريباً، إذا اعتنقت امرأة الإسلام في أثناء ارتباطها برجل مسلم، يكون هناك اعتقاد بأنها أصبحت مسلمة فقط لإسعاده، للحفاظ عليه، من أجله. على أي حال، كنت قد اكتشفت أن هذا عارٍ عن الصحة تماماً. في معظم الحالات، برغم أن الشريك قد يكون محفّزاً، إلا أن النساء أنفسهن يبحثن الدين ويدرسنه بشكل مستقل قبل اتخاذ قرار باعتناق الإسلام.

عندمـا التقت كلير غاريث في الجامعة، مثلاً، أخبرها أنه مسـلم، وإن كان غير ملتزم. لكن في سـنة ما، عندما عاد من الإجازة الصيفية، «دفعه الوقت الصـعب الذي قضاه في تعاطي المنوعات خلال الصيف إلى تنقية أفعاله ـ اكتشـاف المزيد عن الإسـلام ـ لهذا في الوقت الذي شاهدته فيه مجـدداً، كان يغوص في تفكير جـدّي وعميـق. تكلمنا كثيراً عن الأشـياء الروحيـة عندمـا اجتمعنا معاً، ثم بـدأ ـ ببطء ـ بعد ذلـك بتأدية فروض الإسلام. كان يتحدث قليلاً معي عن الدين، لكني لم أكن مهتمة حقاً، كنت قد خضـت تجربة التفكير العميق بشـأن الدين من قبل، وكان ذلك خلفي بشـكل أو بآخر. كان موقفي: وإن يكن؟ آمن بما تريد، لكن لا ينبغي عليك المبالغـة في الأمـر. كان يشـجعني على قراءة تلك الكتـب، لكني لم أقرأها أبداً، لأنني شـعرت بـأن كوني كاثوليكية هو كل ما يهـم وأنه لا بأس بذلك بالنسـبة لي، ليس أن ذلك كان سـلواناً كبيراً لي، لكن ـ مهلاً ـ هذا ما أنا عليه. لا أريد أن أكون أي شيء مختلف».

لكن غاريث تابع الحديث معها حول الإسلام، وشجعها على التكلم عن معتقداتها، وشرح لها المعتقدات الإسلامية.

«لأكون صـادقة، كنـت أرى أن الإسـلام هو الحقيقة لكني لم أسـتطع التغاضي عن كل القيود التي يضعها أيضاً».

في زيارتهما الأولى إلى بلدة غاريث الأم، ذهبت كلير مع شقيقها لرؤية امرأة أخرى غيرت دينها، وأصـبحت مسـلمة أيضـاً. كانت زيارة كارثية، وعلـى مـتن القطار في طريق العودة إلى بريسـتول قالت له كلير: «اسـمع، لست مسـلمة، لن أصبح مسلمة وينبغي أن تفهم ذلك. ولا أريد التكلم عن ذلك مجدداً».

«وقال: «حسناً». وهذا ما كان لبعض الوقت، نحو ستة أسابيع».

لكـن قبـل أن يتكلما في الموضـوع مجـدداً، كانت كلير تفكـر في الواقع بالإسلام وبأن تصبح مسلمة.

«حدثت بضـعة أمـور جعلتني أبدأ التفكير بشـأن أسـلوب حياتي التي كانت تعني لي الكثير. أعتقد أنني وقعت في حب النوادي الليلية والممنوعات لكنـي لم أتحـدث إلى أحد بشـأن ذلك كنت أحتفظ بكل شـيء في داخلي. ربما كنت أشـعر أن قبول كل ما كان يعرضـه علي غاريث يعني الاستسلام في المعركـة، كان لا يـزال ذلك العناد موجوداً هنـاك. إنها جذوري الكلتية (سـكان بريطانيا القدماء)، دون شك! على أي حال، كنت أعمل في مكتبة الجامعـة في ذلـك الوقـت وقرأت بعض الكتـب عن الإسـلام التي كان قد تركها في غرفتي قبل وقت طويل. ثم، في إحدى الليالي، كان كل أصـدقائي قد غادروا شقتي وكنت أجلس مع غاريث في غرفة الجلوس. وسألني بتردد شديد: «هل تعتقدين أنكِ مستعدة لتصبحي مسلمة الآن؟».

«والشيء الغريب أنني كنت مسـتعدة. وهكذا نطقت بالشهادة، شهادة الإيمان. لا يمكنني شـرح السـبب، لكن الله كان قد غيّر ما في قلبي. كنت مسلمة آنذاك».

تعرفت أم محمد أيضاً على الإسلام عن طريق شريكها، عبد الرحيم، والد طفلها.

«كنت أعرف أن الإسلام شيء يهتم به عبد الرحيم ـ اعتاد على الحديث عنـه بين الفينة والأخرى ـ لكني لم أدرك أبداً مـدى جدّيته. ثم، يوماً ما، كنت أسـير على الطريق العام، مفعمة بالنشاط بعد إحدى جولات التسوق

التي أقوم بها صبيحة الأحد، وكان هو يسير بالاتجاه المعاكس. أخبرني أنه كان في المسجد وأنه نطق بالشهادة. لهذا كانت ردّة فعلي شيئاً مثل: «آه، حسناً. هذا ما تؤمن به». بعد أن أصبح مسلماً، اشترى لي قرآناً.

كلما قرأت أم محمد أكثر عن الإسلام، زادت قناعتها بأنه الحقيقة، لكنها كانت تكره التخلي عن أسلوب حياتها الصاخب، ولهذا قررت ألا تفعل شيئاً بشأن ذلك. على أي حال، عندما ولد ابنها محمد، قرر والده الالتزام بالتعاليم الإسلامية تماماً وبدأ يخبر أم محمد المزيد عن الإسلام، وعلّمها كيفية الصلاة.

«كان الأمر ما يزال مثيراً للاهتمام، لكني كنت خائفة من الإقدام على الخطوة. كنت قد بدأت أستوعب أن الإسلام يتطلب الكثير من الالتزامات، وكنت أخشى من عدم قدرتي على الوفاء بها. أيضاً، كنت أخشى من عدم وجود أحد مثلي، إن الجميع سيكونون كبار السن، يتكلمون البنغالية أو الأوردو أو العربية، كنت خائفة بالتأكيد من الإقدام على تلك الخطوة. لكني بدأت أصلي في ذلك الوقت. شاهدت أيضاً فيلم الرسالة، الذي يقدم قصة الأيام الأولى للإسلام، والذي أوضح لي الكثير من الأشياء التي كنت قد قرأتها في القرآن والحديث. وبعد شهرين من إنجابي للطفل، قرر عبد الرحيم الرحيل والذهاب للعيش في المسجد. لم يكن يريد الاستمرار في العيش بالطريقة التي كنا عليها، ولهذا انفصلنا. حطّم ذلك فؤادي؛ لأنني كنت أحبه، لكني تفهمت ما فعله؛ لأنني لم أكن مستعدة للتغيير بعد. بقي يأتي لزيارتنا، يوم الأحد، لرؤية محمد لكنه لم يكن يمكث ويقضي الوقت معي؛ لأننا لم نكن متزوجين. فيما يتعلق به، كان مسلماً آنذاك ولم يكن هناك شيء سيقف في طريق ذلك».

التقت أم محمد بعد ذلك بمجموعة من المسلمات الشابات، من أعراق وجنسيات مختلفة، واللواتي أجبن على الكثير من أسئلتها وقمن بدعوتها لحضور صفهن لتعلم العربية. بعد ذلك، وفي عيد ميلادها تلك السنة، خرجت بحثاً عن بعض الملابس كما جرت العادة والتقت مسلماً في كشك البخور حيث يعمل والد محمد عادة. أصيب بالدهشة عندما عرف أنها والدة طفل عبد الرحيم، ولم يكن انطباعه جيداً عندما سمع أنها تركتهما كليهما. بدأ يسألها عما تعرفه عن الإسلام وتفاجأ من فصاحة أجوبتها. اقترح عليها عندها الذهاب إلى المسجد للحديث مع الإخوة هناك. «سألوني عمّا أعرفه عن الإسلام وعن الله. ثم سألوني: «هل تؤمنين أن هذه هي الحقيقة؟»».

«وقلت إنني أؤمن بذلك. وقالوا: «حسناً، ما الذي تنتظرينه إذاً؟»».

«لهذا فكرت حينها: «ما الذي أنتظره؟»». لم يكن هناك شيء يوقفني، سوى ارتداء ملابسي للسير حتى نهاية الشارع. لهذا سألوني ما إذا كنت أعتقد أنني مستعدة لأن أكون مسلمة».

وفكّرت: «لماذا لا أنطق بالشهادة الآن؟». وكان ذلك ما فعلته.

التقت عالية أحمد في قمة نجاحها المهني وحياتها الاجتماعية الحافلة بالنشاط. لكن اعتناقه الإسلام في الأيام الأولى من علاقتهما كان أكبر اختبار لها، ومدخلاً حلواً مراً إلى الإسلام. كان أحمد قد اصطحب ابن عالية، جميل، إلى طبيب الأسنان لكنه تأخر عن العودة إلى المنزل أكثر من أربع ساعات. أصيبت عالية بقلق شديد.

قالت لي: «ثم عاد مع ابتسامة كبيرة رائعة على وجهه، أتذكرها جيداً، فقد كان وجهه مشرقاً».

قلت: «أين كنت؟ لقد قلقت كثيراً».

وقال: «أصبحت مسلماً». بتلك السهولة. كان قد التقى أخاً في الحديقة وتكلم معه عن الإسلام. كان مقتنعاً تماماً حتى إنهما ذهبا إلى المسجد معاً ونطق بالشهادة. أصبت بالصدمة. كانت تجتاحني كل أنواع المشاعر».

سألته: «ماذا تعني بأنك قد أصبحت مسلماً؟ لقد ذهبت إلى طبيب الأسنان، لتصرخ عالياً، وتقول لي الآن: إنك مسلم».

قال: «استمعي إلى هذا الشريط، استمعي إلى هذا الشريط!»، ووضع شريطاً لتلاوة القرآن. كان يبدو بالنسبة لي مثل موسيقى آسيوية غريبة. كان مفعماً بالنشاط، ولم يتكلم عن شيء سوى الإسلام. كان الأمر يشبه اختفاء الشهور الستة الماضية خلال بضع ساعات. شعرت بأنه لم يعد هناك شيء مشترك بيننا».

«وقلت له: «لن يجدي هذا نفعاً».

«باكراً في صبيحة اللاحق التالي، ذهب إلى المسجد ليصلي. بعد ذلك، بدت كل الأشياء الإسلامية التي كان يقوم بها أكثر غرابة بالنسبة لي. كان الأمر يبدو كما لو أن أحداً قد اختطفه، أخذه بعيداً في مركبة فضاء وأعاده مجدداً على هيئة ذلك الغريب. كنت أشعر كما لو أنني أواجه شخصاً مختلفاً تماماً. كان متعلقاً بالمسجد، وكان يوجد هناك عملياً طيلة الوقت ويتعلم الكثير من إخوانه. كان يعود إلى المنزل ويحاول نقل ذلك لي، لكني كنت أشعر برغبة في الصراخ. ثم بدأ يقول: إنه لا يستطيع القيام بأشياء معينة لأنها ... كان يستعمل هذه الكلمة «حرام»،لم أعد حتى أفهمه في ذلك الوقت! بدأ يقول لي: إنني لا أستطيع ارتداء تلك التنانير، وإنه لا

يمكنني ارتداء تلك الملابس ولم أكن أستسيغ ذلك. أتذكر أنني حزمت حقائبي ووقفت قرب الباب وقلت: «لا يمكنني القيام بهذا. لست مستعدة لذلك. لا يمكنك أن تصبح مسلماً ثم تتوقع مني الحذو حذوك».

«أيضاً، كنت أعرف فتاة سوداء اعتادت أن تغطي وجهها وكانت تبدو غريبة لنا. كنا نقف هناك مشدوهين، ننظر إليها، لأنها كانت الشخص الوحيد الذي أعرفه في العالم ويرتدي تلك الملابس. وفكّرت حينها: «هل تريد مني أن أصبح على تلك الشاكلة؟ محال!».

«لكنه أقنعني بعدم الرحيل وتكلمنا مطولاً. دعاني للذهاب إلى المسجد. اشترى لي وشاحاً وقال: إنه ينبغي بي وضعه على رأسي لإظهار الاحترام للمكان. أتذكر أنني أمسكت به تحت ذقني، وعندما وصلت إلى هناك، قالت إحدى الأخوات: «لماذا لا تثبتينه بدبوس؟ سيكون ذلك أسهل ...». ووضعت دبوساً لتثبيت حجابي. ثم سألوني ما إذا كنت مسلمة، وقلت: لا. وعندها بدأنا الحديث. وبدأت حضور الكثير من المناسبات الإسلامية؛ نظراً لوجود شيء ما في كل يوم، محاضرة، سوق أو شيء من هذا القبيل».

«ثم ذهبنا في يوم ما إلى محاضرة إسلامية في واحدة من المدارس المحلية، وكانت مثيرة للاهتمام حقاً. تكلمت إلى العديد من الأخوات في ذلك اليوم وشعرت بأنني موضع ترحيب ومرتاحة بينهن. عندما كنا ننتظر لنغادر، دخلت في حديث مع أخت وانتهى بي الأمر أقول لها: «أعتقد أنني ربما أرغب بأن أصبح مسلمة».

«بعد بضعة أيام، كنت في المسجد وقلت: «أريد النطق بالشهادة الآن». وهكذا تم اصطحابي إلى الطابق العلوي ونطقت الشهادة، وكانت كل الأخوات سعيدات جداً، كان الأمر مثل حفلة كبيرة».

كمـا رأينا، يحفّز الرجـل أحياناً المرأة على اعتناق الإسـلام. لكن من النـادر أن نجـد امـرأة لم تدرس الدين بنفسـها، وتكافح مـن أجل ذلك، وأخيراً، تقبل به من تلقاء نفسها.

غسيل الدماغ والإكراه

هناك شـيء ربما تشـترك بـه الكثير من قصـص أخواتـي وهو دور التسـاؤل، القراءة والدراسـة في اتخاذهن لقرار اعتناق الإسـلام. هذه نقطة مهمـة ينبغي ملاحظتها؛ لأن الكثير من الناس، خاصـةً الوالدين، يتجهـون للتفكير بأن الشـباب الذيـن يغيّرون دينهم يمـرون عبر عملية غسيل دماغ، مما يقود أخيراً إلى إرغامهم على النطق بالشهادة. درست معظـم الأخوات تفاصـيل الإيمان قبل أن يلزمن أنفسـهن به، وبالنسـبة للكثـيرات منهـن، كان الدليل الفكـري والديني هو الـذي أقنعهن أخيراً بصوابية الدين.

عندمـا أصـبح عبد الرحيم مسـلماً، كانت أم محمد ما تزال تسـتمتع بحياتها كثيراً، «انغماس في الملذات، حضـور الحفلات، الشـكل الحسـن، المجـيء والذهاب كما أريـد». قراءتها للقرآن أول مرة لم تقرّبها قيد أنملة من الإيمان. بالفعل، لم يتغير شـيء حتى ابتاع لها شريكها كتاب الحديث، أقوال النبي محمد ﷺ، وبدأ الأمر عندها يشد انتباهها.

«قـراءة كتاب الحديث ذاك أثّر بي. جعلتني القراءة حول أركان الدين المختلفة أفكّر: هل يبدو هذا صحيحاً؟ ... يمكنني الغوص فيه».

«ثم قرأت القرآن كله مجدداً وشـدّتني حقيقة «وحدانية الله»، وقصـة رفع المسـيح وليس صـلبه ... ثم حصـلت على «كتاب ابن عباس» الذي أثّر

بي بالطريقة نفسـها. وبعد قراءة الكثير من الكتب، بدأت أشـعر بقلبي أن الإسلام هو الدين الصحيح».

بالفعل، كانت القراءة هي التي دفعت هاجر لتعلم المزيد عن الإسـلام، بعد أن أخبرها ابنها قصة النبي إبراهيم والنار.

أوحـى لها ذلك بشـراء كتاب عنه، وبـدأت القراءة عـن الأنبياء وعن حياة آخر النبيين محمد ﷺ أيضـاً. وجـدت كل ذلك مذهلاً وبدأت تزور مكتبة محلية بانتظام، متلهفة لمعرفة المزيد. أم طارق أيضـاً وجدت أن كل شـكوكها تتلاشـى بعد أن قرأت «كتاب ابن عباس». كانت كلير أختاً أخرى قرأت عن الإسـلام سراً فيما كانت تعمل في مكتبة جامعتها، دون أن تُطلع غاريث على أنها بدأت أخيراً تهتم بالدين.

في حالة جميلة، لم تسـتطع الالتزام بالدين بشـكل كامل حتى بادرت من تلقاء نفسـها وأمعنت التفكـير بالأمر حقاً. بعد الهـروب من المنزل وقيام شـقيقها باصـطحابها للعيش مع آسيا وسـراج، وهما شخصيتان محترمتان جداً من الجالية المسـلمة جنـوب لندن، تتذكر موقفها قائلة: «أعتقـد أن أي شـخص التقى بـي في ذلك الوقت وجـد أن التعامل معي صـعب جداً. لم يكن أحد يسـتطيع أن يقول لي أي شـيء، خاصـةً حول الديـن، كنت متعجرفة جداً بشـأن ذلك. لم يكن أحد يسـتطيع الجلوس معي وأن يقول لي: «ما هو رأيك بهذا الخصـوص؟»، أو «الإسـلام يقول هذا، ما هو رأيك؟». لم يكن الأمر يصل حتى إلى ذلك الحد. كنت أخرج من الغرفة بكل بساطة.

«علــى أي حــال، كانت الأشـياء الرقيقة هي التي تؤثر بــي، تعمل على تشــكيلي، وتجعلنــي أكـثر ليونة تجــاه الإســلام. طبيعة آسـيا، أخلاقها، الطريقة التي تعاملت بها معي، الطريقة التي كانت تتعامل بها مع أطفالها، ومع الأشخاص الآخرين».

بدأت جميلة بزيارة ســراج في المستشـفى دون أن يعـرف أحد آخر. في إحدى تلك الزيارت، ألقت أخيراً نظرة صادقة على نفسها وحياتها.

«قال لي شيئاً ذات مرة: قد يبدو الأمر غريباً حقاً وغير ذي صلة، لكنها كانت بالتأكيد نقطة التحول في حياتي».

سألني: «ما الذي تريدينه؟».

«قلـت له: «ليس الأمر أنني لا أؤمن، لأنني أؤمن أنه لا يوجد ســوى رب واحد فقط وأن محمداً هو خاتم الأنبياء. لكني فقط لا أســتطيع القيام بما عدا ذلك ... لا يمكنني وضع ذلك الشيء على رأسي، لا يمكنني القيام بما تبقى، ولا أريد القيام بما تبقى، أريد حريتي. أريد أن أكون قادرة على فعل هذا، والقيام بذاك ...».

«فيما كان يصــغي السمع، بدأ يجلس في السرير ونزع قناع الأوكسجين الذي كان ينبغي أن يضــعه بشكل دائم. كان ضعيفاً للغاية، وفي حالة يرثى لها حقاً».

بــدأ يقــول: «انظــري إلي، الموت يدنو منــي. وقتي محدود. ربما أســتطيع التحدث إليك الآن، وربما لا أستطيع التحدث إليكِ مرة أخرى في الغد...».

كانت لرؤية صديقها ومستشارها قريباً جداً إلى الموت تأثير عميق على جميلــة، كلما أمعنت التفكير بالأمر، كلما بدا كل ما تتشــبث به بلا معنى.

يقــال دائماً: إن الموت يمنح المــرء فهماً جديداً للحياة، وكان ذلك ما حدث مع جميلة.

«منذ تلك اللحظة، قررت أنه لم يعد بإمكاني الاستمرار بطريقة العيش تلــك، وأنه ليس لدي وقت للقيام بذلك. لقد هــزّني ذلك كله. وهذه المرة، هزّني في الصميم؛ لأن الأمر كله كان متعلقاً بشقيقي قبل ذلك، لكنه أصبح آنــذاك شــيئاً جعلني أدرك ذاتي وكان ذلك هو الفــرق. كان ذلك الإدراك مهماً جداً بالنســبة لي؛ لأنه طالما كان هناك شــخص يحاول تكريســه في داخلك، ستشعرين بأنكِ تتعرضين للضغط وأنكِ مرغمة على القيام بما لا ترغبين به. يســتمر ذلك حتى يحين الوقت الذي يمنحك فيه الله الهداية، وعندمــا يفعل ذلك، ينتهي الأمر، وقد انتهى حقاً. كان اليوم اللاحق العيد (يحتفل به المسلمون)، وبدأت الصلاة، وارتديت ملابس غطتني بالكامل، مع الحجاب، النقاب وكل شيء آخر سجدت برأسي أولاً. فيما يتعلق بي، لم يكن هناك وقت أضيعه. كان إيماني وعقيدتي قويين جداً، ولا حدود لهما. وأنا ســعيدة، أنا ســعيدة؛ لأنني قمت بالأمر على تلك الشاكلة؛ لأنني إن لم أصــل إلى تلك المرحلة مرة أخرى، فســأعرف على الأقل أنني كنت هناك مرة في حياتي. كان ذلك قدري وأنا سعيدة به».

لا يمكن تصــديق قصــص النســاء الغربيات اللواتي اعتنقن الإسلام بســهولة؛ لأنها تخالف الأفكار الجاهزة سلفاً للكثير من الناس: أن طريقة الحيــاة ومنظومــة المعتقدات الغربيــة متفوقة كثيراً على أي شــيء يقدمه الإســلام، أو أي منظومــة معتقــدات أخــرى. يتســاءل الناس، ســراً، عن الســبب الذي يدفع بامرأة للتخلي عن «حريتها» الغربية مقابل، كما يرون، حياة إذعان وقيود. أعتقد أن هذه القصص تخصنا جميعاً. هذه القصص

جزء من تاريخنا، بصفتنا أشخاصاً غيّروا دينهم، كمسلمات، كنساء، كأناسٍ يعيشون في الغرب، فصول مختلفة منها تخص كل واحدة منا.

عندما أقرأ القصص التي جمعتها، أتذكر قيمتها: إنها تدل على أن الإسلام عام للجميع. ويظهر التنوع الكبير في خلفيات وتجارب الحياة التي تميّز الأخوات في هذا الكتاب أن الإسلام يناسب أي شخص. لا يمكن تصنيف الأخوات ضمن أي قالب، أو أي شكل جاهز. لكل منهن شخصيتها الفريدة الخاصة بها، ورأيها المستقل. إنهن ناشطات في مجال حقوق المرأة، قوميات إفريقيات، ثائرات سراً على السلطة القائمة، نجمات موسيقى، متمردات روك، ملكات ملاهٍ، مواظبات على الذهاب إلى الكنيسة، مصممات، لاعبات، عارضات، مغنيات، عاملات، طالبات ماجستير، مسلمات ثقافياً، نصرانيات، سيخيات، ملحدات، من كل خلفية عرقية ومن كل الأعمار.

والشيء غير المتوقع على الإطلاق أن الإسلام استطاع الوصول لكل واحدة منهن، واستقر في قلوبهن وخاطب كل واحدة منهن بطريقة شخصية، ومنحهن الأجوبة التي كن يبحثن عنها وغيرّ حياتهن إلى الأبد.

🙟

3

كونك مسلمة حديثاً ـ الأفراح والمسرّات

كانت رحلتي إلى الإسلام حسّية ـ رحلة مناظر، وأصوات، وأذواق ومواد ملموسة. وقعت في حب فكرة كوني مسلمة، الصلاة مع أول ضوء، تذوق أول كسرة طعام مع غياب أشعة الشمس، سماع الأصوات الشجية التي تدعو للصلاة والسجود على أرض دافئة. بخلاف معظم النساء الأخريات اللواتي ستعرفونهن في هذا الكتاب، لم أدرس الإسلام بعمق قبل أن أقرر أن أصبح مسلمة، لهذا، بالنسبة لي، معظم ما أعرفه الآن عن الإسلام كنت قد تعلمته بعد أن أصبحت مسلمة في الواقع، وأصبحت رحلة اكتشاف حقيقية.

المعتقدات القوية التي توحد كل المسلمين ـ ذكور، إناث، سود، بيض، أغنياء وفقراء ـ هي ما جمعت تلك الأخوات من كل دروبهن المختلفة معاً. كان بعض منهن يبحث، فيما لم تكن أخريات يفعلن ذلك، لكن في النهاية كانت هناك حقيقة لا يمكن التغاضي عنها، حقيقة لا يمكن نكرانها، والتي جعلت الخضوع لله أقوى مما يستطيع المرء مقاومته.

إنه هذا الإيمان في العقيدة الإسلامية الذي ينبغي فهمه، وآمل أن تكون هذه الفقرات القليلة مدخلاً لذلك.

الإسلام ـ الأركان

يؤمن المسـلمون ويعبدون الله، الـرب الواحد، رب موسـى، وإبراهيم، والمسيح وكل الأنبياء الآخرين. الله هو اسم الرب في القرآن، الكتاب الذي أُنزل على النبي محمد ﷺ قبل 1400 سنة مضت، والذي تؤمر به البشرية بعبادة الله وحده. هذا هو حجر الأسـاس في الإيمان الإسلامي: التوحيد ـ الوحدانية الخالصة الصرفة.

يتمحور أسـلوب الحياة الإسـلامي حول عبادة الخالـق وحده، دون أي شـركاء. ليس هناك وسطاء: لا رجال دين أقوياء للغاية، لا كهنة اعتراف، لا قدّيسـين يدعوهم المرء، لا أنبياء يتم تقديم القرابين لهم، لا آلهة ينبغي استرضـاؤها ولا أسلاف ينبغي استشارتهم. في الإسلام، العبادة مقدّسة، وينبغي أن تكون كل أشـكال العبادة خالصـة لـ«رب العالمين»: الله، الواحد الأحد. العبادة ليست محصورة بشعائر الصلاة، الصيام، توزيع الصدقات وتلاوة القرآن. إنها تمتد عبر طيف الحياة؛ لتتضـمن كل أشـكال الأعمال اليومية، مثل تناول الطعام، الشـراب والنوم، إلى الأحوال الشخصية مثل الـزواج، الترفيه عن النفس والاسـتمتاع بالعلاقات الجنسـية، إلى أحوال القلب مثل الحب غير المشروط، التفاني الصادق، الخوف والتوكل.

عمق وشـمولية التوحيد الإسـلامي عصـفا بذهني. لم أستطع التفكير بنظـام معتقـدات آخر يأمر بالعبادة بشـكل فريد وحصـري للرب وحده. بالنسبة لي، كان ذلك يبدو مناسباً؛ لأنني إذا أردت النجاح في امتحاناتي، إيجاد عمل جديد، الزواج من رجل صـالح، فإنني أسـأل ذلك من المرجع الأخير ـ الرب ـ بدلاً من إضاعة الوقت في استشارة صغائر الأكوان.

في عـالم يتمحـور حـول المادة والفنـاء، يدعـو الإسـلام إلى حياة يتم تكريسها للرب والخلود. في القرآن، يوضح الله سبب خلقنا:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

منحني ذلك الجواب لأشد الأسئلة إرباكاً: ما هدف الحياة؟ إنها تعني، كمـا افترضـت، أنه يوجـد في الحياة ما هـو أكثر من مجرد السـعي وراء مسـتوى أعلى من الراحة المادية والتقدم إلى الأمام ضـمن بيئة تنافسـية للغايـة. ذلك يعنـي أنني لن أنتظـر إلى الأبد القبول من والـديّ، نظرائي ومجتمعي. ذلك يعني أن لكل يوم معناه، وأن كل يوم يشـكل فرصـة لوضع شـيء في ميزان حسـابي مع المولى عزّ وجل. كل ابتسـامة، كل عمل خير، كل وظيفة نؤديها بإخلاص تُحسـب الآن في ميزان شيء له قيمته الفعلية ـ عبادة خالقي ـ وكان هذا هو السبب في خلقي.

ولد محمد بن عبد الله ﷺ في شـبه الجزيرة العربية نحو سـنة 570 ميلاديـة وعاش في مدينة مكـة، وهي بلدة مزدهرة علـى طريق التجارة القـديم وموطن الكعبة، البناء الذي شـيّده إبراهيم لعبادة الرب الواحد الأحـد. كانـت الكعبة قـد تحولت حينهـا إلى موطن العديد مـن الأوثان التـي كان العـرب يعبدونها في ذلك الوقـت. تم اختيار محمد ﷺ، الذي كان معروفاً باسـم «الصـادق الأمين» لأمانته وصـدقه، ليكون نبياً يدعو قومه وكل البشـرية للعودة إلى عبادة الرب الواحد الأحد، وبدأ دعوته في مكة. برغم أن معظم أفراد عائلة محمد وقلّة آخرين اعتنقوا هذا الدين الجديـد، إلا أن أغلبيـة المكيين، وخاصـةً النخبة الحاكمـة، لم يرق لهم انتقاد النبي ﷺ لمعتقدات الشرك التي كان عليها أسلافهم. في النهاية،

هاجر المسلمون من مكة، أولاً إلى الحبشة حيث سعوا إلى الحصول على حماية ملكها النصراني النجاشي، ثم إلى بلدة تدعى يثرب. وهناك ظهر الإسلام بوصفه أسلوب حياة كاملاً، وعكست العبادة، القضاء والعلاقات الاجتماعية ما أنزله الله في القرآن.

كان لفيلم الرسالة أيضاً تأثير كبير علي. برغم أنه لم يقدم صورة دقيقة للغاية، إلا أنه استطاع أن ينقل شخصية النبي محمد ﷺ وأفعاله دون أن يُظهره. قرّبني الفيلم إلى الشخصيات التي نقلت الروايات والقصص التي جرت في حياة النبي ﷺ، الحديث — أصبحوا جميعاً أشخاصاً حقيقيين بالنسبة لي، وعندما عانوا، بكيت من أجلهم. استلهمت القوة مع أصدقائي من ثبات هؤلاء المسلمين الأوائل، الذين تعرضوا للاضطهاد نتيجة رفضهم لأوثان أسلافهم، جعلنا ذلك أقوياء في وجه المشكلات التي كنا نتعامل معها بسبب إيماننا الجديد.

كانت أركان الإسلام الخمسة إحدى أولى الأشياء التي تعلمتها، وهي ما يتلقاه معظم طلاب المدارس لدى دراستهم للدين. إنها الشهادة (شهادة الإيمان)، الصلاة، الزكاة، الصوم (في شهر رمضان) والحج (إلى مكة).

يستند إيمان المسلم أيضاً على أركان ستة، حتى أكون دقيقة. أركان الإيمان الستة هي الإيمان بالله، وملائكته، ورسله (كل الرسل الذين ورد ذكرهم في التوراة، والإنجيل، والزبور والقرآن)، وكتبه (الكتب التي سبق ذكرها بأشكالها الأصلية)، واليوم الآخر (يوم البعث) والقدر، خيره وشره.

بعد أن ذهبت أنا وصديقاتي إلى المحاضرات الإسلامية وحلقات الدرس، واستمعنا إلى الأشرطة، وقرأنا كتبنا وناقشنا قضايا فيما بيننا، فهمنا مقداراً كبيراً من الدين الذي اعتنقناه. برغم أن المعتقدات نفسها بسيطة، وجدنا أن تفاصيل الإسلام كانت حقاً مثل محيط معرفة شاسع. وقد غصنا فيها مباشرة.

«كانت إحدى أفضل الأشياء في تلك الأيام الأولى هي التقيد بالأمور التي نقرؤها، ونحن مدركون أنها كلها تبدو منطقية. لسنوات طويلة، كانت عائلتي النصرانية تعلّمني حول هذا الأمر وذاك، لكن ذلك لم يكن يبدو منطقياً على الإطلاق. لكن الإسلام بدا أخيراً منطقياً بالنسبة لي. لم يكن مجرد دين، وإنما طريقة حياة». عالية

مسلم حديثاً

هناك مناحٍ عديدة في تجربة المسلم حديثاً التي نتذكرها بشغف: اكتشاف الشهادة (شهادة الإيمان)، دراسة التوحيد وتقديره، الاستمتاع بالصلاة، تجربة الصيام، الراحة المستمدة من نمط اللباس الجديد ـ الحجاب ـ الإحساس الجديد بالمجتمع، والاتجاه المثير للاهتمام الذي تسلكه حياتنا. كان الاكتشاف اليومي للإسلام مثيراً. في عاداتنا وتقاليدنا، الأمر كما لو أننا نقول: «مهلاً، نحن مسلمات ولدينا هذا الدين العظيم ـ الإيمان ـ ونحن على قمة العالم!». دون شك، كانت تلك أوقاتاً سعيدة، أوقاتاً فرحة، أوقاتاً مليئة بالمسرّات.

الشهادة

أحـد أهـم العناصـر في إيماننـا الإسـلامي الجديد كان، ومـا يزال، الشـهادة، وهي تلك الكلمات التي ينطق بها المسـلمون منذ أكثر من 1400 سنة وهي التي تؤكد التزامهم بالإسلام.

الشهادة، المعروفة أيضاً بالكلمة، هي الركن الأول في الإسلام، وتقول:

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».

تتألـف هذه العبـارة من جزأين، نفي وتأكيد. مع عبـارة «لا إله»، ينفي المسـلمون عبادة أي إله أو شـيء آخر، سـواء كان حجراً، شجرة، تمثالاً أو قدّيسـاً. تؤكد كلمتا «إلا الله» عبادة الله وحده، وأنه الواحد الذي يخصـه البشر بتلك العبادة.

> «لأنني ولدت مسـلمة، لم أكن أعتقد أني بحاجة للنطق بالشـهادة. بطريقـة مـا، أتمنى لـو أنني حققت ذلـك الركن الأساسـي، فقط للتفريـق بين وقت الجهـل ووقت المعرفـة. لكن لأننـي لم أنطق بها رسـمياً، فقد قضيت وقتاً طويلاً أمعن التفكير بها؛ لأن التقدم دون ذلك الركن صعب جداً». سارة

للشهادة شـروط خاصة بها، شروط تجعلها شرعية. أول تلك الشروط هـو العلم. الثاني هـو الإخلاص، الثالث هو الصـدق، الرابـع هو اليقين، الخامس هو المحبة، السادس هو الانقياد، والسابع هو القبول.

لا تسـتطيع الكلمات أن تعبر حقاً عن المشـاعر والأحاسيس التي ترافق الشهادة. عند النطق بها، تصبحين جزءاً من الأمة، أمة النبي محمد ﷺ،

وتكونين قد دخلت ثنايا الإسـلام. تصبحين آنذاك جزءاً من مجتمع، ليس لأن ولادتكِ حدثت بالمصـادفة ضـمن حدود قومية مصـطنعة، وإنما لأنكِ تؤمنين بالمعتقدات نفسها.

بالنسـبة للكثيرات، يرافق النطق بالشـهادة موجة من المشاعر: إثارة، وارتياح، وتحسب وفرحة.

«عندما تنطقين بالشهادة، يقال لك: إنك مثل رضيع مولود حديثاً، وأن لا ذنوب عليكِ. تشـعرين بأنك شـخص مختلف. تفكّرين حتى بأنكِ تبدين مثل شخص مختلف». أم صفوان

علـى الرغم مـن أن النطـق بالشـهادة كانت خطـوة عاطفيـة لبعض الأخـوات، إلا أن العديـد منهن لم يدركن أيضـاً أهمية تلـك العبارة حتى تعمّقـن في الدين وزدن مـن فهمهن له. لا أعتقد أنني أدركت أهميتها حتى نهاية سـنتي الأولى مسـلمة، وهكذا أنا واثقة أنني لم أكن استوفي الشروط السـبعة عندمـا نطقت بها في الواقـع. لكن، عبر القراءة وطرح الأسـئلة، بدأت أدرك أهمية تلك الكلمات وكيف سـتؤثر على كل مناحي حياتي. كان ذلك يبدو دائماً أكثر وضـوحاً بالنسـبة لي عندما ينشأ نزاع بين ما يتوقعه نظرائي مني وما أعرف أن الله يتوقعه مني. كنت أفكّر، كيف أستطيع تلبية مـا يطلبون مني القيام بـه بينما أعرف، أنا أعـرف، أنني موجودة لعبادة الله وحـده؟ هل موافقتهم أكثر أهمية بالنسـبة لي من رضـا الله؟ ولأنني كنت بدأت أقدّر الشهادة، عرفت ماهية الجواب على ذلك السؤال.

الجزء الثاني من الشـهادة أو الكلمة هو «محمد رسول الله»، وتعني أن المسـلم يؤمـن بأن محمد بن عبد الله ﷺ نبي الله ورسـوله، ويتبع سـنته

ويطيع أوامره. يفترض بالمسلم أن يحب الرسول محمداً ﷺ أكثر من أي إنسان آخر. كان هذا شيء وجدت صعوبة في استيعابه حتى بدأت في الواقع أتعرف عليه، على شخصيته وكيف كان يعامل الآخرين. أعتقد أن الأوقات التي شعرت بها أن قلبي يتعلق به حقاً كانت عندما سمعت بشأن حياته الخاصة: محمد، رجل العائلة. قبل أن أتزوج سنة 1999. استمعت إلى شريط حول كيف كان يعامل أفراد أسرته وبكيت: العطف، حس الدعابة، التواضع، الرحمة، المودة واللطف الكبيرين جعلتني أتمنى لو أني أستطيع الزواج من شخص فيه جزء من شخصيته. ينبغي أن أعترف أن جزءاً مما أعجبني كان مدى اختلافه عن الصورة النمطية العامة للمسلم التقليدي كانا على طرفي نقيض بطرق متعددة، وكان ذلك مبعث راحة لي. كنت أعرف أنني سأكون فخورة يوماً ما بأن أعلّم ابني طريقة تعامل النبي ﷺ في المنزل بحيث يمكن لابني أن يصبح رجلاً مسلماً حقاً.

اكتشاف القرآن

مذكور في صحيح البخاري، أوثق كتاب إسلامي بعد القرآن، أن النبي محمداً ﷺ بدأ في سنته الأربعين تلقي الوحي الإلهي على شكل رؤى كانت تتحقق. في ذلك الوقت أيضاً، بدأ يحب العزلة وكان يذهب غالباً إلى غار حراء؛ ليعبد الله عدّة أيام في كل مرة.

يوماً ما، بينما كان في الغار وحيداً، جاءه الملاك جبريل، وهو الملاك نفسه الذي كان الرب قد أرسله إلى موسى ومريم.

قال: «اقرأ».

كان محمد ﷺ قد نشأ معظم حياته بين البدو في الصحراء، ولم يكن يتقن القراءة أو الكتابة.

قال للملاك: «ما أنا بقارئ». عند ذلك، رفعه الملاك وضغط عليه بقوة كبيرة حتى لم يعد يتحمل ذلك. عندما حرّره، طلب منه الملاك مجدداً أن يقرأ.

أجاب مجدداً: «ما أنا بقارئ». عند ذلك، رفعه الملاك وضغط عليه مجدداً حتى لم يعد يتحمل.

بعد أن حرّره، طلب منه الملاك أن يقرأ للمرة الثالثة، مما دفع محمداً ﷺ لأن يقول: «ماذا أقرأ؟».

للمرة الأخيرة، ضغط عليه الملاك جبريل بقوة ثم قرأ الكلمات الآتية:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ [العلق: 1 - 3].

وعند ذلك، غادر الملاك تاركاً محمداً ﷺ مع أول آيات القرآن. كانت الدعوة إلى الإسلام قد بدأت.

عندما قرأت القرآن أول مرة، قبل أن أصبح مسلمة في الواقع، لم أفهمه تماماً. ونظراً إلى أنني لم أكن نصرانية من قبل، لم أفهم كيف يختلف عن الإنجيل، ولهذا كان موقفي متعجرفاً تجاه الأحكام والوصايا التي يتضمنها. لم آخذ بعضها على محمل الجد؛ لأنني اعتقدت أنها، مثل الإنجيل، من تأليف إنسان وأنه ربما تم تغييرها؛ لتلائم رجالاً أو أشخاصاً في السلطة.

بـدأ إسـلامي يصـبح أقوى فقـط عندما علمـت عن المصـدر الإلهي للقـرآن. حتى ذلك الوقت، كنـت آخذ ما يحلو لي وأترك ما عداه، مرتاحة لاعتقادي بأن رأيي هو الأهم. وكما قد يخبركم أي شـخص يمتلك معرفة ما بالإسلام، تلك ليست هي الطريقة التي تتم بها الأمور!

لكـن حالما بدأت أتعلّم عـن القرآن، زاد إعجابي به وشـعرت بالحاجة للتنقيب أكثر فيه والاقتراب منه. أصـابت الكلمات التي أوحى بها الله إلى محمد ﷺ، عبر الملاك جبريل، العرب الكفّار بالدهشـة. كان قوم محمد ﷺ معروفـين بحبهم للغة والشـعر وكان القرآن بالنسـبة لهم مثالاً رائعاً عـن ذلـك، لكن النبـي ﷺ كان قد وُلـد وفُطم بين قبائل الصـحراء ولم يكن يحسـن القراءة أو الكتابة. كيف استطاع هذا الأمّي تأليف ذلك النثر المقفّى. لم يكن قد درس أبـداً على أيدي الحاخامات والرهبان الموجودين تلك الأيام، لهذا كيف اسـتطاع معرفة قصص اليهود والنصارى؟ لم يكن رجل علم، لهذا كيف استطاع معرفة أسرار علم الأجنّة، تفاصيل الجغرافيا وأسـرار الفضاء؟ لم يكن لديه كرة سحرية، كيف استطاع امتلاك المعرفة بأحداث الماضـي والقدرة على التنبؤ بأحداث المسـتقبل؟ هل كان مجنوناً حقـاً كما نعتـه رجال قبيلتـه في ذلك الوقت؟ لكن الله نفسـه قـدم دليلاً واضـحاً أن القرآن من عنده وحـده عندما تحدّى البشـرية كلها بأن تأتي بشـيء يشبهه. كان التحدي الأول الإتيان بنص يشـبه القرآن، ثم الإتيان بعشـر سـور مثله، وأخيراً الإتيان بآية واحدة مثل القرآن. لم يستطع أحد أبداً التصدّي لذلك التحدي.

انتقل النص القرآني نفسـه عبر الأجيال فيما يعرف بالشـكل المتواتر. هذا يعني نقله من مجموعة كبيرة من الناس إلى مجموعة كبيرة من الناس

بحيث يتعذر عليهم التآمر جميعاً لتحريف النص أو تغييره. يقترن هذا مع حقيقة أن الله نفسه وعد بحماية كلمته من التحريف والتزوير.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: 44 - 46].

نقل الملاك جبريل الوحي إلى النبي ﷺ خلال حياته عبر مدة امتدت إلى ثلاث وعشرين سنة. كان النبي محمد ﷺ يقرأ عندها الآيات التي تُوحى إليه ويعلّمها لأصحابه، الذين كانوا يحفظونها، يعلّمونها لغيرهم ويكتبون ما تعلموه. كانت تتم كتابة تلك الآيات الأولى بالعربية على قطع من القماش، الأوراق وأي شيء آخر يمكن الحصول عليه بسهولة. في آخر حياته، كان النبي ﷺ يقضي شهر رمضان يقرأ القرآن كله مع الملاك جبريل. كان أحد أشدّ أصحابه إخلاصاً زيدٌ بن ثابت معه في تلك المناسبات ويقرأ معه. وعندما أمر الخليفة عثمان بأن يتم جمع القرآن في كتاب واحد، في السنة 24-25 بعد الهجرة (إلى المدينة)، كان زيدٌ بن ثابت من تحقق وتثبّت من النصوص وترتيب الآيات.

لتلك الأسباب، بقي القرآن كما أوحي به النسخة العتيقة الموجودة في أحد متاحف تركيا هي نفسها التي يمكن للمرء الحصول عليها من أي مكتبة اليوم.

كان ذلك مصدر فخر كبير لنا نحن المسلمات حديثاً: بقي القرآن على حاله دون تغيير أو تزييف، بعكس الكتب المقدسة التي نشأنا عليها، وعزّز ذلك من اليقين والثقة في إيماننا.

أثــار القــرآن اهتمــام الكثيرات منــا. عندما ســألت كلير حــول بهجة كونها مســلمة حديثاً وعن الأشياء التي أحبتها لدى دخولها الدين، أجابت دون تردد: «القرآن. لقد كان أروع شــيء ســمعته على الإطلاق. كنت أقرأ باستمرار شكسبير، الأدب والشعر، لكن عندما قرأت القرآن، وجدته شيئاً مختلفاً تماماً».

حرّك القرآن مشاعر الملايين عبر رسالته التي يحملها، كلماته ومعانيها ولحنه الشــجي في أثناء تلاوته. تلاوة القرآن شــيء يمنحه المسلمون دائماً أولوية قصــوى منذ فجر الإســلام وفي كل أصــقاع العالم، حتى عند عدم وجــود حــبر أو ورق، يتم الحفــاظ على آيات كتــاب الله في قلوب المؤمنين. ربما يكــون الكتاب الوحيد في العالم الذي يحفظه آلاف الناس من البداية حتــى النهاية ... لكن بالنســبة لي في ذلك الوقــت، كان حفظ حتى الآيات الاستهلالية القصيرة مصدر سعادة وبهجة.

تعلّمــت ثلاثة آيات ســماعياً عندما كنت في غينيــا، ولدى عودتي، كنت متلهفــة لتعلم المزيد. مثل كل المســلمين حديثاً، بــدأت من آخر القرآن، مع السور القصيرة في جزء عمّ، وهو الجزء الثلاثون من القرآن. أتذكر أنني كنت أســتقل القطار إلى العمل، أقرأ الكلمات العربية بصــوتٍ مسموع من كتابــي الأخضــر الصــغير، وأردد الكلمات مــراراً وتكراراً؛ حتى أســتطيع تلاوتها في صلواتي. وهكذا فيما كان آخرون يستمعون إلى أجهزة تسجيلهم أو يقــرؤون أكــثر الروايات رواجاً، كنت أتلو الآيات لنفســي، ويجد صــوتي الغنائي السلوان في تدفق أمواج كلام الله.

يوماً ما، كنت في إحدى أكبر المكتبات الإسلامية في شرقي لندن أبحث عن كتب، أشــرطة وأشياء إســلامية أخرى. ببطء، فيما كنت أشق طريقي

بين سـجاجيد الصلاة، أعواد تنظيف الأسنان (المسواك) وزيوت البخور، انتبهت إلى شريط كان يمكن سماعه في الخلفية. كان شريطاً بعنوان حياة النبي. توقفت للإصـغاء إليه فيما كان يسـرد خطبـة وداع النبي ﷺ عن صون حقوق المرأة، المساواة بين الأعراق المختلفة والالتزام الراسخ بطاعة الله، وبقيت كلماته تؤثر بي حتى يومنا هذا. ذرفت الدموع من عينيّ وسالت علـى وجنتـيّ فيما كنت أسـرع إلى خارج المـكان؛ لأجلب النقود وأشـتري الشريط. كان الأمر كما لو أنني أدركت، خلال لحظة، جمال الإيمان الذي كنـت آنذاك جزءاً منه. فكّرت أنه إذا اسـتطعنا، فقط اسـتطعنا، تحويل تلك الكلمات إلى أفعال، كم سـيكون ذلك جميلاً! كانت حلاوة ذلك اليوم الممزوجة بالمرارة، عندما شـعرت بالقوة الرائعة في الإسـلام، ستلازمني لوقت طويل.

سُنّة النبي ﷺ

أقوال، أفعال وموافقة النبي ﷺ تشـكّل ما يدعى سُنّة النبي. المسلمون مقيّدون بأحكامها، والحديث هو ما صدر عنه من أقوال وأفعال.

كانـت معرفة علـم الحديث شـيئاً آخر زاد من حبـي وتقديري للدين. في صـيف إحدى السنوات، نظّم المسجد حلقة دراسـية مدّتها سبعة أيام، درَّس فيها بعض من أفضـل طلبة العالم في الدراسـات الإسلامية. هناك، مرتاحـون من الأطفـال والهموم الأخـرى، تلقينا دورة مكثّفـة عن العلوم الإسـلامية المتنوعة، وكانت إحداها علم الحديث. ولم يكن باسـتطاعتهم انتقاء كلمة أفضل!

عرفـت أن الأحاديث قد رواها أصـحاب النبـي ﷺ وانتقلت من جيل إلى آخـر شـفاهاً. ترتبط تلك الروايات بسلاسـل نقل، كل شـخص فيها

مسمّى ومعروف. مثلاً، يقول ناقل الحديث: «سمعت من فلان، عن فلان، عن فلان، عن أبي بكر عن النبي ﷺ أنه قال: كذا وكذا». يتم تصنيف الحديث وفقاً لمستوى صحته: صحيح، حسن، ضعيف وموضوع. أذهلني نظام التحقّق هذا في البداية. لا يمكنني أن أشرح كم كنت مطمئنة وواثقة عندما فهمت التصنيفات المختلفة! كدت حينها أكتب قصيدة حول ذلك! عرفت أنه إذا كانت سلسلة النقل ـ الإسناد ـ تفتقر إلى شخص واحد فقط، فلم يُعد الحديث صحيحاً. كانت تلك هي الحالة في حال وجود شخصيات غير جديرة بالثقة في السلسلة، أو لم يكن هناك صلة مؤكدة بين الرواة فيما يخص الزمان والمكان، أو كانت الكلمات لا تتوافق مع ما هو معروف عن الدين أو طريقة النبي ﷺ في الكلام. بالفعل، كان أي شيء آخر قد يلقي بظلال الشك على صحة الحديث سيمنع تصنيفه ضمن خانة الصحيح ويدفع به إلى خانة الضعيف أو الموضوع، خاصةً إذا كان هناك أشخاص معروفون بكذبهم في السلسلة.

تأثرت للغاية بالطريقة العلمية التي درس وصنّف بها الطلبة في الماضي والحاضر الحديث. ربما يبدو ذلك غريباً لأي شخص لم يختبره بنفسه، لكن تلك كانت لمحة عن عمق الدراسات الإسلامية وقد تأثرنا كثيراً بما عرفناه. زادت هذه الطريقة المتكلّفة والإسلامية تماماً في البحث من ثقتنا وعزّزت الإيمان في داخلنا.

بالنسبة لي، لم يكن ذلك سوى دليل آخر على جمال الإسلام، فيما يخصني، كان الإسناد، سلسلة النقل المدوّنة بحرص، مؤسسة فريدة للأمة الإسلامية. كان ذلك يعني أيضاً أنه ينبغي أخذ الأحاديث الصحيحة، مثل تلك المذكورة في صحيح البخاري وصحيح مسلم، على محمل الجد، وغالباً ما كانت تشكل الأساس للعديد من نقاشاتنا في ذلك الوقت.

«لقد أحببت قراءة الحديث واكتشاف كل الأشياء التي لم أكن أعرفها عن الإسلام والصحابة. والنبي ﷺ أيضاً، كيف كان مع أصدقائه وعائلته، وكان الأمر لطيفاً ومؤثراً للغاية. هناك الكثير من التاريخ فيه» كلير.

أيام مليئة بالعبادة

إحدى العلامات المميزة الأخرى لتلك الأيام الباكرة كانت إقامة شعائر عبادة مختلفة. كانت إحداها الصلاة، الركن الثاني في الإسلام. المسلمون مطالبون في القرآن بإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم:

﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء: 103]».

بدأت الصلاة عندما كنت في غينيا، حيث كان اليوم نفسه يحسب بدعوات المؤذن، التي تنساب فوق أسطح المنازل والشوارع المزدحمة. في كوناكري، يوجد مسجد في كل زاوية تقريباً لهذا كان من السهولة بمكان التوقف عما يقوم به المرء أو إيقاف السيارة ووضع الوشاح والصلاة.

مرة، عندما كنت في ساحة التايمز، وسط الازدحام المحموم، شاهدت مسلماً يصلي، محاطاً بفوضى نيويورك. كان ذلك منظراً شديد الروعة، وأثر بي حقاً» سارة.

عودة إلى لندن، في الجامعة، كنا إما نذهب إلى مصلى الطلاب في اتحاد الطلبة أو نجد قاعة دراسية فارغة ونصلي هناك، ونسجد على معاطفنا. كان وقت صلاة الظهر ضيقاً، خاصةً خلال الشتاء عندما لم يكن يفصلها سوى ساعتين فقط عن العصر، كان لدينا غالباً محاضرات

أو دروس وقت الصلاة. تطلب مني الأمر بعض الوقت حتى تعودت على إقامة الصلوات الخمس كل يوم، لكني واظبت على الأمر ووصلت إلى مرحلة أخذت أصلي فيها بانتظام، وأقرأ بلهفة السوَر الجديدة التي كنت أتعلمها طيلة الوقت. قالت لي شريفة التي أسلمت حديثاً، وكانت ما تزال جديدة على الدين آنذاك: «أردت حقاً أن أتعلم كيفية الصلاة بالعربية ـ وأن أصلي كما ينبغي ، وكيف أتوضأ ـ وما زال الأمر مثيراً بالنسبة لي. حتى عندما أصلي الآن، يتملكني إحساس لم أشعر به من قبل، وأشعر بالطمأنينة بعد الصلاة، كما لو أنني تخلصت من الكثير من الهموم».

بالنسبة لبعض الأخوات، كانت الصلاة أحد الأشياء الأولى التي ضربت جذورها عميقاً في قلوبهن، ومهدت الطريق لما تبقى من إسلامهن.

أخبرتني كلير، مثلاً، قصة قيامها بالصلاة والسبب وراء ذلك: «عندما تخرّجت شقيقتي، خرجت مع صديقاتي وتناولت حبة نشوة. بدأت أرتعش وأشعر بالحر حقاً. كنت مريضة، كما لو أن رأسي على وشك الانفجار، كما لو أن دماغي على وشك الخروج عبر جنبات رأسي. كنت أحاول المحافظة على هدوئي، وأقول: «أرجوك، دع هذا ينتهي، دع هذا ينتهي ... يا ألله، إن أنقذتني من هذا، فلن أفعله مجدداً». وهكذا عدت إلى المنزل بسيارة أجرة وبقيت مريضة طيلة الليل. ثم، عندما كانت الشمس تبزغ، نظرت في أرجاء الغرفة بحثاً عن شيء أغطي به رأسي، وصلّيت. وحافظت على الصلاة منذ ذلك اليوم.

تابعت تقول: «برغم أن التزامي بكل شيء آخر ربما كان بطيئاً، إلا أنني حالما بدأت الصلاة، لم أتوقف أبداً».

بالنسبة لسارة، كانت الصلاة شيئاً أستغرق وقتاً حتى ينمو داخلها: «لم أشعر بتآلف فوري مع الصلاة. أدّيتها بشكل اعتيادي؛ لأنني كنت أعرف أنه ينبغي عليّ ذلك. لكن، دون أن أدرك ذلك حتى، تطوّر حبي وحاجتي لها. أتذكر أنه خلال رحلاتي، كنت بعيدة تماماً عن المسلمين والطريقة الإسلامية في الحياة لكني كنت أبذل قصارى جهدي للمحافظة على الصلاة، للمحافظة على شيء من الدين. كانت مثل حبل السلامة، والصلة الوحيد لي مع الله».

نما حبي للإسلام خلال صيامي في أجواء غرب إفريقية الرطبة، محاطة بآخرين كانوا يصومون أيضاً. كان أول رمضان قضيته في لندن رائعاً، وإن كان مختلفاً جداً عنه في غينيا. لأكون صادقة، جعلني «متشوقة جداً» لتقاليد الصيام وطقوسه في كوناكري. على أي حال، للصيام في لندن سحره الخاص: ساندرا، حنّا وأنا، إضافة إلى صديقاتنا، كنا نصوم معاً. لم يكن ذلك يعني الكثير حقاً خلال النهار، عندما يكون لدينا محاضرات ودروس نحضرها، لكن بعد صلاة العصر، عندما يصبح وقتنا ملكاً لنا، نبدأ بعدّ الساعات والدقائق حتى يحين موعد الإفطار، وهي الوجبة التي يتم تناولها عند انتهاء الصيام مع غروب الشمس. في ذلك الوقت، كان الإفطار نحو الساعة الرابعة وكنا نشق طريقنا بلهفة نحو مصلى الطلاب، حيث يتم تقديم التمور والماء. آه، مذاق الحلو ذاك بعد جوع يوم بطوله: رائع. طعم الماء البارد بعد العطش: بديع.

كانت أوقات مثل تلك هي التي توحي لي بحكمة الصيام: كان التدريب الجسدي والروحي بالابتعاد عن الطعام والشراب، خاصةً عندما يكون كل شخص آخر في الحرم الجامعي يأكل شطائر البطاطا والتونا المعتادة من

حولـك، يمدك بالقوة. ذكّرني ذلك أيضـاً بوجود أشـخاص لا يتوافر لهم الطعـام كل يوم، وعلّمني بأن أكون ممتنة لحصـولي على الطعام، بعد أن اختبرت بنفسـي آلام الجوع المزعجة. إنها تجربة تدفع بالمرء إلى أقصـى حدود التواضع، وهي تشجع الصائم على التفكير بأولئك الأقل حظاً وشكر الله علـى نعمة الطعام. أعرف أنني شـعرت بذلك حينهـا، وقد أوحت لي الطمأنينـة التي نزلت علينا جميعاً عندما جهّزنا أنفسـنا لصـلاة المغرب بأن الآخرين كانوا يشعرون بذلك أيضاً.

«كنت أسـتطيع حقاً اسـتيعاب فكرة «الامتناع» بمجملها. اعتقدت أننا نحتاج لمعرفة شعور الامتناع عن الطعام والشراب لزمن محدد، بحيث نستطيع الإحساس بأولئك المحرومين وأن نقدّر ما لدينا أكثر» سارة.

بعـد ذلـك، كنا نصـلي المغرب، إحدى الصـلوات المفضـلة لـدي؛ لأن التـلاوة فيهـا تكون بصـوت مسـموع. كان هنـاك بعض الأخـوات اللواتي يقرأن القرآن بصـوت جميل حقاً وكنت أخشع في الصلاة وعيناي مبللتان بالدموع امتناناً؛ لأنني أنهيت يوماً آخر من الصـيام. وبعد الصـلاة، كان يحـين وقت تنـاول الطعام. كان الكثير من الطـلاب يجلبون معهم الطعام ليشـاركوه، مـع الآخرين، وكان الأمر يتحول أحيانـاً إلى وليمة حقيقية! في أيـام أخرى، كنا نسـير إلى «منطقة» محال الدجاج، وهي جزء من شـارع رئيس مكتظ بمحال الدجاج ورقائق البطاطا (المدهش أنها جميعها تحمل الاسم نفسه!)، ونشتري دجاجاً دسماً، لكن آه، لذيذ الطعم، والمشوي على طريقة أهل الجنوب؛ لنأكله في الحرم الجامعي.

أحياناً، كنا نلتقي جميعاً في غرفة سـاندرا، وكانت تقوم بتحضير وجبة شـهية لنا على الطريقة الكاريبية! لكننا أمضـينا بعضـاً من أفضل أوقات

الإفطار في المساجد حول العاصمة، حيث كانوا يقدمون مائدة للمصلين والزوّار. كانت إحدى مزايا زيارة مساجد مختلفة وقت الإفطار، والمعروفة أيضاً باسم «التنقل بين المساجد»، الالتقاء بعدد كبير من المسلمين من خلفيات مختلفة تماماً، باكستانيين، بنغاليين، مغاربة، جزائريين، صوماليين، نيجيريين، كاريبيين، إنكليز وأيرلنديين اعتنقوا الإسلام. لم أتعب أبداً من سماع كيف اعتنقت أخوات مختلفات الإسلام، ومع كل حكاية، كان إيماني يتضاعف عشرات المرات. رمضان وقت خاص لكل المسلمين الذين يستفيدون منه للخشوع فيه، لكن أول رمضان يقضيه المرء لا مثيل له.

شاطرتني سارة بمشاعرها حول رمضان: «أحببت الصيام. كنت بحالة نفسية رائعة آنذاك! أحببت الاستيقاظ باكراً في الصباح فيما كان الظلام لا يزال مخيماً؛ والتعود على ذلك النظام في الاستيقاظ وتناول شيء ما فيما باقي العالم نائم، ومعرفة أنكِ جاهزة للقيام بشيء مميز حقاً في أثناء النهار وأن هناك مسلمين في كل أرجاء العالم يفعلون الشيء نفسه: تضامن صامت».

متعة أخرى كانت تعلّم العربية التي كانت بالنسبة للكثيرين أولى محاولاتهم الجدّية لتعلم لغة أجنبية. بوصفها اللغة التي نزل بها القرآن، واللغة التي انتقلت بها الدراسات الإسلامية تقليدياً، فإن العربية حجر الزاوية في الإرث الإسلامي. يتلهف الكثير من معتنقي الإسلام والعائدين إليه لتعلمها؛ حتى يستطيعوا التفاعل مع النصوص الإسلامية بأنفسهم، دون الحاجة لترجمات غير دقيقة تحاول، دون جدوى، نقل جوهر الأصل.

شارة الانتماء

يستحق الحجاب ذكراً خاصاً بسبب مركزيته في كيفية رؤيتنا لأنفسنا نحن المسلمات حديثاً. ولأن ستر النفس واجب ديني وعبادة، تكلمت مع عدد لا يحصى من الأخوات اللواتي يقسن قوة دينهن، ومستوى إيمانهن وتكيّفهن الروحي بحجابهن.

«كنت أعتقد دائماً أن النساء اللواتي يرتدين الحجاب جميلات، وكنت أحترمهن حقاً. لم أطق صبراً لأكون مثلهن» ناديا.

بعد العودة من لندن والنطق بالشهادة، كنت محظوظة؛ لأنني وجدت وظيفة عاملة استقبال وإدارة في مركز اجتماعي في فوريست غيت، في الطرف الشرقي من لندن. كان ذلك العمل مناسباً لي؛ لأنه كان مسائياً بعد محاضراتي الجامعية ويسمح لي بالتعرف على الكثير من الناس، وهو شيء استمتعت به حقاً. أيضاً، بسبب المنطقة متعددة الثقافات التي كنا فيها والموقف المنفتح الذهن للإدارة، لم أواجه مشكلات بما يخص الصلاة في العمل أو ارتداء غطاء الرأس. كان الدخل المنتظم شيئاً ملائماً أيضاً، بالطبع. أحببت أيضاً تنوع السكان في المنطقة ـ تتمتع دائرة نيوهام الانتخابية في لندن عامة بتنوع سكاني كبير ـ إنكليز، آسيويون، أفارقة، كاريبيون ومهاجرون من كل طيف يختلطون في شوارعها الرئيسة ومناطق تسوقها، مما يشكل حالةً فريدة تماماً. تدرّجت من استعمال أغطية الرأس الملونة إلى أوشحة صغيرة، إلى قطع أطول من القماش، إلى العباءة الشبيهة بملابس التخرج، ثم إلى الحجاب (الثوب الخارجي الكبير المعروف أحياناً باسم البرقع) والنقاب (خمار الوجه)، وبرغم ذلك لم يكترث المسؤولون عني ودعموني في كل مرحلة.

كان الحجاب مثل شارة الانتماء، شيء جديد كنا نستكشفه، نجرّبه ونجعله خاصاً بنا. في ذلك الوقت، كنت مثل تاجر قماش حقيقي، أبحث أولاً عن أقمشة سميكة قوية تصلح لأن تكون غطاء رأس جيد، ثم عن أقمشة أخف وأرق تصلح لأن تكون أفضل حجاب. أصبحت المحال في شارع غرين (الأخضر) مقصدي المفضل للحصول على الأقمشة. كان هناك دائماً تنوع كبير وكانت الأسعار منافسة جداً. لم يكن أحد يستطيع النقاش مع سعر 1.50 جنيه للياردة.

بالنسبة للكثيرات منا، كان ارتداء الحجاب يجعلنا نشعر بأننا مختلفات تماماً عمّا كنا عليه. ترافق ذلك بازدياد في معنوياتي وقوة في هويتي بوصفي مسلمة.

«عندما خرجت من المنزل مرتدية الحجاب، شعرت بأنني جميلة في عيون الله. شعرت بالحماية والوقاية شعرت كأن شخصاً يحرسني» ناديا.

رفاق في الرحلة

«كلما تكون هناك [في المسجد]، يساعدك أحدهم في سورة، أو دعاء كان الجميع يساعدون بعضهم بعضاً بتعلّم دينهم. كان الجو مشجعاً ومفيداً للغاية؛ لأن الجميع كانوا في القارب نفسه» أم محمد.

بعد النطق بالشهادة، كنت محاطةً بمجموعة متماسكة من أشخاص آخرين اعتنقوا الإسلام (كانت صديقتي ساندرا واحدة منهم) و«عائدين»، كانت إحداهن صديقة ساندرا المصرية حنّا. وانطلقنا جميعنا في هذه

الرحلة الأكثر إمتاعاً معاً. أصبحنا مقرّبات كثيراً في ذلك الوقت، وعندما لم يكن لدينا محاضرات، كنا نقضي معظم الوقت معاً. في كل أمسية تقريباً دون استثناء، كنت أغادر شقتي في البناء الشاهق الذي أقطنه وأسير في الشارع الرئيس إلى غرفة ساندرا في السكن الجامعي. أتذكر المزاج الطيب الذي كنت أشعر به عندها! كنت أقرع الجرس، وكانت ساندرا، التي تعرف أنها أنا، تأتي إلى البوابة وتسمح لي بالدخول. مرتدية تنورتها الطويلة وقميصها الفضفاض وتضع غطاء رأس الذي تربطه بإحكام آنذاك حول رأسها، كانت تقف عند البوابة، بابتسامتها العريضة، وتصرخ: «السلام عليكم، أيتها الفتاة الصغيرة».

متخذة موقفاً مشابهاً، كنت أرد: «وعليكم السلام، أيتها الطفلة الحلوة».

كانت تسأل: «هل أنتِ بخير؟»، وكنت أجيب: «الحمد لله، أنا بخير».

كان يحين بعدها وقت دخول «المنطقة». كانت «المنطقة» المساحة الخاصة بنا التي تناولنا بها أشهى طعام (لم يكن علينا الكدح مثل الطلاب في أثناء وجودنا في «مطبخ ساندرا»، كما أطلقنا على غرفتها الجامعية)، ودخلنا في مناقشات حماسية وجدال حاد حول الإسلام وكل خصائصه، وبقينا مستيقظات حتى ساعات الصباح الأولى، نصلي صلاة الفجر قبل أن نستلقي على أسرّة مؤقتة ونحن نضع نصب أعيننا أن لدينا ما نقوم به بحلول الساعة العاشرة صباحاً.

حتى في أوقات العطلة، كنا برغم ذلك نبقى معاً، ننتقل غالباً عبر لندن لحضور خطب إسلامية، وفي رمضان كنا نحاول تأدية صلاة التراويح (الصلاة الطويلة التي تتم كل ليلة خلال ذلك الشهر) في مسجد مختلف

كل مســاء. عندما تقدمنا في الدين، شـجّعنا بعضـنـا في محاولاتنا الأولى لارتداء الحجاب، وتبادلنا النصــح حول الأقمشة التي يمكن صناعة أخف وأفضل العباءات منها. تكلمنا حول كل شيء: ماضينا، عائلاتنا، الحجاب، القرآن، النبي محمد ﷺ وأي شــيء آخر خطــر ببالنا. كان ذلك القُرب، الناتج عن تجربة مشــتركة، قوياً. بـدا لي في ذلك الوقت أننا كنا نعيش في فقاعة حيث الدين مركز حياتنا، وكل شــيء يدور حول ذلك، وفقط أولئك الذين كانوا داخل الفقاعة يمكنهم فهم ذلك حقاً.

«تشــعرين بأنــكِ جزء من شــيء مــا، أنكِ جــزء من الأمــة [الأمة الإسلامية] الآن وأن لك مكانتك. تشتركين بشيء أكبر ـ عبادة الله ـ وأنكم جميعاً تفعلون ذلك معاً» صفوة.

بعض الأخوات، مثل كلير وعالية، اعتنقن الدين مع أزواجهن ومنح ذلك علاقاتهم عمقاً جديداً. ســألت عالية عن علاقتها مع أحمد عندما أصبح كلاهما مســلماً. قالت لي: «كانــت علاقتنا في ذلك الوقــت جيدة. عندما أنظر إلى الخلف، أعتقد أن ذلك كان بالتأكيد أفضــل وقت في زواجي، كنا سعيدين جداً، وقانعين للغاية. قرّبنا ذلك بالتأكيد، اشتركنا بالكثير».

وصــفت كلير لي أســلوب حياتها الإســلامي الجديد مع غاريث: «أسهم امتلاكنا لشــقة معاً في تثبيت هويتنا الإسلامية، وعلاقتنا الإسلامية بحق. كانت مكاننا الخاص، ولم يكن هناك حرج حول ما ستعتقده صديقاتي اللواتي يهتممن بالمظاهر. كان لدينا رف من الكتب الإســلامية، ومكان نصلي فيه دائماً ... تعلمنا الكثير معاً وكنا نبذل جهدنا حقاً لامتلاك المعرفة بأشــياء معينــة. كنا نجلس معاً كثيراً ونقرأ صــحيح البخــاري أو مجموعة الأربعين حديث، وكنا نقرأ القرآن كل يوم، كان ذلك لطيفاً حقاً».

وجدت بعضنا أنفسهن في مجتمعات متنوعة، تمتلئ العديد منها بأخوات اعتنقن الإسلام. على طول الطريق، التقينا بعض الأشخاص المميزين حقاً الذين استمر تأثيرهم علينا حتى بعد أن تابعنا رحلتنا.

أخبرتني جميلة عن نموذجيها القياديين الرائعين بوصفها مسلمة جديدة: «كان العيش في منزل آسيا وسراج بالتأكيد أفضل جزء [في حياتي بوصفي مسلمة حديثاً] كان المنزل مليئاً بالدين، صباحاً، ظهراً ومساءً. خلال النهار، كان المنزل يمتلئ بالأخوات والإخوة والقرآن، وكان هناك وفرة في الطعام، وتأخذ ما تريد منه، كان منزلاً مفتوحاً حقاً، كانت كل غاية منزلهما نشر الإسلام وتعليمه، ومعظم الناس الذين أعرفهم الآن منذ سنوات، التقيتهم هناك. كان هناك أشخاص يملكون دائماً وقتاً للجميع: كان وقتهم ملكاً لكل شخص آخر. لم أشاهد شخصين مثلهما أبداً. كانا مثل والدين لي، كما لو أنهما حلا محل عائلتي».

تتذكر أم محمد، أيضاً، سراج وآسيا، ووصفت لي التأثير الذي أحدثه موتهما، واحداً تلو الآخر بفاصل قصير من الزمن، على تلك الجماعة الصغيرة.

«عندما تُوفيت آسيا، كان ذلك صفعة للجماعة. أعتقد أن الجميع تأثر بذلك لتسعة شهور على الأقل. كانت واحدة من أولى حالات الوفاة في مجموعتنا وطالت شخصاً نعرفه، نحبه ونحترمه جميعنا. عندما توفي زوجها، بعد سنة أو نحو ذلك، كانت تلك صفعة أخرى. كانت تلك أول مرة نختبر فيها الموت من وجهة نظر إسلامية، وأن تلك كانت بداية الحياة الآخرة لهما.

غالباً ما كنت أسـمع أخوات أخريات يتكلمن عن آسيا بوصفها شخصاً بالغ الأهمية في تعلّمهن وإحساسـهن بالانتماء بوصـفهن مسلمات حديثاً. كن يتحدثن عنها بشغف واحترام.

في عملي، كنت ألتقي دائماً بأشخاص من كل أنحاء العالم؛ لأنهم كانوا يأتون إلى الكلية للتسـجيل في صـفوف اللغة الإنكليزية. كنت أشـعر بأنني محظوظـة، لأنني ألتقي وأتبادل أطراف الحديث مع الكثير من الناس من خلفيـات مختلفة، وكان لقاء عدد كبير من المسـلمين موضـع تقدير خاص بالنسبة لي. بعد أن نطقت بالشهادة آنذاك، شعرت بأنني على صلة مؤكدة مع الباكستانيين، والبنغال، والجزائريين، والصوماليين، والألبان والغرب الإفريقيـين الذين كنت أراهم بانتظام، أتذكـر أن وجهي كان يتألق فرحاً كلما سـألني أحدهم إن كنت مسـلمة؟ كان ينتابني شعور طيب عندما أرد بالإيجاب وكلي ثقة بالنفس. وينبغي علي القول: إن المسلمين، على العموم، كانـوا ودودين معـي وكنا نسـعد دائماً بتبادل تحية السـلام الإسـلامية: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

لم نعد ننضـم فقط إلى أفراد من عرقنـا، عمرنا، طبقتنا الاجتماعية أو أندادنا الفكريين كانت المعتقدات التي نشـترك فيها مع إخوتنا المسلمين تفوق كل تلك الحسابات أهمية وتحطم الكثير من الحواجز.

وصفت آسيا الأمر بالقول: «كان هناك ذلك الود الرائع من الجميع، لم أشـعر بأن ذلك مزيف أو أي شيء من هذا القبيل. كنتن مسلمات فحسب، وتؤمـنّ بما يؤمن به الجميع. هل تعرفون فيلم مالكولم إكس عندما تحدث عن ذهابه إلى «العمرة مع كل الناس، بغض النظر عن ألوانهم»؟ كان ذلك

ما يبدو عليه الأمر بالنسـبة لي حينها. حالما يلتقون أحداً ما، كانوا يمدّون أياديهم ويعانقونه، ولم يكن ذلك شيئاً يحصل حقاً قبل الإسلام».

بالنسبة لي، كان الأمر رائعاً: كانت هناك الكثير من الأخوات، وكن شابات، وكن صـينيات، سوداوات، بيضـاوات، آسيويات، جميعهن معاً، وقد أسـعدني ذلك حقاً. كانت جميعهـن جديدات على الدين ومتحمسات جداً. أصابتني التجربة بأكملها بالذهول» رابية.

قبل الإسلام، لم يكن لدي وقت للأعراق الأخرى، ووجدت نفسي آنذاك أقترب أكثر من العرب، الآسيويين، البيض وكل أنواع الأعراق المختلطة، كما فعلت الكثيرات منا. تخليت عن الكثير من أفكاري المناصرة للسود، وأصبح كرهي الشديد للزواج المختلط الأعراق شيئاً من الماضي. كان العدد الكبير مـن حالات الـزواج بين أعراق مختلفـة تعرفت عليها تباعـاً، مذهلاً. كنا نتنافس أحياناً لتحديد حالة الزواج الأكثر اسـتبعاداً: هل سيكون نيجيرياً ومصـرية، أيرلندياً وعربية، جزائرياً وجامايكية، صومالياً وباكستانية أم صـينياً وغانية؟ لكن كان هناك دائمـاً أمثلة على الزواج مختلط الثقافات أكثر مما نستطيع تحديده.

كان الانتمـاء إلى مجتمع إسـلامي جزءاً ثميناً مـن تجربتنا الجديدة. أحياناً، كان ذلك المجتمع هو كل ما يملكه المرء؛ لأن العائلات والأصـدقاء لم يفهموا أو يقبلوا طريقة عيشنا الجديدة. خفّف من الوحدة والعزلة التي كنا نشعر بها دفء العائلة الجديدة التي وجدناها ـ العائلة الإسلامية.

حياة جديدة بالكامل

طيلة قرون، في كل مكان وزمان، كانت البشرية تطرح أسئلة حول معنى الحياة. وحتى عندما يحقق المرء كل أحلامه ويحصل على كل ما يتمناه في

مجتمعنا الذي يتميز بالإشباع الفوري لحاجات الفرد والبحبوحة المادية، هناك دائماً ذلك الشعور المزعج والسؤال المتكرر: هل هذا كل شيء؟ يبدو الأمر كما لو أن روح الإنسان عميقةٌ جداً، بحيث لا يستطيع مقدار كبير من الأوقات الجيدة والمتعة مَلأَها بشكل كامل أبداً. لهذا، أحياناً، يصرخ الرجل ـ أو المرأة ـ الذي لديه «كل شيء» وحيداً في الليل يائساً أو ينشد الراحة على الوسادة، أو في قارورة من المسحوق الأبيض الناعم، أو أي شيء لإخماد ذلك التعطّش النهم لشيء ذي مغزى، شيء حقيقي.

> «جعلتني عبادة الله أشعر بأنني وجدت ما كنت أبحث عنه. اكتشفت أن لدي وجهة أقصدها لم تكن موجودة من قبل. قبل أن أدخل الدين، لم يكن لي وجهة مهما كانت، وكنت أستيقظ في الصباح وأشعر بإحباط شديد لا يمكن تصديقه» عزيزة.

لكننا وجدنا شيئاً يجعل لكل لحظة استيقاظ معنى، شيئاً جعل حياتنا هادفة وذات مغزى. كان بعض منا سعداء؛ لأنهم تركوا الانقياد الأعمى لأهواء المجتمع.

بطريقة ما، اتخذنا موقفاً قوياً جداً ضد الثقافة السائدة. قلنا: «لا، لن أعيش حياتي وفقاً لشروطك وإملاءاتك. لن أخسر نفسي في مسرّاتك وتسليتك. لن أرتدي ملابسي وفقاً لأزيائك. أنا مسلمة وأعبد الله، وليس فوغ (مجلة أزياء) أو صنداي تايمز».

أخبرتني سارة: «عندما بدأت أستر نفسي بادئ ذي بدء، قالت لي إحدى صديقاتي في الجامعة: «لا يمكنني أن أقول لك كم أحترمك لما اخترت القيام به». أعتقد أنها رأتنا شابات، إناثاً، مؤهلات، وينتظرنا

الكثـير أمامنا كان العالم محارتنا. وبطريقة ما، كنـت أتحول كلياً وأقول: «ليس هذا ما أريده».

> بالنسـبة لي، حقيقة أنكِ لم تكوني تخضـعين لمجتمع، حقيقة أنكِ لا تقومـين بأشـياء يقوم بها جميـع ما عداك؛ لأنهـم يقومون بها وحسب كان يمنحني شـعوراً طيباً. خاصةً الاقتراب من السادسة عشـرة، الذهـاب إلى الجامعة وعـدم القيام بما يفعلـه جميع ما عـداك، عدم ارتداء الملابس التي يرتديها كل ما سـواكِ، والقيام بما يمليه الدين، خالصـاً لوجه الله، كان يمنحني شـعوراً حقيقياً بالإثارة...» بيغوم.

بالنسـبة للكثـيرات منا، كانت الأيام، الأسـابيع والشـهور التي أعقبت النطق بالشـهادة أفضل أوقاتنا. كان كل شـيء جديداً ومثيراً. كان هناك الكثير لنتعلّمه، نستكشـفه ونكتشـفه. كانت بداية رحلة ملحمية نحو باقي حياتنا، ولم يكن يرافق تفاؤلنا، الذي يشـبه تفاؤلنا أيام الشباب، إحباط، خيبـة أمـل أو يأس. بعـد أن فتحنا البـاب إلى منزل الكنـز، كنا متلهفات لإسعاد أنفسنا بين عجائبه، وفعلنا ذلك، بعقولنا، وأجسادنا وأرواحنا.

༄

4

كونك مسلمة حديثاً ـ المشكلات والتحدّيات

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: 2].

غالباً ما يكون اعتناق الإسلام تجربة إيجابية، منعشة وحتى مبهجة. كما أظهرت الفصول الماضية، تشعرين بأنكِ شخص جديد فهم للتو «مغزى الأمر كله». هناك الكثير مما يمكن تعلّمه، إذا كنت مثل كثيرين ممن اختبروا الإسلام حديثاً، وتمتلئين شغفاً لمعرفة المزيد والمزيد عن الدين، والإيمان الذي اعتنقته. ويأتي مع هذه المعرفة الجديدة طريقة جديدة في الحياة: صديقات جديدات، ملابس جديدة، أنواع جديدة من التسلية، طموحات جديدة ونظرة جديدة على الحياة. يجد بعضهم هذا الانتقال سلساً تماماً. على أي حال، اعتناق الإسلام بالنسبة لمعظم النساء يتضمن أيضاً مواجهة العديد من التحدّيات. الأمر شبيه بانقلاب عالمك رأساً إلى عقب، وهو كذلك بطريقة ما. لا تعود الأمور كما كانت في السابق، وهناك مجموعة جديدة من القيم، الأولويات، الولاءات التي قد يكون التأقلم معها مؤلماً.

قيم العائلة

غالباً ما تكون أكثر الأشياء صعوبة في التعامل معها بوصفك مسلمة حديثاً هي رد فعل العائلة. نادراً ما يكون إيجابياً. مرة، في المرحلة التي

وضــعت فيها غطاء الرأس، تكلمت إلى عمّتي حول التغييرات التي أدخلتها على أسلوب حياتي. بحلول ذلك الوقت لم أكن أتناول حينها لحم الخنزير، لم أكن أشــرب الكحــول أو أخرج إلى النوادي. كنت قد تعودت أيضــاً على الصلاة، بطريقتي الخاصة، في غرفة المعيشة المظلمة في الطابق السادس عشــر من شــقتنا الواقعة في برج ســكني كبــير. وجدت أن من الضــروري التواصــل مع الرب (الذي كنت أعتقد أنه الكائن الأســمى) بانتظام، فيما كنــت أستكشــف جانبي الروحــي، جانبي الــذي كان، حتى تلــك اللحظة، غير مكتمل بتاتاً. بالنســبة لي، كان كافيــاً أنني بدأت «تنظيف» حياتي. لم أكــن أنــوي أبداً الالتزام تماماً بأي معتقد، ليس حتى بالإســلام. برغم أن نمط الحياة الذي يعيشــه المســلمون كان مقنعاً بالنسبة لي في ذلك الوقت بتشديده على الانضباط الذاتي وإغلاق أبواب الإغواء، إلا أنني لم أفكر في الواقع باعتناق الإســلام رسمياً. كان لدى عمتي تحفّظاتها وكانت متشككة تماماً، لكنها كانت تصغي باهتمام. لكن عندما سمع والدي الإشاعة ضمن العائلة بأنني أصبح أكثر اهتماماً بالإسلام، اتصل بي من الخارج وأستطيع القول: إنه كان منزعجاً. ألقيت اللوم على نفسي؛ لأنني ذكرت أي شيء لأي شــخص في عائلتي كان ينبغي أن أعرف أن الأنباء ســتعرف طريقها إليه، وإن كان بشكل مختلف عبر جدّتي.

لم يضــع والدي أي وقت في الســؤال عمّا يجري: «ما هذا الذي ســمعته عن اعتناقك الإســلام؟». ضحكت حينها فحســب، وأكّدت له أنني لا أريد في الواقع أن أصبح مسلمة، وأنني «أقوم ببعض الأشياء الإسلامية». وكنت أقول الحقيقة. لم أكن أريد أن أصبح مسلمة، برغم أنه كان عليّ الاعتراف بأنهــا تبــدو طريقة «جيدة» جــداً وآمنة للعيش. لم يكن والــدي يراها على

ذلك النحو. بوصفه ملحداً يقرّ بذلك بنفسه، أعتقد أنه كان يأمل بأني سأتجنّب التورط في أي معتقد ديني. في الواقع، قال: إنه يعتقد أنه عمل على تربيتي بشكل أفضل من ذلك، وأنني أصبحت شابة مستقلة، حرة ومفعمة بالحيوية، لكنني أعمل على إذلال روحي بالخضوع لإله متخيل. لغاية يومنا هذا، أعتقد أنني سمعت دموعاً في صوته وما زال يحزنني التفكير في ألمه.

قلت في محاولة لطمأنته: «أبي، ليس الأمر أنني أصبحت من «شهود يهوه» أو شيئاً من هذا القبيل!». غني عن القول إن ذلك لم يطمئنه على الإطلاق. بالنسبة له، لا بد أن تلك كانت مثل صفعة على الوجه: كنت أدير ظهري لمستقبل لامع وكل الآمال التي كان يضعها على عاتقي، وأرفض كل ما هو عزيز عليه ولا بد أن ذلك آلمه، تماماً كما آلمني أن أخيب أمله.

لم يكن رد فعل والدي غير اعتيادي بكل المعايير.

شاطرت ياسمين تجربتها معي.

«في البداية، اعتقدت عائلتي أن تلك مجرد دعابة كبيرة. آه، إنها مجرد مرحلة تمر بها، وستكون شيئاً مختلفاً في الأسبوع القادم». ثم كانت: «كيف تجرأت على تغيير دينك؟». ثم كانت التعليقات الماكرة حول التحول إلى امرأة رثة المظهر والثياب، وأن الرب ينظر إلى القلب وليس إلى الملابس. لم أكن أرتدي العباءة [القماش الفضفاض الشبيه بالفستان الذي يتم ارتداؤه فوق الملابس اليومية]. لكني كنت قد بدأت أرتدي ملابس مريحة حقاً، ملابس فضفاضة ... أتذكر شقيقي ـ الذي أصبح مسلماً أيضاً ـ

يقول لي: «أمي تقول إنها لا تريد المزيد من المسلمين في المنزل»، لهذا قلت: «حسناً، سأنتقل منه». لقد كنت في التاسعة عشرة».

«قبل اعتناق الدين، كانت حياتي قد بدأت تتغير على أي حال. كنت قد توقفت عن التدخين، توقفت عن الشرب، توقفت عن فاحش القول، توقفت عن كل تلك الأنواع من الأشياء. لهذا كانت حياتي تتخذ مسارةً مختلفاً، ولم أدرك أي مسار تأخذ حتى جاءني الإسلام وفكّرت: «هذا ما كان الله يعدّه لي» عزيزة.

في حالتي، بدا أن تحوّلي حدث فجأة دون سابق إنذار. لم يكن أسلوب حياتي الجامعية يسمح لي بإجراء اتصالات منتظمة مع عائلتي بسبب مزيج من قضايا المال والوقت ـ العيش بوصفي طالباً وراء البحار في لندن لا يمنحك الكثير من الحرية في ذلك المجال. نتيجة لذلك، لم يكن أفراد عائلتي مطّلعين أبداً على المقاربات الفكرية أو التجارب التي قادتني لاختيار الإسلام بوصفه أسلوب حياة ـ لم يشاهدوا أبداً التغيير التدريجي، ليس مدهشاً، ربما، في عائلة تضم يهوداً (خالتي وعائلتها)، نصارى (أسلافي الأسكتلنديين)، أتباع ديانة إفريقية تقليدية (عائلتي من الزولو) وملحدين (والدي) ألا يكون الدين المادة المفضلة للحديث. وهكذا، لم يسألني أحد مطلقاً لماذا قرّرت أن أغيّر حياتي؟ وعمّا أؤمن به آنذاك، وعمّا إن كنت سعيدة. لم يخضع الموضوع للنقاش أبداً. بالطبع، كانت هناك «قضايا» تخضع للنقاش ـ دور النساء في الإسلام، الحجاب، أفغانستان، فلسطين ـ لكن ليس الأشياء التي كانت تشكل حافزاً لي، المعتقدات التي كنت قد أعتنقتها. ربما كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لتتأقلم عائلتي مع هذه المسلمة التي كانت مختلفة جداً عن الفتاة التي

كانــوا يعرفونها. وحتى مع ذلك، اســتطاعوا بمحبتهــم وقبولهم لي تجاوز صدمتهم وهواجسهم الأولى، وغالباً ما كنت أشعر وقت اعتناقي للإسلام أنني معزولة جداً ولا أحد يفهمني.

تحطم فؤاد والد مي عندما أخبرته أخيراً أنها أصبحت مسلمة.

قالت لي: «لم أقل لوالديّ إنني أصــبحت مسلمة إلا بعد سنة من نطقي الشــهادة. برغم أننــي لم أكن أرتدي الحجاب، إلا أننــي عندما عدت إلى المنــزل من الجامعة، عرف والداي أنني مختلفة عمّا اعتادا عليه. ســألني والدي يوماً ما: «هل أنتِ سعيدة؟ ما خطبك؟ لماذا أنتِ حزينة جداً؟».

قلت: «لا شيء، لست حزينة. أنا بخير».

وقال: «لا، قولي لي. لديك شيء تخبرينني إياه، لقد تغير شيء ما».

وهكذا قلت: «أنا مســلمة». وانتابته نوبة غضب عارم. لقد تألم وانزعج كثيراً – لم يســتطع تصــديقي. لكني شــعرت براحة كبــيرة. لم أكن أحب الكذب على والديّ – كان ذلك يجعلني أشــعر بالســوء. لكني كنت ســعيدة آنــذاك. فكّرت، لقد أخبرتهما الآن، وانتهــى الأمر. كنت أعرف أنه ينبغي القيــام بما ينبغــي القيام به. كنت أعرف أنني إذا لم أنطق الشــهادة، ولم أصــبح مســلمة، فســيكون الأمر أســوأ. كان الأمر لله الأولوية على والديّ. حاولت تغيير ذلك لكني لم أســتطع. كان الرب في قلبي منذ كنت صــغيرة إذا تم انتزاع ذلك مني، فإن ذلك يعني انتزاع حياتي مني».

أردت أن أعرف كيف استطاعت العيش في المنزل بعد ذلك.

«كان هناك اضطراب في ذلك المنزل، كان الأمر كابوساً. كانا يعرفان أنني أصلي حينها، وكان والدي يجعل الصلاة أمراً صعباً جداً. كنت أحتفظ بحجابي في حقيبتي، وقد وجده والدي ورماه في سلة المهملات، ورمى بها بعيداً».

وخلال ذلك الوقت، عرض والداها بيع ممتلكاتهما والانتقال بعيداً إلى حيث لا يعرفهم أحد؛ حتى تستطيع التخلي عن الإسلام دون أن تفقد ماء وجهها. عرضا عليها المال، الحب، وكل ما أرادته، «لكني لم ألمسه؛ لأنني كنت أعرف أنه رشوة. لم أكن أستطيع الصلاة، لم أكن أستطيع ممارسة شعائر الإسلام، شعرت بأنني في حالة يرثى لها ولم أكن سعيدة، كان الأمر بأكمله غير مريح إطلاقاً.

«في النهاية، أصبح الوضع سيئاً للغاية، وقلت لأمي: إنني سأغادر المنزل. وقد وافقت. كنت قد حزمت حقائبي واصطحبني شقيقي إلى المحطة، وكان ذلك ما حدث: لقد غادرت. كان يوماً حزيناً جداً. لكن قبل أن أغادر، قال لي والدي: «هل تعتقدين أنكِ إذا أنجبت أطفالاً فإننا سنقبل بك؟ لا، لن أقبل بكِ، حتى مع الأطفال، ولن أنسى ذلك أبداً».

كانت ردة فعل والدتي وشقيقتي مختلفة عن والدي. عندما جاءت شقيقتي الصغرى لرؤيتي لدى عقد زواجي المدني، كانت مندهشة تماماً من التغيير الذي طرأ عليّ، وخاصةً على مظهري. أين كان الحاجبان المنتوفان، التبرّج الكامل، تسريحة الشعر الأنيقة والملابس الضيقة التي تعرفها؟ نظرت إلى الأسفل على قدميّ وهزّت رأسها. كنت أرتدي خفّين لا يظهران سوى أصابع القدمين مع جوارب، جوارب بيضاء.

«قالــت: «آيش»، وهي كلمــة زيمبابوية تدل على عدم التصــديق، «لقد حطّمت كل القواعد الآن».

لكنها لم تنتقدني. طرحت أسئلة حول كل شيء، وكنت سعيدة لإجابتها، وآمل، كما يفعل كل معتنقي الإسلام، بأن ترى جمال الإسلام وصدقه وتفكّر في اعتناقه أيضــاً. أعتقد أن أحد أصعب الأشياء التي ينبغي على المسلمين حديثــاً تحمّلها هــو اللامبالاة، الازدراء أو حتى كراهيــة عائلاتهم للدين. أصبح المنزل ساحة معركة يمكن أن يتعرض فيه الولاء لاختبار قاسٍ.

أعتقد أن والدتي كانت، أكثر من أي شخص آخر، سعيدة؛ لأنني «وجدت الرب». بعد عودتها إلى الكنيســة بنفســها، أعتقد أنها كانت مرتاحة؛ لأنه برغــم نشــأتنا في بيئة إلحاديــة، إلا أنني تعرّفت على مــولاي وكنت أعيش حياتي لأعبده. كانت تفهم، أكثر من أي فرد آخر في العائلة، البعد الروحي لاعتناقي الإسلام.

لكن لا تســلم حتى النســاء من خلفيات إســلامية من ضــغوط العائلة. لم يكــن جيلي مــن الأخوات اللواتي عُدن إلى دين ولادتهن يردن ممارســة الإســلام وفقاً للتقاليد، والثقافة أو توقعات المجتمع، وإنما أردن الإســلام النقي، الإســلام الحقيقي، إســلاماً خالياً من التأثيرات الثقافية والبدع. كنت أتفاجأ دائماً، بوصــفي شخصــاً نشــأ على احــترام ثقافته الإفريقية كثيراً، عندما أجد آسيويات مسلمات، باكستانيات وبنغاليات، يسخرن من ثقافتهــن. لكني فهمت لاحقاً أنه عندما يتم، غالبــاً، خلط الثقافة بالدين وتغليفهــا بالحماســة الدينية فإن ذلك يقود إلى مثل تلــك البدع مثل زواج

الإكراه، قتل الشـرف وختان البنات التي تُنسـب كلهـا على غير وجه حقاً، غالباً، إن لم يكن دائماً، إلى الإسلام.

> عندما كنت في الثانية عشـرة، كان هناك الكثير من الصعاب؛ لأنه لم يكن يوجد، في ذلك الوقت، الكثير من المسـلمين الملتزمين. لهذا [عندما بدأنا نلتزم الإسـلام النقي] أثرنا بشكل أساسي استغراب المجتمع، والعائلة، والأقرباء والأصدقاء، الجميع فيما يخص الدين. بالنسبة لهم، كان ذلك ديناً جديداً اكتشفناه» بيغوم.

بالفعـل، في العديـد من المجتمعات، لا يكون الحد الفاصـل بين الثقافة التقليدية والإسـلام واضـحاً أبداً. يـؤدي ذلك إلى نشـوء قواعد ثقافية غالبـاً ما تكون لصـالح جنـس، طبقة اجتماعيـة أو مجموعة اقتصـادية واحدة، والتي يتم الحفاظ عليها وتعزيزها على حساب المبادئ الإسلامية الحقيقية عادة. لن أنسـى أبداً الدعوة التي تم توجيهها لي لتحضـير حنّة العرسـ لشـابة بنغالية شـمال لندن. في الثقافـة البنغاليـة، ليلة ميهندي (الحنّة) مناسـبة كبيرة لكل العائلة، ذكوراً وإناثاً، الذين يجتمعون لتناول الطعام، والمشـاركة في النشـاط الاجتماعي وتحية العروس. وضـع الحنّة نفسها جزء ثانوي للغاية من الأمر كله. كما اكتشفت لاحقاً! كانت العروس متوترة للغاية، تضـحك أحياناً بشكل مبالغ فيه مع شقيقاتها وصديقاتها، وتحـزن وتتجهـم أو تكاد تذرف الدمـوع في أحيان أخرى. فعلنا أفضـل ما بوسـعنا لتهدئـة أعصـابها فيما كانت تحـاول جعل ثوب السـاري الأحمر المتقن الصـنع يستر بطنها؛ لأن «أمي ستثير مشكلة». تخيلوا رعبي عندما اكتشـفت أنها مخطوبة لابن أفضل أصـدقاء والدها الراحل، وهو شاب لا تعرفه ولا ترغب الزواج منه. لم أسـتطع أن أتخيل ما سـتكون عليه الحال

في ليلة زفافها، وحيدة مع رجل لا تريده، وقد لا تميل إليه، وتتوق ربما إلى شخص تحبه لكنها لا تستطيع الزواج منه. لم تكن حقيقة أن زواجها مدبّر بتلك الطريقة هي ما أزعجني. مثل معظم أخواتي، كان زواجي «مدبّراً» (المزيد عن ذلك لاحقاً). لكن ما أزعجني كان حقيقة أنه تم تجريد هذه الشابة من كل الحقوق التي تتمتع بها بموجب الإسلام وإخضاعها لمطالب الثقافة البنغالية: حق رؤية ولقاء طالب يدها، رفضه إذا لم يرق لها عاطفياً وجسدياً وحق قبوله أو رفضه دونما سبب على الإطلاق... كاد ذلك يحطم قلبي. لكن ماذا كنت أتوقع؟ برغم أنها ولدت ونشأت مثل المسلمين، إلا أن عائلتها لم تكن تلتزم حقاً بتعاليم الإيمان، ولم تستطع سوى إبداء الإعجاب بالطريقة التي نتعامل بها ومساعدتي اليافعة في تحضير الحنّة، شادية، مع بعضنا بود واحترام، وكيف نتبادل دائماً تحية السلام (السلام عليكم)، وكيف نذكر دائماً لفظ الجلالة الله، والطريقة التي نستر بها أنفسنا وأخلاقنا بشكل عام.

بلورت تلك الأمسية، التي انتهت باستدعاء الشرطة للتعامل مع مشكلة تسبب بها شقيق «أصغر» كان يسيء معاملة والدته وشقيقته، رفضي للتعامل مع الثقافة التقليدية على أنها شيء لا يمكن انتهاكه. لسوء الحظ، حتى في الغرب، الحقيقة المرّة أن أولئك الذين يرفضون مثل تلك المعتقدات الثقافية أو يدعون إلى تعديلها وتغييرها - في حالات متطرفة - يدفعون حياتهم ثمناً لذلك.

أسلوب حياة مختلف

اعتناق الإسلام في مرحلة الشباب يعني غالباً أن تصبحي منبوذة اجتماعياً، خاصةً إذا كنت تحاولين فعلاً العيش وفقاً لقانون الإسلام،

الشـريعة. إنـه يعنـي أن «تتأهبـي للغاية» عندما تسـتعد صـديقاتك غير المسـلمات للذهاب إلى حفلة، حانة أو نادي. ويشكّل حتى المكان الذي يبدو هادئـاً مثل المطعم تحدّيات لا يمكـن تذليلها تقريباً. هل سـيكون الرجال والنسـاء معاً هناك؟ هل يقدمون الكحول؟ هل سـيكون اللحم حلالاً؟ هل ستكون الموسيقى صـادحة، وهل سيرغب الجميع في الرقص؟ هل سأشعر بالغرابـة؛ لأنتـي أرتدي الحجاب؟ هل سـأعرض دينـي للخطر؟ هذه هي الأسئلة التي تسيطر على أي مناسبة اجتماعية، خصوصاً في حضور عائلة وأصدقاء غير مسلمين.

أتذكـر مـرة أنني رافقـت زميلتي في السـكن عفوة إلى منـزل أقاربها للاحتفاء بمولودها الجديد، وأنني شـعرت بالإحراج والانزعاج. كان ذلك بعد الظهر وقت صـلاة العصـر. وجدت لنفسـي زاوية صغيرة في الجانب الآخـر من المنزل المكتظ بالناس لمد سـجادتي والصـلاة. لكن، فيما كنت أهم بالركوع، شعرت بجسد يمر بجانبي وتسمّرت في مكاني. انتابني القلق من وجود شـخص يقف على الدرج خلفي واحمرّ وجهي خجلاً. لم أسـتطع التركيز على صلاتي بعد ذلك. اكتشفت أيضاً أن الجميع ينظرون إلي كما لو أنني جئت للتو من كوكب آخر؛ لأنني كنت أرتدي الحجاب. كنت الغريبة بينهم، التي لم تنسجم مع الباقين والتي كانت مختلفة.

> «لاحظـت أن الناس كانوا يبتعدون عني؛ لأنني لم أكن أتكلم مثلهم، ولم أكـن أهتم بما يفعلونه، لأننـي لم أكن مثلهم. لأنني كنت أحاول الالتزام بالدين، وكنت مملة بالنسبة لهم» صادقة.

في النهايـة، أصـبح الخروج مع صـديقاتي غير المسـلمات أمـراً نادر الحـدوث وبدأت أقضـي المزيد والمزيد من الوقت في «مطبخ سـاندرا»، مع

مسلمات كن، مثلي، إما قد اعتنقن الإيمان أو «عُدن» إليه. أثار ذلك، بحد ذاته، نزاعات خاصة؛ لأن صديقاتي القديمات اعتقدن أنني كنت أتغير، وأبتعد عنهن. لكن ماذا عساي أفعل؟ كنت أريد الانغماس في هذا الإيمان الجديد الذي كان ينكشف أمام ناظري. كان هناك الكثير من الموضوعات التي ينبغي مناقشتها، الأسئلة التي ينبغي طرحها، الكثير من المواقف التي ينبغي إعادة النظر فيها وكنت مشغولة للغاية بكل ذلك.

> عندما اعتنقت الدين، لم تكن ممارسة شعائره قراراً واعياً. كان الأمر كما لو أنني استيقظت يوماً ما وقد تغير قلبي، لم أكن أبحث عن أي شيء، لكن الله كان قد اختار أن يهديني. ولأن الأمر حدث بسرعة كبيرة، كنت وحيدة تماماً؛ لأنه كان عليّ الانقطاع عن الجميع. كانت عائلتي قد تخلت عني، عاطفياً ومادياً، وكانت كل صديقاتي غير مسلمات. شعرت كما لو أنني ولدت من جديد، لكن كان عليّ البدء بكل شيء من العدم: إيجاد مجتمع جديد، العثور على صديقات جديدات، ملابس جديدة ... وكنت وحيدة للغاية. لم يكن لدي أحد، لم يكن لدي شيء، وما كان يجعلني أتماسك هو الله، لا شيء سواه» غانية.

كان على سارة الاختيار بين الالتزام بتعاليم دينها والمشاركة في مسابقات كرة السلة، وهو النشاط الذي كانت تحبه حباً جماً.

قالت لي: «كانت الرياضة أحد الأشياء التي لم أكن أتخيل التخلي عنها. لقد مارست كرة السلة منذ كنت في الرابعة عشرة ولطالما كانت جزءاً كبيراً من حياتي فهي تجعل لياقتي عالية وتريحني من التوترات.

لقد أحببت الجانب الاجتماعي فيها أيضاً. لم أكن أتخيل محو ذلك الجزء من حياتي. لكن، الحمد لله، تلاشى ذلك الشغف، وحل مكانه بطريقة ما الشغف بالمشي في المنتزهات، والحقول وأي مكان.

«وفيما كنت أصبح روحياً أكثر إدراكاً، بدأت أقدّر كل شيء: المطر، السماء، الأشجار، كل أنواع الظلال المختلفة، كل الأشياء التي وهبنا إياها الله».

إضافة إلى الجانب الاجتماعي، ليس غريباً على صديقات من اعتنقن الإسلام أن يكون لديهن هواجس أخرى أيضاً. بالمحصلة، كن قد اختبرن الحلو والمر معاً، اشتركن في تسريحات الشعر نفسها، والقيام بأعمال طائشة ووضع تبرّج متكلّف. إنها الفتاة التي نامت في منزلهن، وتسللن معها خارجه، وكذبن على أهلهن للتغطية على أفعالها، ورافقنها إلى النوادي الليلية حيث رقصن حتى آخر الليل، وارتدين معها أحذية عالية الكعب كن قد اقترضنها. إنها مسلمة، إنها تستر نفسها، إنها لا تشرب، لا تلفظ فاحش القول، وليست مهتمة بالرجال، هل يمكن أن تكون قد تغيرت إلى ذلك الحد؟ وما هو، أو ما الذي، قد تغيرت إليه؟

> بعد أن بدأت أستر نفسي، قضيت بعض الوقت مع صديقة في الرياضة من الجوار. كنا نتبادل أطراف الحديث عندما قالت فجأة: «أنتِ كما كنت! تقولين الدعابات نفسها وكل شيء!». كانت مندهشة حقاً» سارة.

كونكِ خائفةً، أو حتى تتخيلين، ازدراء صديقاتك لك أمر مخزٍ. لكن كيف تقنعين صديقة قديمة لكِ بروعة طريقتك الجديدة وجمالها في العيش

عندمـا تنظر إليك بشـفقة وربما تفكر، فتاة مسـكينة، انظرن إليها. لماذا كان عليها فعل ذلك وخسارة نفسها بتلك الطريقة؟

«شـعرت بالإحباط فعلاً بشـأن ذلك، خاصـةً عندما كنت أشـاهد أشخاصـاً من المنطقة التي نشـأت بها. كانوا ينظرون إلي من أعلى رأسـي إلى أخمص قدمي ويقولون: «ماذا، أنت؟ أصـبحت مسلمة، أنت؟» زبيدة.

لن أنسـى أبداً الإحراج الذي شـعرت به عندما التقيت صديقة قديمة من المدرسـة في صـبيحة يوم مشمس في محطة شرق لندن لقطار الأنفاق. كنت أنا وإياها صديقتي حفلات في المدرسة، ولم أكن قد رأيتها منذ سنتنا الجامعية الأولى. بالنسـبة لها، كانت رؤيتها لي للمرة الأولى منذ سـنوات أضـع حجاباً أسـود وأرتدي عبـاءة مع وجهي الخالي مـن التبرج الكثيف، والتعب بادٍ على وجهي من النهوض باكراً، شـيئاً أكثر مما يمكنني تحمّله. لم أكـن أريـد لذلك أن يصـل إلى «بـرق الأدغال» وأن يسـمع أصـدقائي القدامى في زيمبابوي كيف أصـبحت حالتي مزرية أفتقر للأناقة ومختلفة جـداً عن الفتـاة التي كانوا يعرفونهـا. كان يمكن أن يكـون ذلك نابعاً من شـعوري الخاص بعدم الأمان، لكني كرهت لقاء أي شـخص من الجاهلية لوقت طويل بعد ذلك. وبرغم أنكِ تعرفين أن ما تقومين به هو الصواب وما تؤمنين به هو الحق، إلا أن الشعور بأنني موضع ازدراء وسخرية كان لاذعاً بشـكل لا مثيل له. لم يكن هناك طريقة أسـتطيع من خلالها الوصـول إلى كل الذين يعرفونني وأن أشرح لهم كيف أو لماذا شعرت بأنني أحب اعتناق الإسـلام، لهذا تراجعت بشكل ما. شـعرت بأقصى درجات الراحة عندما كنت أوجد حول أولئك الذين لا يحتاجون إلى تفسيرات ـ أو تبريرات.

أخبرتني كلير كيف انسحبت تدريجياً من صديقاتها، خائفة من انتقاداتهن وغير واثقة من قدرتها على الارتقاء إلى مستوى شهادتها.

قالت: «لم أتكلم حقاً مع صديقاتي عن المكان الذي كنت أجيء منه. يعود سبب ذلك جزئياً إلى أنني كنت أعرف أنهن سيعتقدن أنني أصبحت مسلمة بسبب غاريث، لأنه كان الشخص الذي يخبرني عن الإسلام. كان صعباً بما يكفي بالنسبة لي أن أتكلم عن ذلك دون أن أشرح للآخرين أنه، نعم، يعود ذلك في جزء منه له، لكنه لم ولن يكون أبداً بسببه وحده. كنت خائفة من رأيهن بي، وكنت خائفة من تثبيت ذلك الخلاف مع الجميع، تحسباً فقط من عدم وصولي إلى المستوى المنشود بنفسي. شككت بقدرتي على اعتناق أشياء معينة. أصبحت بعيدة تماماً عن كل صديقاتي. لم أخبرهن حقاً الكثير عن الأمر؛ لأنني شعرت بأن ذلك هو السبيل الذي أريد سلوكه. لم أفكّر حقاً أنني أستطيع القيام بذلك بأي طريقة أخرى».

مجال آخر للنزاع بالنسبة لي والعديد من الأخوات اللواتي تكلمت معهن كان «الاختلاط»، وهو التعبير الذي غالباً ما يستعمله المسلمون لوصف الوضع الذي يختلط فيه رجال ونساء، ليسوا محارم، اجتماعياً. ضمن وحدة العائلة، العلاقات مباحة بين الرجال والنساء الذين يكونون إما متزوجين أو بينهم صلات قربى ولا يستطيعون الزواج. تلك العلاقات موضّحة في القرآن في سورة النساء:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ

اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 23].

على العكس، هذا يعني أن المرأة المسلمة ليست ملزمة بارتداء اللباس الشرعي أو وضع الحجاب بحضور والدها، وأبنائها، وأشقائها، وأعمامها وأخوالها ... إلخ. يمكنها ارتداء ملابسها العادية، وضع التبرج والعطور والدخول في أحاديث ودّية مع هؤلاء الرجال الذين يُدعون المحارم.

على أي حال، العلاقات بين الرجال والنساء غير المحارم محكومة بشريعة أخلاقية تتضمن وضع الحجاب، وغض البصر (لكل من الرجال والنساء، برغم أن الرجال مطالبون بها أولاً في القرآن)، عدم خلوة رجل وامرأة معاً وحدهما، الامتناع عن أي تماس جسدي والتصرف عامةً بأسلوب حضاري محترم عندما يكون هناك تواصل. في حياتنا، يحدث هذا غالباً في سياق التعاملات التجارية، والدراسة والتسوق من ضمن أشياء أخرى. على أي حال، نبذل جهوداً كبيرة لإبقاء هذا التواصل في أدنى درجاته. يجد الكثير من غير المسلمين وحتى بعض المسلمين فكرة الفصل بين الجنسين غير طبيعية ولا يستطيعون فهمها.

عند هذه النقطة، ربما يكون مفيداً أن نتذكر أننا، بوصفنا مسلمات، نعيش وفقاً لشريعة أخلاقية مختلفة عن المجتمع الذي نحيا فيه. إنها الأخلاقيات المذكورة في القرآن التي يتعامل جزء منها مع مسألة خطيرة هي الزنا. بالنسبة للمسلمين الملتزمين، يعدّ هذا شيئاً شائناً بشكل فظيع وينبغي تفاديه مهما كلف الأمر.

أريد منكم الآن تخيل هذا السيناريو: مجموعة من الأصدقاء، رجال ونساء، يخرجون في ليلة ما معاً. ترتدي النساء ملابس مثيرة، وينتعلن أحذيتهن المخصصة للرقص. يتم تقديم الكحول ويتباهى كل الرجال بشرب كميات كبيرة منه، متلهفين لترك انطباع جيد. عندما يلتقون، يتم تبادل المعانقات والقُبل. ربما يدوم عناق بين صديقين أكثر مما هو معتاد بقليل هل هي نعومة شعرها أم العطر الذي يضعه؟ لكن ذلك لا يعني شيئاً؛ لأنهم مجرد أصدقاء. إضافة إلى ذلك، كلاهما متزوج منذ مدة طويلة ويحب ويحترم شريكه كثيراً. ينعش المزاح اللطيف مزاج الجميع ويكون هناك انجذاب بينهم. تقوم إحدى النساء، المفعمة بالحيوية والظُرف، بما يمليه عليها الرجال الآخرون. يحب الرجال ذلك، خاصةً صديقها الصالح، إنه يحب أن يتبادل معها أطراف الحديث فحسب: إنها تمثّل تحدياً كبيراً بالنسبة له، بخلاف شريكته التي لا تبدو مثيرة للاهتمام مقارنة بها. يبقى أخيراً كلاهما، يتناقشان وحدهما.

يراقب كل شخص آخر حديثهما فيما الشرر يتطاير. تغوص صديقته في مقعدها، محرجة وخجلة؛ لأنها لم تستطع لفت انتباهه بتلك الطريقة. يشعر صديقها بعدم كفاءته، لم تظهر تلك الشرارة في عينيها أبداً عندما كانا يتبادلان أطراف الحديث. وهكذا تستمر الأمسية، الجميع يرقص مع الجميع، وتعصف الكحول بالعقول وتسيطر الغرائز. ما الذي سيحدث في نهاية الأمسية؟ هل ستبكي صديقته في السيارة في طريق العودة إلى المنزل غاضبة؛ لأنه تجاهلها من أجل امرأة أخرى، لا حول لها في مواجهة إنكاره للأمر؟ هل سيدعوها صديقها «الغانية الصغيرة» ويصفعها على وجهها غاضباً منها؛ لأنها جعلته يبدو أضحوكة؟ أو ربما لن يحدث شيء، لا شيء غير اعتيادي. ربما ستكون مجرد أمسية عادية. أو ربما لا تكون.

هذا مجرد سيناريو واحد، وقد يبدو للكثيرين أنه ليس أكثر من تفاعل طبيعي ودّي بين الجنسين. على أي حال، في أحيان كثيرة، يتم زرع بذور الشهوة حيث يوجد رجال ونساء. تموت بعض البذور قبل أن ينتج عنها جذور، وينتج عن أخرى براعم قبل أن تختفي أيضاً؛ وتنمو أخرى إلى أزهار كاملة.

تعرف وسائل الإعلام هذا الأمر جيداً أيضاً. في عدد لا يحصى من الأفلام، والروايات، والأغاني والقصائد، يتم استكشاف واستغلال موضوع الزنا. أعتقد أنه سيكون عادلاً القول: إن لغة الزنا وصورته جزء من مجتمعنا، سواءٌ أحببنا ذلك أم لا، ووسائل الإعلام واسعة الانتشار لا تدينها ولا تحذّر منها أيضاً. بدلاً من ذلك، تتباهى بالفعل والأشخاص الذين يقعون فيه: رجل السيدات، محطم القلوب، دون جوان، مغوي النساء، من هم بالمحصلة سوى سلسلة من الزناة، لأكون فظّة؟ حقيقة أنه لا يوجد ذلك العدد من تعبيرات الإعجاب الخاصة بالنساء اللواتي يقمن علاقات جنسية مع شركاء متعددين تدل على الطريقة التي يعمل بها مجتمعنا، حتى في هذه الحقبة من المساواة بين الجنسين.

على أي حال، بالنسبة للمسلمين، لا يحظى الزنا بصورة زاهية على الإطلاق: إنه من الكبائر وينبغي تفادي أو تقييد أي شيء ربما يقود إليه، وهذا يتضمن «الاختلاط».

لكن كيف يمكن لمسلمة حديثاً، كانت تختلط بالجنس الآخر طيلة حياتها، أن تتأقلم مع هذا الانفصال عن حبيبها القديم وأصدقائها الذكور؟ مسألة «الاختلاط» لم تكن صعبة بوجه خاص بالنسبة لي، ليس لأنه لم يكن هناك

شباب مقرّبون لي، لكن لأنني أقدّر السبب الكامن وراء ذلك. كنت قد رأيت بنفسي عواقب تلك البيئات المختلطة، وشهدت الألم الذي مرّت به صديقة نتيجة خيانة أفضل أصدقائها، والاضطراب الذي تسببه بيانات الحب الأفلاطونية المفاجئة غير المرحّب بها من قبل الأصدقاء. لهذا كنت أقدّر سلامة البقاء بعيداً عن تلك الأوضاع مجتمعة.

على أي حال، لم تجد أي امرأة أخرى الأمر بتلك السهولة.

قالت لي ياسمين: «كان الأمر صعباً؛ لأن معظم أصدقائي كانوا ذكوراً. بدأت بعد مدة من الوقت أبتعد عنهم وكانوا ما زالوا يحاولون التشبث بي، وكان ذلك صعباً مع أولئك الذين كانوا مقرّبين لي. مع الصديقات، كنت سعيدة للتخلص منهم!».

وجدت سعاد، المولودة لعائلة صومالية مسلمة، الالتزام صعباً جداً فيما يخص الاختلاط وضغوط العائلة. عبّرت عن ذلك أمامي عندما قالت: «كان صعباً القول لكل أصدقائي الشباب المسلمين: «آه، لا يمكنني التحدث معكم بعد الآن. هذا حرام، لا يمكنني القيام بذلك». وانقطعت عن الجميع، ذكوراً وإناثاً، أي شخص كنت أعتقد أنه سيؤثر علي بالتأكيد. لم أتكلم معهم هاتفياً بعد ذلك، وانقطعت تماماً عنهم. لكني لم أستطع الانقطاع عن شقيقتي، الشقيقة التي عاشت في المنزل نفسه مثلي، والتي كانت تقول باستمرار: «أنتِ متشددة للغاية. لا أفهم سبب قيامك بذلك». كنت أستطيع صد أولئك الذين لم يكونوا من العائلة، لكن عندما تكون شقيقتك وأبناء عمومتك الذين يكونون في حالتك مثل الصقور، لا يمكنك الابتعاد عنهم قيد أنملة».

كان علــى أخوات أخريات التعامل مع أحباب أو شــركاء غير مســلمين عندمــا دخلن في الدين. كان بعضــهم أحباباً من المدرســة الثانوية، وبقي آخــرون متزوجين لســنوات عديدة، لكن اعتناق الإســلام كان يعني اتخاذ قرارات بالغة الصــعوبة. لا تســتطيع النســاء المســلمات الزواج ســوى من رجال مسلمين كما يقول القرآن:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُــنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: 10].

لأنهــن لم يرغبن «بالعيش في الخطيئــة»، كان هذا الحكم يعني أن على النســاء الاختيار بين شركائهن وإســلامهن، كان ذلك خياراً بسيطاً برغم صعوبته: ينبغي أن يحل الدين أولاً.

ربما يبدو هذا خياراً مستحيلاً، خاصةً إذا كانت العلاقة موضع البحث جيــدة. لكن هناك طريقة لفهمها: تخيلي أن تكوني مدمنة على الكحول أو لفائف التبغ، وقرّرت الإقلاع عن ذلك. من ناحية أخرى، يشــرب شــريكك كثيراً أو يدخّن بشــراهة. هل تستطيعين تخيل صعوبة أن تنأى بنفسك عن أسلوب حياة ما زال يتدفق في عروقك، وما زال يناديك ويتشبث بك؟ فيما الشــخص الذي تحبينه وتعيشــين معه ما زال يعيش وفقاً لأســلوب الحياة ذاك وكل ذلك يحدث فيها، ســيكون شبه مستحيل عليك الإقلاع عن ذلك والمحافظة على علاقتك في الوقت نفسه. هذا ما يحدث مع الإسلام. كونكِ مســلمة حديثاً، ترغبين بأن تعيشــي الحياة الإســلامية، مــن اللحظة التي تســتيقظين بها لتصــلي الفجر إلى اللحظة التي تذهبين فيها إلى الســرير

في الليـل. لكن وجود شـريك غير مسـلم يعني مواجهتك لأسـلوب حياتك القديم يومياً وتعرّضـكِ لكل اختباراته وتجاربه، فتنه، مثل اللغة السـيئة، الاختلاط، تناول الشـراب، تعاطي الممنوعات أو حتى شـمّ رائحة شطيرة لحم الخنزير. لهذا، في مواجهة هذا التناقض الصـارخ، تنفصـل الكثير من النسـاء عن شركائهن. سـألت أمّ صفوان كيف اسـتطاعت أن تتحمل عدم رؤية حبيبها الذي رافقته طيلة خمس سنوات.

كان جوابها: «منحني الله القوة، هذا كل ما يمكنني قوله! شعرت بأنني لا أسـتطيع الوجود مع كافر بعد ذلك. كان الأمر كما لو أنني أتسـاءل: ما الفائـدة من دخولي الدين؟ ربما أسـتمر في القيام بما كنـت أقوم به من قبل والتفكير بأنني مسـلمة، أضحك على نفسي فحسب». في حالتها، كان لدى حبيبها فضـول كبير بشأن دينها الذي سرق، في الواقع، حبيبته منه، ولهذا ذهب إلى المسـجد لاكتشـاف ماهية الأمر كله. أصبح لاحقاً مسلماً أيضـاً، وكذلك شـقيقته ووالدته، وهو متزوج الآن من أم صفوان ولديهما أربعة أطفال.

مظهر جديد

اقتباساً من الأخوات اللواتي تمت مقابلتهن من أجل هذا الكتاب وبناءً علـى تجربتي الخاصـة، يبقى الحجاب، دون شـك، أحد أصـعب مظاهر الإسـلام للمسـلمة حديثـاً. إنه يسـتلزم التدقيق في أشـياء كثـيرة جداً: الطريقـة التي ترين بها نفسـكِ، الطريقة التي يراك بهـا الآخرون وكيف يعاملونكِ نتيجةً لذلك. بالنسبة لبعضهم بمن فيهن أنا، كان الحجاب شيئاً جاء بشكل طبيعي للغاية، برغم أنني بدأت بوضع وشاحٍ للرأس ومضيت في

طريقي حتى غطّيت نفسي بشكل كامل. كانت أخريات يعوّدن أنفسهن في البداية بارتداء قبعة، منديل كبير أو، كما في حالة حليمة، شبكة للشعر: «كان الفصل شتاءً وبدأت أضع شبكة للشعر، هل تتذكرن الشبكة؟ لكني فكّرت بعدها، لا بأس، يصبح الجو أكثر دفئاً الآن، لا يمكنني وضع الشبكة طيلة الوقت! وهكذا ابتعت وشاحاً من كوفينت غاردن وبدأت ألفّه حول رأسي ... وبقيت على تلك الحال وقتاً طويلاً. ثم وصلت إلى مرحلة قلت فيها، لا بأس، يمكنني القيام بذلك الآن».

كان لياسمين تجربتها الخاصة في تغطية نفسها: «كانت تغطية رأسي تمثّل تحدّياً بالنسبة لي. تغطية الجسد! مهلاً، ليس أمراً مهماً. تغطية الشعر ياه! اعتدت دفع مبلغ كبير لتصفيف شعري! عندها، كان 40 جنيهاً مبلغاً كبيراً لعمل تسريحة لشعرك وتصفيفه وكنت أدفع ذلك المبلغ، وكنت أريد أن يشاهد الناس ذلك الشعر! استغرق بي الأمر نحو ستة شهور لاعتمار القبعة. لهذا انتقلت من القبعة إلى الحجاب».

هناك مقدار معين من تجنّب الظهور الذي ينبغي أن يحدث عند وضع الحجاب. الإسلام دين السلام والخضوع للخالق، وهذا التواضع شيء ينبغي أن يظهر على جسد المؤمن. جزء من هدف الحجاب هو منع المؤمنات من عرض أنفسهن، ملابسهن، أجسادهن، ولهذا السبب بالذات يكون الأمر صعباً على من اعتنقن الإسلام اللواتي، مثل عالية، كن يتبعن الأزياء والظهور بـ «مظهر حسن». كما قالت لي صراحة: «أعتقد أنني وجدت الحجاب صعباً حقاً؛ لأنني أحببت ملابسي دائماً! يعود ذلك جزئياً إلى أنني كنت آتي إلى المسجد ثم أعود إلى عائلتي غير المسلمة وأشعر بالخجل قليلاً من الحجاب. عندما وضعته، كنت أشعر بالحرّ الشديد

دائمــاً، حتى في أيام البرد القارس، كما لــو أن الجميع كانوا ينظرون إلي. ثم انتهى بي الأمر أخيراً بأن أحببته. لكن ذلك لم يحصــل مباشرة، وإنما استغرق بعض الوقت».

هكــذا، بالنســبة للكثير مــن الأخــوات، كان الحجاب يمثـل تحدّياً! أنا نفســي وجدته بشــعاً عندما رأيته أول مرة قبل ســنوات طويلة في مصــر. لكن بعد أن جرّبته فعلاً، شــعرت أنني أســتطيع التعايش معه، وفي النهاية، شعرت بالفخر حقاً لارتدائه. كانت الأثواب الخارجية الأخرى، مثل العباءة والجلبــاب قصــة مختلفة تماماً! كان لدى ياســمين الكثير مما تقوله حول الأثواب والمعاطف التي كان ينبغي ارتداؤها فوق الملابس.

«أنا آســفة، لكني كنت أعتقد أن العباءة بشــعة للغاية. فكّرت فقط، آه يا إلهي، ســأبدو مثل جدّة تركية صغيرة! آه لا، لا يمكنني فعل ذلك! أرتدي ملابس محتشمة، وثيابي فضفاضة، لا يمكنكِ رؤية شكل جسدي، كل هذا الهراء. كانت تلك قضية شــائكة. لكن عندما بدأت قراءة ودراسة المزيد، أدركــت أن ذلــك أقل ما يمكنني فعله في نهاية الأمــر. لقد هداني الله إلى الإســلام، وكان ذلك شــيئاً مهماً بالنســبة لي. لم أكن لأكشــف جسدي في المقام الأول لهذا لم أرَ ســبباً يجعل من ارتداء لباس يستر الجسد للخروج من المنزل قضــية شائكة. إن كنتِ تشعرين بالبرد، فسترتدين معطفاً عند الخــروج مــن المنزل، لهذا لمــاذا لا يمكنــكِ، في كل مرة تخرجــين بها من المنزل، ارتداء معطفكِ؟».

ينبغــي أن نؤكــد جميعنــا بأن العباءة كانت زياً شــائعاً قبــل خمس إلى عشــر سنوات مضــت، وتمثلت في فســتان عريض مع بطانة عند الكتفين،

ردنان ضيقان، وأزرار ذهبية كبيرة من الأمام. كانت حقاً الأثواب الوحيدة المتوافرة في المحال الإسلامية في كل أنحاء شرق لندن، وكنت أكرهها. بين نوبات الضحك، أوضحت كلير مشاعرها تجاه تلك العباءات: «ياه، إنها بشعة! ترتدينها وتحاولين فعلاً، تحاولين مقاومة رغباتكِ والتحلّي بالورع وتقولين: «لا، هذا ليس سيئاً كما تخيلت»، لكنه في الواقع أسوأ، لهذا الشيء طبقتان أسفل ما يظهر منه هذا مثل ثوب حمل غير مناسب!».

أقسمت إنني لن أرتدي واحدة من تلك العباءات أبداً، ولحسن الحظ، في الوقت الذي أصبحت فيه مستعدة لارتداء ثوب خارجي، كنا قد وجدنا أختاً رائعة من برادفورد تقوم بخياطة عباءات أنيقة انسيابية تبدو مثل فساتين عريضة فضفاضة، ودون بطانة مرئية عند الكتفين. كانت رؤية عباءاتها، التي كنا ندعوها جلابيب حينها، هو ما أقنعني أنه بمقدوري تغطية نفسي أكثر دون أن يبدو شكلي رثاً. لم أكن أشعر بالحاجة لأن أبدو أنيقة، مرتبة (ونصف محتشمة!) وأن أدخل في نزاع مهما كان صغيراً مع إيماني.

بالنسبة لبعض الأخوات اللواتي تكلمت معهن، كان الحجاب أمراً غريباً تماماً بكل بساطة لما كن عليه في ذلك الوقت، والحال التي كن عليها. كما شرحت حليمة لي: «كان الأمر مناقضاً تماماً لما أفعله، لشخصيتي وأسلوب حياتي. كنت في الجامعة، في السنة الثانية، وأكتشف نفسي للتو. كنت قد انتقلت بعيداً عن عائلتي، وأتصرف على سجيتي لهذا كانت مسألة التغطية مناقضة لما كنت عليه. ما شاء الله، بدأت بغطاء الرأس ثم الجسد بأكمله. كان الناس يرونني في المجتمع كما يرونني في الجامعة. تقول بعض الأخوات: «تجمّعنا عند زاوية المسجد وارتدينا كلَّ شيء». حسناً، لا يمكنني فعل ذلك، وهذا نفاق بالنسبة لي، ترونني كما أنا».

تعترف كلير، فتاة رايوت غرل السابقة، بأن « الحجاب كان صعباً جداً، ومؤلماً بالتأكيد بالنسـبة لي. اعتقدت أنني إذا قابلت شخصاً ما، مستشاراً بارعاً حقاً، فسوف يساعدني ذلك. لكن لسوء الحظ، لم أفعل. لهذا ترددت لوقت طويل. عندما بدأت ارتداء حجابي، كانت تلك مرحلة في غاية التقدم: جينز فضفاض، وشاح صغير، شيئاً فشيئاً، والآن، أحب حجابي!».

أدركت في ذلك الوقت شـيئاً مهماً: مجتمعنا يعلّمنا أن نكون مهووسـين بالمظاهـر. طالما بقي الشـخص جميلاً، رشـيقاً، ثرياً، يحـب الدعابة أو موهوباً، نكون سعداء لقبوله أو قبولها كما يبدو. لا يتم تعليمنا أبداً أن نبحث ـ أو نهتم بشأن ـ عمّا يقع تحت السطح. لهذا، قد تندب أمينة سر صديقتي موت الفتاة الممتلئة حيوية التي كانت تعرفها دون أن تفكّر حتى بشأن عدم الاسـتقرار، والغرور، والغطرسـة والاضـطراب الذي كان أيضاً جزءاً من تلك الفتاة. تبدو هذه النظرة السـطحية المضللة أكثر بروزاً بهوس المجتمع بالمشـاهير. ليس مهماً الزهو بالنفس، وتضخم الأنا، والخيلاء، والجشع، والسـطحية التي قد يكون عليها الشخص «الشهير»، وليس مهماً أن معظم مـا نراه ليس أكثر من مجرد علاقات عامة بارعة وصـور زائفة بعيدة عن الكمال يتم نشـرها لتحسين مركز أهل الشهرة. طالما أنهم يبدون جميلين ويبتسـمون لآلات التصوير، يكون كل شـيء بخير والجمهور راضياً. ونحن نهدر وقتنا، نستغرق في أحلام اليقظة، نقرأ حول كل التجهيزات، والجوائز والهدايا الباهظة الثمن التي يتبادلها هؤلاء «الأشـخاص الجميلون»، بينما يضـحكون بصـوت خافت حول أيامهم السـيئة، حالات طلاقهم، جرعات الممنوعـات المفرطة التـي يتناولونها وكل دليل آخر يثبـت لنا أنهم «مجرد بشر بالمحصلة». ربما لا يسـتحقون تخصيص مساحة خاصة بهم، لكنهم

علــى الأقــل يجمّلون تلك المســاحة! وفي هذا النطاق، لا يمكن للمســلمة أن تنافســهم: بغض النظر عن مــدى ذكائهــا، موهبتها، لطفهــا، كرمها أو صدقها، فإنها لا «تبدو كما ينبغي»، وهذا شيء لن يغفروه لها أبداً.

اكتشــفت سعاد أنها عندما بدأت الالتزام، بدأ وزنها يزداد: «كان ذلك نتيجة لتغير أســلوب حياتي وعدم الشــعور بالحاجة لارتداء أجمل الملابس آنــذاك. لم يكن هناك صــورة ينبغي الحفاظ عليها بعــد ذلك». لم تدعها عائلتها تنســى ذلك: «اعتادت عائلتي القول: «منذ بــدأت الالتزام، تركت نفســها على ســجيتها. لم تكــن العباءة مناســبة لها، وكانت هي مناســبة لهــا ...». كل هذا له تأثير ســلبي جداً على تقديرها لذاتها وجعلها تشــعر بالامتعاض نحو حجابها وعباءتها.

لكن بالنســبة لبعضهن، الحجاب ليس مشكلة بحد ذاته، إنما لأنه رمز لهوية معينة، هويةٌ واجهن مشكلة في التوافق معها. بعد أن عدت من غينيا، بقيت أرتدي وشــاح الرأس طيلة ســتة شــهور، شــعرت بالراحــة فيه: كان يغطي شــعري، ويبدو جميلاً (وكان ذلك ما يزال مهماً بالنسبة لي!)، ولم يكن «متشــدداً» كثيراً، ويتناسب مع هويتي الأفريقية. تخيلوا المفاجأة التي أصابتني عندما بدأت أخواتي اللواتي كنت أراهن غالباً في المصلّى يسألنني متى سأبدأ ارتداء «حجاب مناسب»؟. شعرت، بكل صراحة، بالإهانة. من قال: إن رؤيتهن عن الحجاب أفضــل مــن رؤيتي؟ لهذا أعلنت بكل فخر أن تلــك هي الطريقة التي نرتدي بها الحجاب في أفريقية، وأنني لن أفعل أي شــيء غير ذلك. ابتسمت الأخوات حينها بشــكل يثير الريبة، غير واثقات مما يمكنهن فعله بشــأن قوميتي السوداء التي كانت تستحوذ عليّ عندها. لكن بالنســبة لي، كان الحجــاب الذي يغطي ما يأمــر الله بتغطيته غريباً جداً، خارجاً عن المألوف تماماً، ليس أفريقياً أبداً. لم يكن يناسبني.

شـعرت كلير بالشـيء نفسـه: «لم أكن أريد ارتداء الحجـاب ولم أرتدِ الحجاب وقتاً طويلاً، وحاولت إرغام نفسـي على البقاء كما كنت من قبل، لكن روحي لم تكن سعيدة بذلك. لكن في الوقت نفسه، لم أستطع الاندماج كلياً في شيء آخر».

قضـية الهوية معقدة. كانت «الأنا القديمة» كينونة آمنة معروفة، وكنت مرتاحـة معها. كنت أتغير آنذاك وجزء مني يقاوم ذلك التغيير. دخلت في صـراع مع نفسي، وتمزّقت بين ما أعرف أنه صـحيح وما تدعوني رغباتي للقيـام بـه. لم يكن ذلك شـيئاً يحدث كل يوم، لعلمكـم، فقد كانت معظم الأيام جيدة. لكن كانت هناك أيام سيئة، أيام بدا فيها كل شـيء أكثر مما يمكن احتماله، كما لو أن الشـيء المثالي الذي كنت أسـعى إليه كان صعباً جداً وبعيداً عن متناول يدي.

الأبيـات الآتية من الشـعر دليل جيد على مشـاعري المتناقضـة في ذلك الوقت.

«أغمر نفسي بياردات وياردات من وشاح الرأس

أحاول إخفاء ألمي في الظلام.

لا أعرف متى بدأت مشاعر الخواء هذه تنتابني.

ينبغي أن أعترف

بأنه خلال العيد

بدأت مشاعر البهجة تتراجع.

وأجد نفسي الآن أبكي، متشحة بالسواد

أتضرع لاستعادة بعض مما كان لدي.

انسوا ما يقوله العلم، العالم مسطح!

يمكنني رؤيته يمتد أميالاً وأميالاً

من اللون الرمادي وغياب قاسٍ للابتسامات.

حتى عندما أكتب، وجهي جامد

أضحى صعباً مدّ هاتين الشفتين هذه الأيام.

هل هذه، بأي طريقة، جحيم اصطنعتها بنفسي؟

هل خطئي أنني لم أنتهِ من خبز نظرياتي؟

أنني لم أضبط المؤقت للسماح لروحي بالشفاء؟

أنني دفعت نفسي بقسوة كبيرة نحو شيء مثالي مستحيل؟

هذه بصراحة المشاعر التي تنتابني

وحتى معطفي البنفسجي اللامع

لا يجعل اللمعان

حقيقة».

لحسن الحظ، كانت الأوقات التي شعرت بها بالإحباط قليلة ومتباعدة؛ لأنني كنت محظوظة في اعتناق الدين مع سارة، وحنّا ومجموعتنا المقرّبة من المسلمات حديثاً والعائدات إلى الدين. كان ذلك يعني أن لدينا جميعاً قضايا متشابهة تتعلق بما ينتظرنا أمامنا وما تركناه خلفنا. لهذا، على العموم، كان لدينا دعم كبير. لم يكن لدى أخوات أخريات، على أي حال، مثل شبكة الدعم تلك. كانت بعضهن الوحيدات اللواتي عدن إلى الإيمان

في مجموعة مسلمين بالولادة، مسلمين لم يفهموا آلام حب قديم، النقر على الوتر الحسّاس وإغراءات الصيف. بالنسبة لهن، كان كفاح التكيّف مع هذه الطريقة الجديدة في الحياة سراً احتفظن به لأنفسهن. بالنسبة لأخوات أخريات، كانت سرعة التغيير كبيرة جداً: كان هناك الكثير مما ينبغي التخلّي عنه بسرعة كبيرة، والكثير مما ينبغي تطبيقه خلال وقت قصير. كان ذلك هو الموقف الذي وجدت حليمة نفسها فيه.

«عندما دخلت الدين، رأيت كيف تمارس أخوات أخريات الشعائر، وشعرت منذ البداية بأنني أتعرض للكثير من الضغوط. شعرت بأنني لست على ما يرام، لأن كل شيء في تلك الأيام كان يدور حول «لا يمكنك القيام بهذا»، «لا يمكنك القيام بذلك»، «تخلصي من كل ملابسك» ... إلخ. لهذا منذ البداية، شعرت بذلك الضغط وكدت أتراجع؛ لأنني فكّرت في قرارة نفسي أنني لا أشكك بالدين لكني أشكك ما إذا كنت أستطيع الالتزام به، وكان ذلك بعد ثلاثة شهور فقط من اعتناقي الإسلام. ثم قالت إحداهن: «لماذا تفعلين ذلك؟ لست مضطرة لذلك». وقلت لنفسي: إنني سأفعل ذلك بأسلوبي. وفعلت ذلك كله ... كان علي إيجاد طريقة خاصة بي».

عقيدة جديدة

الإسلام دين، وطريقة حياة، لأنه بالتحديد أكثر من مجرد دين. لهذا السبب يتضمن نظاماً عقديّاً واجتماعياً، واقتصادياً وسياسياً كاملاً. لكن إلى جانب كل التغييرات التي طالت نمط حياتنا عندما اعتنقت أنا وصديقاتي الإسلام، كان هناك أيضاً ثورة طالت نظام معتقداتنا الذي كان ينبغي التفكير به مليّاً. بالنسبة لكثيرات ممن كن متدينات من قبل، كانت

تلك مجرد قفزة صغيرة نحو التوحيد، الإيمان بالوحدانية في الإسلام. بالنسبة لأخريات، مثلي، بدا الأمر مثل القفز إلى القمر. بعد أن ضحكت ولهوت في أثناء حضوري صفوف تعليمي الديني في المدرسة بمرور السنين، كان عليّ أن أتكيّف فجأة مع فكرة أن الأنبياء عاشوا فعلاً، وأن القرآن وحي إلهي وكامل، وأنه تم توثيق أحاديث النبي محمد ﷺ وينبغي الالتزام بها.

أتذكر أنني وجدت صعوبة بالغة في قبول فكرة الغيب، غير المرئي، بأكملها على وجه الخصوص، ولم أفكّر، لوقت طويل، بشأن الجنّة والنار، والملائكة أو الجن. بدت قفزة الإيمان تلك بعيدة جداً بالنسبة لي في ذلك الوقت. نظراً لترعرعي في بيئة غير دينية، وجدت أن فكرة مسؤولية الشخص عن أعماله والاستجابة للرب مهيبة تماماً. استطعت من خلال زيادة معرفتي بالبراهين الفكرية والعلمية للقرآن والسنّة أن أثق، بشكل منطقي، بأن عالم الغيب للأرواح والملائكة حقيقة. يمثّل القرآن، كما قال أحد العلماء في الماضي، البشرية مع براهين منطقية على صدقه وموثوقيته، ويستطيع القارئ، بناء على تلك البراهين، قبول تلك الأشياء التي لا يمكن إثباتها. هكذا كان الأمر بالنسبة لي.

لكن حتى ذلك الوقت كان أكبر اختبار لي وللكثير من الأخوات قبول جوهر الإسلام (الخضوع). أن تكوني مسلمة معناه أن تخضعي لمشيئة الله. هذا يعني التخلي عن الأنا، والتكبّر، والغرور، وإرغام النفس على الطاعة.

كان طريق سارة الطويلة إلى ما أصبحت عليه الآن مليئة بالمقاومة: «كنت أقاوم الخضوع الكامل. كنت سعيدة بالطريقة التي أعيش بها حياتي، لطالما كنت نشيطة، ممتلئة حيوية، أحب الخروج، مشاهدة أفلام بيوت

الفن، زيارة المعارض، الذهاب إلى مطاعم راقية، وكنت أحب ملابسي ... وكان ذلك في معظمه ما أراده والدي لي ـ أن أكون خبيرة بالحياة، أتكلم لغات مختلفة، أحصل على تعليم جيد، وأتفوق في مجالي ــ ولأني كنت أحبه وأحترمه، أردت الارتقاء إلى مستوى توقعاته».

بعد قضاء حياتنا كلها نثور ضد سلطة أو شيء ما، اخترنا الخضوع للسلطة الأعلى على الإطلاق ـ الله ـ وكان ذلك مؤلماً أحياناً. كيف يمكن شرح الصراع العنيف الذي ينتابك عندما تتوقين بشدة إلى شيء يؤلم، برغم أنكِ تعرفين أنه ليس مسموحاً وممنوعاً لأسباب وجيهة؟ يقول الله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

على الرغم من أن هذه الآية تتكلم عن الجهاد الجسدي الذي أُمر به النبي ﷺ وصحابته - رضي الله عنهم - ، إلا أنه يصح أيضاً على جهاد النفس، أي الصراع مع الذات والرغبات. هذه أول معركة ينبغي أن يشنّها الجميع، المعركة التي يكافح فيها المرء ضد غرائزه وشهواته من أجل شيء أسمى، أصفى وأنقى. لم يقل أحد: إن المعركة ستكون سريعة أو إن الفوز بها سيكون سهلاً، لكنها معركة نواجهها جميعنا. لقد دخلت في كفاح مع نفسي حينها وما زلت كذلك حتى الآن، في كل يوم من حياتي، وسوف أتابع -إن شاء الله - الكفاح حتى أموت.

بالنسبة لكل من يأتي إلى الإسلام من حياة الجاهلية، سواء أكان معتنقاً أم عائداً إليه، فهناك لحظات مؤلمة وتضحيات ينبغي القيام بها.

لكن في قلوبنا جميعاً ذكرى أولئك الذين سمعوا رسالة النبي ﷺ واعتنقوا الإسـلام أولاً. نتيجـة إيمانهم برب واحد في أرض تحكمها عبادة الأوثان والقوانين القبلية التي تبجّل الأسـلاف، تم تجريد المسـلمين من أموالهم، إخراجهم من منازلهم، ضربهم، تعذيبهم وقتلهم، لكنهم لم يتراجعوا عن إيمانهم.

إحـدى القصـص التي علقت في ذهني كانت عن سـميّة - رضـي الله عنها-إحـدى صـحابيات النبي ﷺ. بعد أيـام من تعذيبهـا على الرمال الحارقة في الصحراء العربية، لقيت حتفها على يد أبي جهل الذي أغاظه رفضها الارتداد عن الإسلام فطعنها برمح في أعضائها الحسّاسة. يعدها كل المسلمين أول شـهيدة في الإسلام، وتُعد شجاعتها وقوة إيمانها مصدر إلهام لنا جميعاً.

والشـيء الذي فاجأني وأثار دهشـتي هو الإيمان الـذي لا يتزعزع لكل واحـدة من الأخـوات اللواتي تكلمت معهـن، واللواتي أكّـدن أن الأمر كان يستحق كل الألم، الدموع والحزن الذي رافقه، لن تتراجع واحدة منهن عن النطق بالشـهادة إذا عدن بالزمن إلى الوراء. إنهن مسـتعدات لخوض كل التجارب والمحن لتحقيق هدفهن: التشبث بدينهن، الاحتفاظ به قريباً من قلوبهن، وجعل جماله ينفذ إلى حياتهن، أجسـادهن وأرواحهن والحصول من ثم على رضا مولاهن ومحبته، ورؤية جمال وجهه يوماً ما.

الجزء الثاني

عيـــش الإســـلام

5

ستر جمالنا

بالأمس، كنا نمشي في الشارع، ونبدو كما تبدو معظم النساء الأخريات، مع تسريحة شعرنا الرائعة، الملابس المنتقاة بعناية لإحداث أكبر تأثير ممكن، رائحة العطر تنبعث منا في أثناء يقظتنا، الأرداف التي تتأرجح، والرؤوس التي تستدير نحونا: ملكة الشارع. ثم، في غضون أيام وأسابيع، دخل الإسلام حياتنا وغيّر كل شيء. الآن، نزور تلك الشوارع نفسها من جديد مكتسيات من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين بملابس سوداء لا يظهر منها سوى العينين. أي درب قادتنا إلى هنا؟

الخطوات الأولى

في البداية، كان ستر جسدي بغطاء الرأس وملابس فضفاضة أمراً منعشاً. كنت أريد وأحتاج لتحرير نفسي من اعتمادي على مظهري. أردت اختبار نفسي، لأكتشف ما إذا كنت أتحلّى بالشجاعة للمضي قدماً بقوة شخصيتي، حضوري وأفعالي. لم يكن ذلك قراراً اتخذته بسهولة برغم أنني في ذلك الوقت لم أكن أعرف إلى أين ستقودني تلك الرغبة المبدئية بتغطية نفسي. أفترض، بعد أن أمعنت التفكير بأسلوبي الخاص في الحياة حتى تلك اللحظة واكتشافي وجود بديل أفضل، وإن كان أكثر صعوبة، أنني ما كنت لأستطيع المضي قدماً كما كان الأمر سابقاً. كيف يمكنني أن أحقق احترامي لذاتي إذا وجدت نفسي، مرةً أخرى، أطرف برمش عيني

أو أختــار عمداً ارتداء ســروال؛ لأنــه يجعلني أبدو «فاتنة جـداً»؟ بالفعل، أتذكر أنني قلت في قرارة نفســي: «لقد نشأتِ تعتمدين على مظهرك بتلك الطريقة لوقت طويل، ما مدى الاحترام الذي تكنينه لنفسك حقاً؟». لطالما كنت أفكّر أن إطلاق الأحكام على النساء وفقاً لقياساتهن أمر غير مقبول إطلاقاً (لهذا كنت أعارض بشدة مسابقات الجمال!)، لكن ألم نكن نحن، بطريقتنا الخاصة، جزءاً من نظام كهذا؟

تمتلـك النســاء الجميـلات في كل أنحــاء العالم أفضـلية غـير عادلة وطريقــاً مفتوحــة أمام النجاح الاجتماعي: تســجيلها على قائمة ضـيوف النوادي الليلية، الحصول على الشراب المجاني، السيل المتدفق من عبارات الإعجــاب. بالطبع، بالنســبة للكثير من النســاء الشــابات اللواتي يعرفن الاســتفادة من قوتهن الأنثوية، يمكن لهذا أن يكون شديد الإثارة. تشعرين كما لو أن كل العالم عند قدميكِ، فقط إذا اســتطعتِ انتقاء أصــدقاء من «الأشــخاص المناســبين» والتسكع في «الأماكن المناســبة». لكن أ لم أشاهد تلك الفتيات أنفسهن، مراراً وتكراراً، يصيبهن الغرور، كسولات، مملات؟ كان الأمــر كما لو أنهن يعرفن آنذاك إلى أين يمكن أن يصــلن بمظهرهن وحده، وهكذا لم يعدن يشعرن بالحاجة إلى تفعيل ذكائهن، وحس دعابتهن، وطموحهن، أو أن يمتلكن شخصية وذهنية خاصة بهن!

برغم أن حالتي لم تكن بذلك التطرف، عرفت أنني كنت مستعدة لإجراء تغيير. وهكذا، في اليوم الذي أعقب عودتي من مصــر، أخذت قطعة قماش وربطتها حول رأســي. لم تكن تلك، على أي حال، المرة الأولى التي أقوم بها بذلك، كنت غالباً أرتدي وشــاحاً للرأس عند الاشــتراك في الاستعراضات الزيمبابوية التقليدية مع فرقتنا، إضــافة إلى أوقات أخرى، وخاصةً عندما

يكون شـعري «بحالـة يرثى لها»! لكـن الأمر كان مختلفـاً بطريقة ما هذه المـرة. لم أكن أضـع تلـك القطعة من القماشـ للإدلاء بتصـريح ثقافي ـ «أنا سـوداء وفخورة بذلك» ـ كنت أفعل ذلك لكبح جماح جزء معين مني، وإفساح المجال لمساحة خاصة صغيرة لنفسي، حتى إذا لم يكن سوى شعري مغطّى فقط.

هكـذا في ذلـك اليـوم، قطعـت أولى خطواتي المـترددة نحـو الغطاء. وأعترف أن ذلك كان بائساً. لم يكن أحد ينظر إلي، ولم يكن هناك إطراء أو شيء من هذا القبيل، شعرت بأنني غير مرئية تماماً. استمر ذلك نحو نصـف يوم. ثم ثار شـيء ما بداخلي. كنـت أفكّر، يا إلهـي، لا تنظروا، لا تقارنوا بيني وبين آخر صـديقاتكم، ولا تحاولوا تخمين قياسـاتي، جسدي شأني وحدي.

يتملّكني هذا الشـعور منذ ذلك الوقت. وينتاب ذلك الشعور كل النساء اللواتي يقررن تغطية أنفسهن وجعل أجسادهن أمراً خاصاً بهن.

رحلات التحوّل

تطلّـب الأمـر انقضـاء عدّة شـهور بعـد ارتداء وشـاح الرأسـ؛ حتى أفكّر في ارتداء خمار «تقليدي»، وهو الوشـاح الـذي يغطي الرأس والعنق والصـدر. أعتقد أن أحد الأسـباب كان أنني ما زلت موضـع اهتمام غير مرغوب به من الشـباب الذين اعتقدوا أنني «أخت سـوداء واعية»، وأنني «غير مرتبطة». أدركت أن أوشـحة الرأس لم تكـن تفي بالغرض المطلوب كما كنت آمل منها. لكن الشـيء الأهم، أنني وسارة أدركنا، عبر دراستنا

المعمّقة للدين، أن الحجاب واجب ديني، وجزء لا يتجزأ من خضوعنا وشكل مهم من أشكال العبادة.

«التقوى ـ الخوف والمهابة من الله ـ هي السبب في قيامك بذلك أساساً. لقد طلب منا الله أن نقوم بذلك، وهذا واجب علينا. إنه مثل تناول الطعام والشراب ...» أم صفوان.

ستر النساء المسلمات لأنفسهن مذكور في القرآن، في سورة النور:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: 31].

وفي سورة الأحزاب، يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: 59].

تذكر عائشة، زوجة النبي ﷺ والمعلمة البارزة بطريقتها الخاصة، في حديث ورد في صحيح البخاري أنه عندما سمعت نساء المدينة، الأنصار، هذه الآيات، مزّقن أوشحتهن وسترن رؤوسهن ووجوههن بها.

بالفعل، الحجاب مذكور في القرآن، والحديث ووضعته الأجيال الأولى من المسلمات. إنه ليس مجرد بقية من ثقافة بدوية تغلغلت بطريقة ما في التعاليم الإسلامية، الحجاب إسلامي.

بنــاء على هذه البراهين والكثير غيرها، عرفنا أن ملابســنا الخارجية ينبغي أن تحقق أشياء معينة. هذه الأشياء هي:

- ينبغي أن تغطي الجســم بأكمله، مــا عدا الوجه واليدين (يعد بعض رجال الدين الإسلامي أنها يجب أن تغطي الوجه).
- ينبغي ألا تكون ضيقة بحيث تظهر جسد من ترتديها.
- ينبغي ألا تكون شفافة.
- ينبغي ألا تكون زاهية الألوان.
- ينبغي ألا تكون ملابس مخصصة للرجال.
- ينبغي ألا تكون ملابس مخصصة لغير المسلمات.
- ينبغي ألا تكون ملفتة للنظر أو فاضحة.

هنــاك أيضــاً قواعــد عامة تخصــص ملابســ الرجال المســلمين. هذه القواعد هي:

- ينبغي أن تغطي المنطقة بين السُّرّة والركبة.
- ينبغي ألا تكون ضيقة في هذه المنطقة.
- ينبغي ألا تكون شفافة في هذه المنطقة.
- ينبغي ألا تكون ملابس مخصصة للنساء.
- ينبغي ألا تكون ملابس مخصصة لغير المسلمين.
- ينبغي ألا تكون ملفتة للنظر أو فاضحة.

- ينبغي ألا تكون من الحرير.
- ينبغي رفع الثوب السفلي فوق الكاحل.

إضافة إلى هذا، ليس مسموحاً للرجال التزين بالذهب، ومطلوب منهم إطلاق لحاهم، وفقاً للسُّنّة، كما فعل النبي ﷺ. النساء، من جانب آخر، مُطالبات بإزالة الشعر!

أتذكر اليوم الذي قرّرت فيه مع صديقتي سارة تجربة تلك الحجابات الأنيقة المزركشة، في غرفتها في السكن الجامعي. بحذر شديد، قمنا بتثبت قطع القماش المثلثة الشكل فوق رأسينا وجمعنا الطرفين معاً تحت ذقنينا. ربطناهما بعد ذلك بدبابيس ونظرنا بقلق إلى انعكاس صورتينا في المرآة. وهل تعرفون أن الله، لأننا أردنا البدء بارتداء الحجاب، قد جعل وجهينا يشعّان نوراً. لم نكن نبدو مضحكتين أو مزريتين أو بسيطتين، بدونا جميلتين. تذكرت حينها السيدة المصرية التي كانت قد نظّمت كل الحفل الموسيقي، وابتسمت. أطلقت كلتانا تنهيدة ارتياح كبيرة ـ «الحمد لله» ـ وذهبنا لزيارة حنّا في الطرف الآخر من السكن الجامعي، سعيدتين للغاية.

على أي حال، لم تجد كل الأخوات نزهتها الأولى بالحجاب إيجابية مثلنا. أخبرتني سارة عن محاولتها الأولى لارتداء الحجاب: «كنت في وسط لندن وشعرت بالخجل الشديد. كنت قد لففت وشاحي، وفقاً لأسلوب جاكي، بإحكام حول وجهي وعنقي واخترت ملابس تغطي مفاتني. انتبهت تماماً إلى عدم وجود أحد ينظر إلي، وأن حضوري من نوع مختلف، مع ذلك الوشاح الصغير فقط. من بعيد، رأيت فتاة كانت تعرفني في المدرسة

ومعتادة على طلّتي البهية وصورتي الجميلة. حاولت بالفعل تفاديها قدر المستطاع، حتى إنني عبرت الشارع!».

كنت محظوظة لأنني لم أكن وحيدة أواجه هذا المظهر الجديد الغريب من تلقاء نفسي. كان لدي أخوات حولي يشجعنني ويشدُدن من عضدي، ولم يمض وقت طويل قبل أن أحصل على تشكيلة واسعة من الحجابات، المصنوعة من أنواع مختلفة من القماش. كنت أنتقي منها ما يناسب ملابسي، وأصبحت إلى حدٍ بعيد جزءاً مني.

التغيير الخارجي، التغيير الداخلي

لم تبدأ إحدانا تستر نفسها دون أن تختبر بعض التغييرات في داخلها والطريقة التي تتواصل بها مع أولئك المحيطين بها.

التأثير الأول الذي تركه علينا الحجاب، وشاح الرأس، كان تشجيع الاحتشام في اللباس والتعامل. بعد حياة قضيناها بعرض ملابسنا وأجسادنا، شعرنا فجأة بالخجل من عرض أنفسنا علناً. كان الحجاب يذكّرنا بمعايير السلوك المتوقعة منا بوصفنا مسلمين. وبشكل أكثر تحديداً، بصفتنا نساء مسلمات. أصبحنا أكثر اهتماماً بالحفاظ على الآداب الإسلامية، ألا نكون غير مهذبات أو أن نكذب، وأن نكون لطيفات وكريمات. عندما يتعلق الأمر بالجنس الآخر، لم نكن نشعر بالارتياح في تبادل الأحاديث الشخصية أو المعتادة، وجعل الحجاب المغازلة ممنوعة منعاً باتاً. برغم أننا لم نكن نرتدي سوى أوشحة الرأس في تلك المرحلة، بدأنا نشعر براحة أقل في عرض أجزاء أخرى من أجسادنا، ونتيجة لذلك، بدأ نمط لباسنا يتغير. لم يكن يبدو صائباً ارتداء الحجاب مع سروال يصل إلى أسفل الخصر.

أصـبحنا في الواقع على دراية بأنه يمكن التعرف إلينا آنذاك بوصفنا مسـلمات، وأننا، بتلك الصـفة، ممثلات للإيمان أينما ذهبنا. لهذا كنا نسـأل أنفسنا ما إذا كان ما سـنقوم به أو المكان الذي سنقصده مناسباً لمسلمة؟. واكتشفنا أن الحضور في مشرب اتحاد الطلاب قد يكون واحداً من تلك الأشياء غير اللائقة.

منحنا الحجاب أيضـاً شـعوراً بالفخر بإسلامنا. كنا سعيدات بأن يتم التعـرف إلينا بصـفتنا مسـلمات، وبرغم أن الآخرين ربمـا كانوا يعدوننا مزريات أو ساذجات، شعرنا بأننا جميلات في عيون الله.

«يتعلـق الحجـاب بمن أنتِ وما أنـتِ عليه، برغم أننـي لم أكن أراه هكـذا في ذلك الوقت. لكن الآن، أريد حقاً امتلاك تلك الهوية، وأن أقول: إنني مسلمة بدلاً من الاندماج في ذلك المجتمع» كلير.

لكـن قرارنا بتغطية أنفسـنا لم يؤثر علينا وحدنـا. لأننا كنا نبعث بمثل تلك الرسالة الواضحة إلى العالم الخارجي ـ «لا أريد أن يزعجني أحد، لا أريد أن يتقرب مني أحد جنسـياً، أنا خارج الحدود بالنسبة لك» ـ لم يكن باستطاعة الرجال سوى تغيير الطريقة التي يتواصلون بها معنا. لم يعودوا بعـد ذلك يلاحظون حركاتنا، يراقبون الطريقة التي نمشـي بها، يقدّرون قياساتنا أو يقارنوننا بسوانا. لم تعد الطرق القديمة في النظر إلى أجساد النساء قائمة بعد ذلك؛ لأن أجسادنا لم تكن للعرض.

منح ذلك تواصـلنا مع الرجال مستوى جديداً من الاحترام والمجاملة، وكانـت تلـك هبة نُحسـد عليهـا على أي حـال. كان واضـحاً أننـا لم نعد موضوعات جنسية، ينبغي معاملتنا بشكل مختلف.

«كـوني امرأة مسـلمة، شـعرت بالحمايـة في حجابـي، محمية من الطريقة التي ينظر بها الرجال إليكِ. شـعرت بأنني أحظى بالمزيد مـن الاحترام بتلـك الطريقة؛ لأنهم لـن ينظـروا إلي ويعلّقوا على حجم مؤخرتي أو حجم صدري» رابية.

الحجاب ... وما خلفه

في صـيف تلـك السـنة، أعلنـت سـاندرا أنها تريـد ارتداء العبـاءة ـ الثـوب العريضـ الذي يتم ارتـداؤه فوق ملابس المرء، التـي ندعوها نحن الجلباب. برغم أن الله أمر، في القرآن، المؤمنات بارتداء ثوب خارجي فوق ملابسهن، إلا أنني كنت مصدومة ـ هل كانت تريد حقاً ارتداء ذلك الكيس كل يـوم؟ أكّدت لها أنني لن أفعل ذلـك. لكن برغم ذلك، ذهبت معها إلى أخت في سـتراتفورد كانت تقوم بتفصـيل عباءات لصديقاتنا. كانت أختاً لطيفة جداً من برادفورد، من أبوين باكسـتاني وإنكليزية. وصـفت سابقاً كيف كنا نخاف من العباءات المبطّنة الكتفين ذهبية الأزرار. حسناً، كانت عباءاتها بعيدة تماماً عن تلك.

كانـت العباءات مصـنوعة غالبـاً من قماشـ ممتاز لكن رقيـق قليلاً، وكانت تبدو مثل فساتين واسعة فضفاضة، وفيها درزة تحت الصدر وأخرى مسـتقيمة من الأمام. عندما ارتدت ساندرا عباءتها لتجربتها، عرفت فوراً أنني أريد واحدة. وبالفعل، اعتدت قضـاء عدّة سـاعات سـعيدة في محال الأقمشـة في شـارع غريين، أنتقي القماش لعباءة جديدة وحجاب يناسبها. اتسـعت مجموعتي لتضم ألواناً مختلفة بني، أسـود، أزرق فاتح، كريم. في

ذلـك الوقت، كنا وصـلنا إلى مرحلة ارتـداء العباءات مـع حجابات أكبر، تغطي صـدورنا على شـكل قطعة أنيقة من القماش، المثبتـة بدبابيس على الكتفين وتنسـاب إلى الخلف على شـكل مثلث (انظر الشـكل 1). لم يمض وقـت طويـل على قيامنا بذلك حتى بـدأت حنّا ارتداء العباءة أيضـاً، وكنا جميعنا مثل «الفرسان الثلاثة»، نذهب إلى كل مكان معاً، ونتبادل النصائح حول الأمكنة التي نجد فيها أفضل الأقمشة وكيفية صنع حاشية لها.

آنذاك، كان ارتداء العباءة مختلفاً عن عقد وشـاح ببسـاطة. بالنسبة للكثيرات، العباءة امتداد منطقي لنمو المعرفة بالإسلام وزيادة في الإيمان. لكن حالما تقرّرين تغطية ملابسكِ، يبدو أنه لا مجال للعودة عن ذلك، لقد عـبرت نقطة اللا عـودة. وفي عيون أشـخاص آخرين، تصـبحين مختلفة أيضـاً. أنتِ في مسـتوى مختلف. لا يشعر أولئك الشـباب، الذين يتكلمون معـك بعد وضـعكِ الحجـاب، بالراحة في أثنـاء الدردشـة معك. تحافظ النساء غير المسلمات، أيضاً، على مسافة معينة منك. في أذهانهن، تبدين مثل راهبة وبعيدة عنهن كثيراً.

> «عندما بدأت ارتداء العباءة، شرعت في رؤية جدار من عدم الفهم بيننا والنسـاء غير المسـلمات: نحن غير معروفات لهن، ولسـنا في المسـتوى نفسـه معهن ... لا يعرفن سـبب سترنا لأنفسـنا، وما إذا كنا نفعل ذلك من أجل أنفسـنا، أم أن شـريكنا دفعنا للقيام بذلك ... بالنسـبة لهن، كان ذلك يدل ربما على انعدام الثقة بالنفس، أو الخجل» سارة.

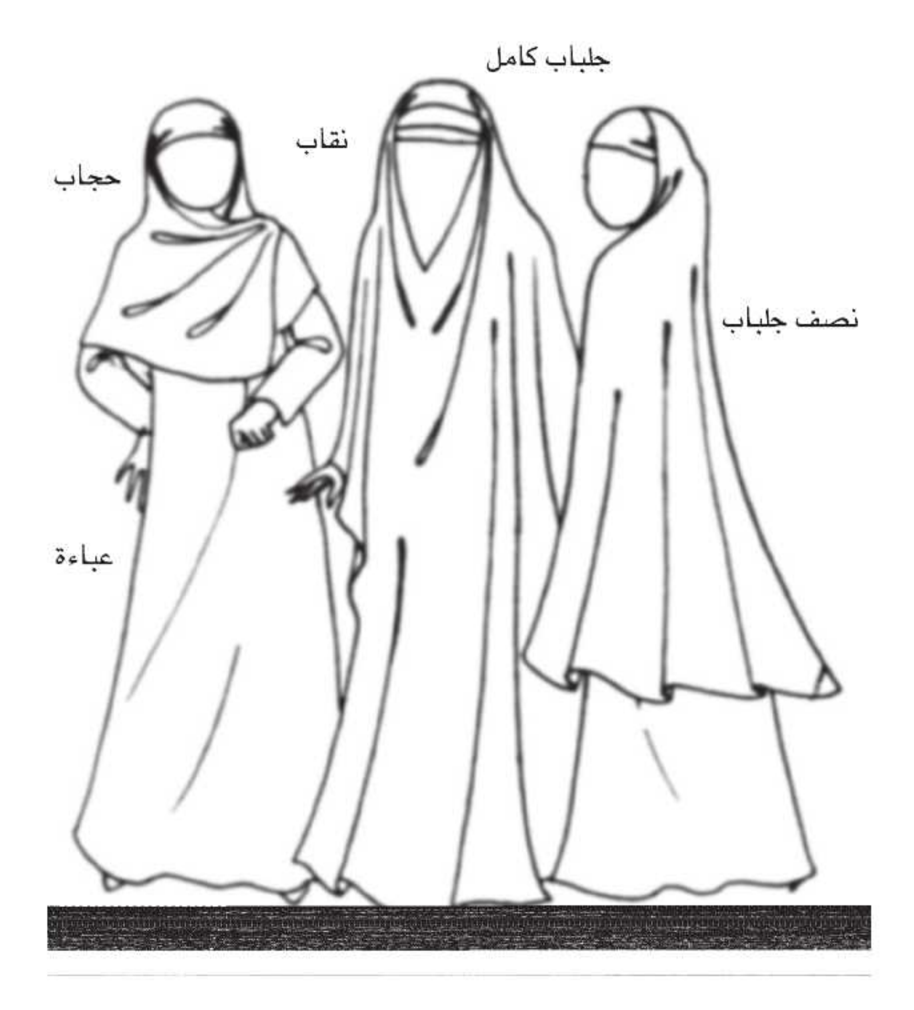
ليسـ أننـا لاحظنا، لقـد كنا مشـغولات كثـيراً في استكشـاف هويتنا الإسـلامية وبنائها حتى نقلق بشأن ما يفكّر به الآخرون بملابسنا. أعتقد

أن العبــاءة تؤكد أيضــاً لأولئك الذيــن كانوا يعرفونني قبل الإســلام أنني جادة، وأن تلك ليست مجرد مرحلة أمرّ بها وأنني لن أشاهدهم في جلسة آر-آند-ب في اتحاد الطلاب!

ثم تعرّفت على نصــف ـ الجلباب (انظر الشكل 1)، وهو شكل الغطاء الــذي جلبتــه إلى الســواحل الغربيــة النســاء الصــوماليات اللواتي جئن بحثــاً عن الملجــأ من الحرب الأهليــة في بلادهن. كنت أراهــن كل يوم في العمل، يندفعن عبر مدخل الكلية بأنصــاف ـ الجلابيب الكبيرة الزرقاء، الخضــراء، الزهرية والصــفراء بلون الخل التي تؤطر وجوههن. وفي أحد الأيام، عرضت إحداهن أن تصنع واحداً لي. عندما جلبته معها إلى الكلية بعد عــدّة أيام لاحقة، ارتديته فوق المنديل الكبير الملوّن الذي كنت أضــعه غطاءً لرأســي ودرت حول نفســي، ارتفع حولي مثل ســحابة قبل أن يهبط مجدداً على شــكل طيّات بنفســجية ووقعت في حبه. كان واسعاً، فضفاضاً وأجــرّه خلفي عندما أمشــي كان ينزلق بخفّة من فــوق كتفيّ ويتعذّر تمييز شــكلي منه. أتذكّر أنني فكّرت: «لقد أحببت هــذا أكثر ... هذا هو الرداء الصــحيح». وهكــذا، بعــد ذلــك، أخــذت أرتدي نصــف ـ الجلبــاب كلما اســتطعت. كنت أنا وزميلتي الســودانية في السكن، حياة، متفقتين على أن طريقة الستر تلك كانت أكثر اكتمالاً.

لهذا تخيّلن رعبي عندما عرضــت علي حياة الجلباب ـ الكامل (انظر الشــكل 1) الذي كانت قد صنعته. كنت مصــدومة ومندهشة ـ كان كبيراً جــداً، أســود داكناً وشــديد التطرف! لحســن الحظ، كانت حيــاة من نوع الأشخاص التي تعرف ما تريد ولم تدع رد فعلي الجاهل يمنعها عن ارتداء الجلبــاب ـ الكامــل. عندها، قرّرت أن لا أحد ســيراني ميتــة في إحداها. كلمات أخيرة شهيرة.

بالطبــع، الله يعلم وأنا لا أعلم. يعلم أنني كنت ســألتقي أختاً تدعى أم تســنيم، التي كانت ترتدي بنفســها جلباباً ونقاباً، يغطّي وجهها. يعلم أننا كنا سننسجم جيداً، وقضى بأنني سأمكث عطلة نهاية الأسبوع في منزلها، وذلك في عيد المصارف الواقع في الأول من نيسان. كنا نستعد للذهاب إلى صــلاة الجمعة في منتصــف النهار عندما ســألتني حول ارتداء الجلباب. أكّــدت لها أنني لن أفعل شــيئاً مماثلاً أبداً. اقترحــت أن أجرّب ارتداءه. فعلت ذلك. نظرت في المرآة الصغيرة بجانب مشجب المعاطف. نظرت إلى طيّات القماش التي ســترت كلا جانبي وجهي، وصولاً إلى الأرض، وشعرت بالهواء يتحرك في المســاحة بين جسدي والقماش. واستدرت إليها، وجهي مشرق دهشة وسعادة، وقلت: «اصنعي لي واحداً أيضاً!». ومع تلك العبارة، سقط نذر آخر صريعاً.


جلباب كامل
نقاب
حجاب
نصف جلباب
عباءة

علــى أي حال، لم يكن الجميع قــد كرهوا الجلباب منذ اللحظة الأولى. أخبرتني ســارة كيف بدا بالنســبة لها رمزاً للإيمان القــوي، وقوة إرادتها أيضــاً: «عندما بدأت أشــاهد الأخوات في الجلباب، أحببته! أتذكر عندما كنــا نأخذ دروســاً في المســجد والأخوات يأتين من كل أنحــاء لندن في تلك الجلاليــب والنقابات الكبــيرة، بدأت أتمنّــى أن أغطي نفســي بالطريقة نفســها. فكّــرت: «يا للروعــة، ينبغي أن تكــوني قوية جداً حتى تمشــي في الجوار هكذا!»».

علــى أي حــال، لم أواجه أي مشــكلات إطلاقاً مع فكــرة تغطية وجهي بالنقــاب، وهــو غطاء الوجه الذي يُدعى بشــكل دائم تقريبــاً «الخمار» في الغرب. ينبغي أن أعترف بأنني أكره تلك الكلمة، ويعود الســبب في الغالب إلى مــا ترتبط به غالباً. توحي عناويــن آلاف الكتب التي تتراوح من خلف الخمــار، وراء الخمــار وتحــت الخمــار إلى رفــع الخمار، تمزيــق الخمار والغضــب ضد الخمار بإحساس المستشــرق بالغرابة والإثارة البعيد تماماً عن صــورتنا الخاصــة عن النقاب. علاوة على ذلك، لم أســمع أبداً امرأة مســلمة أعرفها تســتعمل كلمة «خمار» مطلقاً من قبل. لهذا، سأشــير إلى «الخمار» بكلمة نقاب، حسناً!

حتــى في تلــك الأيام الباكــرة عندما كنا نضــع الحجاب بالــكاد، كنت أحيانــاً ألفّ القماش حول وجهي عندمــا كنا نذهب إلى محال بيع المقالي. كانت صــديقاتي يقلن: «أنتِ مميزة جداً!». لم يكن مضــى وقت طويل على ارتدائي العباءة والحجاب الكبير حتى بدأت أفكّر في تغطية وجهي مجدداً. بدأت ألفّ حجابي حول القسم السفلي من وجهي وأثبّته بدبوس هناك، في طريق عودتي إلى المنزل من العمل. اســتمتعت بشعور الغموض الذي منحه

لي. أحببت حقيقة أن الناس لا يستطيعون رؤية وجهي، وأنني كنت غامضة بالنسبة لهم. كنت قد بدأت أشعر بعدم الراحة مع حقيقة أن أي شخص، أي رجل، يستطيع رؤية وجهي، شعرت أنه برغم أن لا حق لهم في ذلك، كانوا ما يزالون يستطيعون إلقاء نظرة فضولية كلما أرادوا ذلك.

«كان النقاب رائعاً، تشعرين أنك محمية من العالم الخارجي. كان شيئاً ذهنياً. تشعرين كما لو أن هناك غطاء، وأن الله يحميك؛ لأنكِ تفعلين ما ينبغي لك فعله وأنه سعيد بك» مي.

أعتقد أنه بحلول ذلك الوقت أدركت أن ارتداء النقاب كان أقل ما يمكنني فعله شكراً لله الذي منحني الكثير. كان ذلك بعد ظهيرة أحد الأيام التي أتذكّرها كأنها بالأمس: ضجيج الشوارع المزدحمة في وايتشابل، فكرة زواجي الجديد وزوجي الرائع، كل السنوات التي حماني بها الله من كل خطر، الحياة الطيبة التي منحني إياها، نعمة الهداية، الصديقات الطيبات، السكينة والحب آنذاك، كانت كل تلك الأشياء تجول في خاطري. لم يكن النقاب شيئاً أكرهه، في الواقع، أحببته كثيراً، ولم يكن ارتداؤه صعباً بالنسبة لي، كنت أعيش في الجزء الشرقي من لندن، بالمحصلة، وكان زوجي يدعمني.

كان ارتداء النقاب، اختيار التغطية بتلك الطريقة، يبدو أقل ما يمكنني فعله شكراً للمولى، وإظهاراً لامتناني واعترافاً بخضوعي له. لم يكن لدي وقت أضيّعه على مخاوف في غير محلها، لقد حظيت بتلك الفرصة لأفعل شيئاً أفضل، وقرّرت الاستفادة منها. وتلاشت، في تلك اللحظة، آراء الأشخاص الآخرين، وتعليقاتهم ووجهات نظرهم في الخلفية؛ وكانت عيناي ترجوان رضا الله.

وعندها، في عطلة المصارف نفسها التي حاولت فيها ارتداء الجلباب أول مرة، حضرت صلاة الجمعة في مسجد كانت فيه أغلبية النساء يرتدين الجلابيب والنقابات. في مرحلة ما، خلال الخطبة، نظرت حولي واندهشت من جمال الأخوات في الأنحاء. في تلك اللحظة، بدا لي طبيعياً جداً أن نرغب بتغطية ذلك الجمال، لحمايته، وإبقائه خاصاً. يشعر بعض الأشخاص بالرعب عندما يشاهدون نساء جميلات يغطين أنفسهن، لكن شعوري لم يكن مشابهاً. بدلاً من ذلك، شعرت بالفخر بأن أغطي نفسي مثلهن.

لكني كنت بحاجة إلى نقاب يناسبني، ويتوافق مع نمط حياتي. لهذا، حالما استطعت، كلّفت بنتو، وهي أخت غينية أصبحت إحدى صديقاتي المقرّبات، بأن تصنع لي نقاباً يشبه نقابها أنيقاً ومرتّباً، من طبقة واحدة، ومصنوعاً من قطن خفيف جداً. وهكذا بدأ الأمر. لأن النقاب المصنوع يدوياً كان يخفيني عن الأنظار، شعرت بالراحة عند ارتدائه مع أوشحتي الكبيرة والعباءة، ومع جلابيبي لاحقاً. مجدداً، حظيت بالدعم والمؤازرة من أرباب عملي في الكلية، لم أواجه مشكلة في ارتداء النقاب في العمل. خشيت من التفكير بما ستعتقده صلة وصلي مع مكتب التوظيف عندما تأتي لتفقدي في العمل. كانوا قد وصفوني في سجلاتهم بوصفي شابة أنيقة الملابس تضع وشاح رأس أبيض أنيقاً، فقط ليجدوا امرأة في نصف ـ جلباب شفاف ونقاب يجثم على أعلى رأسها، مشغولة بالرد على هواتف المكتب. لكن، حتى لا أبخسها حقها، إذا كانت قد أُصيبت بالدهشة، فإنها لم تظهر ذلك.

كان الطلاب فضوليين بلطف، والرجال المسلمون يغضّون أبصارهم ويخجلون عندما يتحدثون إلي، وأثار قراري إعجاب النساء المسلمات. سألني أحد المحاضرين، وهو رجل إنكليزي نحيل كان يأتي إلى المكان من

وقت إلى آخر: «إذاً، لماذا تحتجبين في البُردة (نظام الحجاب الهندي، ولا تظهر فيه النساء أمام الرجال) الآن؟».

أعجبني كثيراً تعبيره، لم أكن لأعمل في مثل تلك البيئة المزدحمة في حال كنت احتجبت في بُردة!

قلت له: «لا أعرف حتى معنى ذلك!»، وأوضحت أنني أردت تغطية نفسي أكثر، وأنني شعرت بأن وجهي حيّز خاص بي، حيّز لا أرغب بأن أشارك به أحداً. فكّر في إجابتي، وفرك ذقنه وهزّ كتفيه غير مُبَالٍ وتابع السير إلى صفه.

هكذا، بدأت ارتداء النقاب. كان زوجي مبتهجاً وأم تسنيم وصديقات أخريات مسرورات. لكن، دون شك، لم يوافق الجميع على الأمر. اعتقد بعضهم أنها كانت خطوة غير ضرورية، وأنني كنت أتخطى الحدود. في الواقع، لم يعجب الأمر بشكل خاص صديقتيّ حنّا وساندرا. لكن في المجتمع الصغير في الجزء الشرقي من لندن، شعرت بالراحة والثقة، لطالما كانت تتم مشاهدة النساء البنغاليات في الجوار مرتديات النقاب، لهذا لم أبرز مثل إبهام متقرّح بين الأخريات. والأكثر أهمية أنني شعرت بأنني أقوم بالعمل الصائب تجاه مولاي.

تغطية أكثر وكشف أقل

كيف يمكنني شرح ذلك الدافع لتغطية نفسي؟ هناك الكثير من المشاعر التي انتابتني في أثناء «الإقدام على تلك الخطوة»: الرغبة في فعل كل ما من شأنه إرضاء الله كان بالتأكيد عاملاً رئيساً. كان القرار بالإقدام على

تلك الخطوة نتيجة أيضـاً لإيمان أكبر، إيمـان أعمق والتزام روحي أقوى. بالنسـبة لبعضـهم كان الأمر كما لو أن للحجاب تأثير الدومينو، وبالفعل، تصـبحين أكثر اهتماماً بنفسـك حالما تبدئين التغطية. وعندما تشاهدين إحداهـن تغطـي نفسـها أكثر منـكِ، تصـبحين قلقـة لأنك أكثر كشـفاً. تختبريـن إحساسـاً متزايداً بجسـدك والرغبة بجعل المزيد من جسـدك خاصاً، وتغطيته، لحمايته. فجأة، تشعرين بالأسى على ذراعيك وساقيك، وأنها مكشوفة للغاية؛ وتتمنين أن يكون جسدك وملابسك محمية بالطيّات الحريرية للعباءة، التي تخفي تحركاتك.

تسـتند الرغبة في ارتداء الحجاب والنقاب إلى الغريزة نفسها بتغطية أكثر وكشـف أقل. وإذا شعرت بالأسـى على ذراعيك وساقيك قبل ارتداء العباءة، تشعرين بقلق شديد بشأن كشف وجهك الذي ربما يكون أجمل ما فيك. معرفة أن الصـحابيات وزوجات النبي ﷺ، أفضـل نسـاء العالمين، اعتـدن تغطيـة وجوههن يشـكل حافزاً أيضـاً. عند تلك المرحلـة، تختفي العقبـات والقيود المتنوعـة التي ترافق ارتـداء النقاب؛ لأنـه عندما يكون إيمانك كبيراً، تصـبحين منيعة على الصـعاب، ولا تفكرين إلا في سـعادة المولى ومكافأته.

الحجاب، يحرر أم يضطهد؟

لكن كيف نرغب بشـيء يعده الكثيرون الرمز الأخير للاضطهاد؟ كيف يمكن للحجاب أن يحرر؟

بوصـفي امرأة في هـذا المجتمع، وفي معظم المجتمعات الأخرى، تنشـأ الواحـدة وهي تتوقع أشـياء معينة: أن يتم الحكم عليهـا من مظهرها، أن

تحدد اتجاهات الموضــة أسلوب جسد المرأة المثالي وشكله، أن تكون موضع اهتمام من الرجال، ســواء كانت تحب ذلك أم لا، من ضمن أشياء أخرى. هنــاك المرأة التي تســتمتع بكل هذه الأشــياء، وتعدها جزءاً أساســياً من أنوثتها، العديدات منا يشــعرن بهذه الطريقة أيضــاً. لكن يحين وقت يبدأ فيه الجمال بالذبول، تصبح العناية الدائمة بالأناقة والهندام عملاً مملاً، وتبدو الرغبة بامتلاك آخر ما أبدعه مانولو بلانيكس أو فستان من غوست فارغة ولا طائل منها، ويفقد التحول الأكيد بعيداً عن القدّ الميّاس والأناقة المفرطة حماســته ويظهر الأمر على حقيقته: ضــحل ولا معنى له. وتبدئين بالتســاؤل: ألســت أكثر من مجموع أعضــائي؟ ماذا ســتكون العواقب إذا خرجت من هذا السباق؟ ماذا سيحدث عندما يبدأ جسدي بالتغير نتيجة التقــدم بالعمــر، المرض أو الحمل؟ إنها هذه المخــاوف وغيرها أخرى، مع الحجاب وكل شيء آخر، التي تحرّر تغطية المرأة المسلمة منها.

طيور في أقفاص من ذهب

في مجتمعنا، كما في كثير غيره، يتم الحكم على النســاء من مظهرهن بطريقة لا تطول الرجال. لكن لا يمكن الحكم على نســاء يغطين أنفســهن مــن مظهرهن؛ لأنه لا يمكن رؤية شــيء شخصــي منهن. تكــون في الواقع قد أزالت مظهرها من المعادلة. لا تشــعر بالحاجة في الارتقاء إلى مستوى توقعات المجتمع المتغيرة عن أجساد النساء. لا تكون ضحية لضغوط مختلفة لتتوافــق مع آخــر المظاهر أو تقدّم صــورة «جميلة». لهــذا مهما كان الذي يتواصل معها ينبغي أن يتواصل مع ما تمثّله، بما تقوله، أوتفعله أو تفكر به. لهذا الســبب قالت غانية لي: «إذا ذهبت إلى عمل، ولم يســتطيعوا الحكم

عليكِ سوى من خلال قطعة الورق أمامهم [سيرتكِ الذاتية] وما تقولينه، فستعرفين أن قرارهم لن يكون له علاقة بمظهرك. تلك هي الحرية!».

«تمتد حقيقتي إلى ما خلف صورتي، ولا أريد أن يحكم الآخرون عليّ من مظهري بعد الآن» سارة.

سوق اللحوم

من الطبيعي بالنسبة للرجال النظر إلى النساء: نحن جميلات، بالمحصلة! وتجد الكثير من النساء ذلك لطيفاً ومسلياً أحياناً. لكن دون شك، هناك أوقات أخرى يصبح فيها الأمر غير ضروري ومزعجاً. نظرات تحديق، صفير إعجاب، صفير استهجان، تعليقات، صواريخ تحمل أرقام هواتف، كلها مقدّمات، هناك خيط رفيع بين الإعجاب والتحرش الجنسي.

«أشاهد أحياناً شاباً يتجاوز فتاة ويستدير عائداً وينظر إلى ساقيها أو صدرها وأفكّر، سأكره أن يحدث ذلك لي. لا يشدّني ذلك، وهذا ليس إعجاباً، ولا أفهم كيف يجعل ذلك المرأة سعيدة. بالنسبة لي، سيكون أمراً رائعاً أن يمر بي أخ مسلم ويغض بصره. بالنسبة لي، ذلك يدل على الاحترام أكثر من شخص يصفر عندما يشاهد ساقيّ» رابية.

لا يمكن إقامة هذا النوع من التواصل مع المرأة التي تغطي نفسها. من الواضح أنها ليست مهتمة بمقدمات الرجال تلك، ولا بأن يعدوها جذّابة للغاية أو مثيرة، إنها تسيطر بشكل مطلق على جسدها وعلى الطريقة التي ينظر بها الآخرون إليها.

جمال الجسد

الضـغط على النساء والفتيات حتى يبدون بطريقة معينة كبيرات جداً يقود إلى كل أنواع المشكلات والأزمات. تُعدّ اضطرابات الأكل مثل الإفراط في تناول الطعام، والحميات القاسية، والشراهة وفقدان الشهية من تأثيرات هذا الضغط. يمكن أن ينتج عن شعورنا بالاستياء من أجسادنا انخفاض الثقة بالنفس وزيادة القلق من شكل الجسد.

نظراً إلى عدم الحكم على المرأة المسلمة من مظهرها الخارجي، فإنها لا تقدم نفسها من خلاله. نتيجة لذلك، لا يرتبط شعورها بالذات بمظهرها. يجعلها هذا حرة من القلق على مظهرها الخارجي وكل ما يتعلق به.

> «في البداية، شعرت كما لو أنني وجدت مساحة خاصة بي ودرجة معينة من الخصوصية. أعني بذلك إخفاء الأعضاء الحسّاسة في جسدي، لأنني لا أريد أن يستغلها أحد، أريدها أن تكون لي وحدي وأن أمنحها إلى من أريد منحها له» هاجر.

الجمال الداخلي

في مجتمعنا، يتم تشجيع النساء ببراعة على إيلاء الاهتمام بأشياء سطحية ـ المظاهر، الشكل، الجاذبية الجسدية ـ والغرور والنرجسية اللتين ترافقان ذلك. برغم أن الكثير من الناس مهووسون بالمظاهر الخارجية، إلا أن الإسلام علّم النساء اللواتي يغطين أنفسهن رعاية جمال لا يرتبط بالجسد فقط، يتعلق بشخصيتها، عاداتها وأخلاقها. لهذا، تتحرر من إضاعة وقتها وطاقتها في الحفاظ على جمال خارجي، لأنها تعرف أن ما بقلبها هو الذي يجعلها جميلة حقاً.

ومتى لا يكون مريحاً؟

ربما يتساءل القارئ ما إذا كان ارتداء الحجاب والنقاب مريحاً دائماً، وما إذا كانت لا توجد أي مصاعب أبداً في التغطية، من أعلى الرأس إلى أخمص القدم، كل يوم، بقماش أسود.

«إنه خانق عندما يكون الجو حاراً فعلاً ـ ولا أحد يستطيع القول: إنه مريح في تلك اللحظة. تفكّرين: هل تعرفين شيئاً؟ أريد انتزاع كل شيء والجلوس في الخارج هناك والشمس تلمس جسدي» هاجر.

أحد أكثر التعليقات شيوعاً التي تسمعها المرأة هي: «ألا تشعرين بالحرّ في ذلك الشيء؟»، وبالتأكيد أحد أقسى الأشياء بشأن ارتداء حجاب كامل هو التعب الجسدي الذي ينتج عن الحرارة أساساً. أتذكر أنني قرأت بشأن أخت ترتدي الحجاب والتي تم سؤالها عما إذا كانت لا تشعر بالحرارة لأنها تضعه. كان جوابها حاداً: «حرارة نار جهنم أكبر».

حادٌّ، وقاسٍ ربما، لكنه مناسب تماماً. أتمنى فقط لو أن لدي الشجاعة لأقول تلك الإجابة كلما سألني أحدهم ذلك السؤال.

وبرغم أن الحرارة في المملكة العربية السعودية وبلاد أخرى، حيث تغطي النساء أنفسهن تقليدياً أعلى بكثير مما تصل إليه الحرارة في إنكلترا، إلا أن الوضع برغم ذلك يصبح حاراً أحياناً تحت تلك الطبقات من القماش الأسود. لطالما كنت قد تعاملت مع ذلك الإزعاج بالتأكد من ارتداء ملابس خفيفة تحته، مصنوعة من أقمشة طبيعية تسمح بمرور الهواء، مع وشاح صغير خفيف. قماش الجلباب نفسه مهم أيضاً، الجلابيب من الخليج

مصـــنوعة من أقمشـــة خفيفة جـدا، خفيفة للغايـة حتى أنكِ لا تشـعرين أحياناً بوجود شيء فوق ملابسك على الإطلاق.

«وجدت من الصـعب ارتداءه، والتحرك به ـ الصـعود إلى السيارة والنزول منها كان شاقاً ـ ينبغي أن تعتادي عليه وتعتادي على وجود قطعة إضافية من القماش هنا وهناك» مي.

شـيء آخر يجعل ارتداء حجاب كامل صـعباً هو رد الفعل الذي تجابهه المرأة من غير المسـلمين، عندما بدأت أرتدي ملابس مثل أي مسلمة وليس مثل «أخت سـوداء عاقلة»، وجدت نفسي فجأة في موقف ينظر به الآخرون لي بطريقة مختلفة ـ آراء أخرى عن الإسـلام، والمسـلمين وعني بوصـفي امرأة مسـلمة. كان غريباً بالنسبة لي أن أسمع الآخرين يشيرون إلي بتلك العبارة ـ «امرأة مسـلمة»؛ لأنني كنت أعرف كل الصـور والأفكار المسـبقة التي تترافق مع ذلك الوصـف. وكنت أعرف أنني لا أناسـب تلك الصورة، ولم يكن لـدي نية بأن أكون كذلك على الإطلاق. يمكن للحجاب، الجلباب والنقاب خاصـة أن تثير ردود أفعال قاسـية للغاية من العامة. يبدو الأمر كما لو أنه حالما تضعين النقاب، تتوقفين عن حمل هوية إنسانية. أعرف أن النقاب يشـكّل صـدمة لنظام معظم الناس في المجتمعات غير الإسلامية، نحن معتادون على معرفة الكثير من المعلومات الشخصية بشأن الناس من حولنا، ونسـتطيع تحديد عرقهم، وعمرهم، وبنية أجسادهم ومفاتنهم. لا يكشـف النقاب أيـاً من هذه المعلومـات. ما الذي يراه غير المسـلم عندما يشـاهدنا أو تشـاهدنا في الشارع؟ بقيةٌ من عصـر غابر، رمز متخلف عن الاضطهاد في العالم الحر، تعصبٌ ديني، إرهابية أو معاونة إرهابي دخيلة، مهاجرة، متطفلة!

كان ذلـك الموقف خاصـة مزعجاً لهاجر، سـيما وأنها كانت شخصـاً مهماً في صـناعة التسـجيلات قبل عودتها إلى الإسـلام: «مـن قبل، كنت شخصـاً يريدون معرفته، شخصـاً يحتاجون إلى معرفته. كان الأمر مثل: «أسـتطيع الدخول إلى ذلك المكان إذا كنت أعرفها، أستطيع إبرام صفقة التسـجيل تلك إذا كنت أعرفها، أستطيع الانضمام إلى تلك المجموعة إذا كنت معها». وفجأة، أصـبحت منبوذة: كنت مرفوضـة، وتعرضت للإهانة بين ليلة وضـحاها. وفكّرت: «هل إذا نزعت تلك الأشـياء عني، فستعودون جرياً إليّ» ... كان ذلك مزعجاً حقاً لي».

بـدا الأمـر لي أنـه حالما تغطّـين وجهك بالنقـاب، لا يعـدك الآخرون شخصـاً بعد ذلك، تصـبحين رمزاً. أقول هـذا لأن الناس، للمرة الأولى، يتكلمـون عنـك أو يوجهون لك الإهانة في وجهك مباشـرة، وهو شـيء لم يسبق أن حدث عندما كان أنفك وفمك ظاهرين. لم يعد الكثير من الناس ينظـرون إليـك في عينيـك، يلقون بتحية ودّيـة أو يباشـرون حديثاً عادياً معـك. جزء مني يفهم السـبب، من الواضـح أنني مختلفـة تماماً عنهم، ماذا إن أسـأت فهمهم، ماذا إن لم أسـتطع فهمهم، ماذا سيقولون عني، ما الـذي يمكن التحدث عنه؟ أعرف أيضـاً أنني مـررت بأوقات تفاديت بها الاتصـال البصـري، خوفاً من رفض الآخريـن لي، وأنني أبقيت فمي مغلقاً، خوفاً من أن أبدو حمقاء. إذا سـمحتِ بحدوث ذلك، فقد يصـبح ارتداء النقاب تجربة عزل كامل، ليس هناك المزيد من الغرباء الودودين في الشوارع. الأمر منوط بك لأن تبادري وتكسري الجليد. ويتطلب الأمر، أحياناً، شجاعة كبيرة؛ حتى تكوني على سجيتك وتقومي بما ترغبين، بغض النظر عما يتوقعه الناس حولك. من السهل السماح لردود أفعال أشخاص

آخريـن بأن تغير شخصـيتك عنـدمـا تكونين بينهـم، وتجعلك تتراجعين فيما كنتِ تتقدمين فيه، ويجعلك تخافين فيما كنت شـجاعة فيه، وتجعلك تتقوقعين على ما أنتِ عليه. هذا شـيء ينبغي على المرأة، في هذا المجتمع، أن تقاومه بوعي.

«حجابـي مسـتقل عن جسـدي، لا يبدو أنـه يؤثر على شخصـيتي بأي طريقة لأنني سـأفعل كل ما أرغب بـه، وأذهب إلى حيث أريد. سـأخرج مـع مجموعة من غـير المسـلمات اللواتي يرتديـن جميعاً الجينز وملابس ضيقة ولا أنزعج على الإطلاق» هاجر.

أشـعر دائماً بأن لدي، بوصـفي امرأة مسـلمة تغطي نفسها، الكثير من المواقـف التـي ينبغي مواجهتهـا، والكثير من الصـور الزائفـة التي ينبغي إزالتهـا. أعرف أن الناس يندهشـون عندما يسـمعونني أتكلـم الإنكليزية أو الفرنسـية، عندمـا أعبّر عـن رأي ما، عندمـا أتكلم بطريقـة ودّية إلى أطفالهم، وأنني أقود سـيارة كبـيرة، وأنني خريجة جامعيـة، وأنني أعمل وأحب السـفر، أنني لا أتوافق مع التصور المسبق الشائع الذي يحملونه عن النساء مثلي. أشعر دائماً بأنني أتعرض لضغط حتى لا أرتكب أي خطأ، في سـيارتي، مع أمين الصـندوق في المتجر، بتعليم ابني الانضباط؛ مخافة أن يعزو الناس ذلك إلى حقيقة أنني أغطي نفسي، وأنني من ثم عاجزة. وهذه أشـياء لطالما سـمعت الأخوات يتكلمن عنها. لكن عندما أبذل جهداً للتكلم إلى غريبـة، أحاول نقض تلك الحجة، ونتبادل الدعابات، وأترك الشـعور الذي انتابني في أثناء تلك المقابلة يغمرني، الشعور بأنني تواصلت مع كائن بشري آخر وأنني ربما منحتها شيئاً تفكر بشأنه. ربما أكون قد أحدثت ثقباً صـغيراً في جدار الإجحاف والشـك ذاك! وهكذا أسـتطيع السير مرفوعة

الرأس، وأن أتكلم بثقة وأترك الابتسامة تشع من عينيّ، أي شيء لتكوين صورة خلف ما يرونه مني، وأطالب بأن يتواصلوا معي وليس مع نقابي.

«لن أنسى مطلقاً حضوري سباق خيل مع ابني الذي يحب الخيول حقاً. كان ذلك في أفيغنون، فرنسا لكني شعرت بأننا موجودون في تكساس! كان الجميع يرتدون ملابس جلدية وقبعات رعاة بقر! قلت لعائلتي: «حسناً، جميعكم، تصرفوا على طبيعتكم!». وكان الجميع لطيفين حقاً» هاجر.

أحياناً، على أي حال، يدهشني الناس لافتقارهم للتصورات المسبقة. لن أنسى رؤيتي لطبيبة شابة عندما كسرت إصبع قدمي. سألتني كيف آذيته وقلت لها: إنني أمارس الكيغ بوكسنغ (مزيج من الكاراتيه والملاكمة) وآذيت إصبع قدمي في أثناء التدريب على زوجي. ابتسمت فحسب. ونظرت إلى المشهد من زاويتها: هذه المرأة الحيوية بالأسود، تجلس وهي تضع ساقاً على ساق على سرير المستشفى العالي، تدردش عن الكيغ بوكسينغ. بعد تمحيص الموقف في ذهني، سألتها: «هل تجدين سماع ذلك من امرأة ترتدي مثل هذه الملابس غريباً؟».

ابتسمت عن دراية وهزّت رأسها قائلة: «في هذا العمل، تتعلمين ألا تفترضي أي شيء بشأن الناس».

يكفي أن أقول: إن هناك أشياء معينة تجعل ارتداء النقاب صعباً. يثير هذا السؤال الآتي: «لماذا لا تنزعينه ببساطة؟». طرحت هذا السؤال على أخوات، وتحدّيتهن أن يكون لديهن جواب يبدو منطقياً، وأن يجبن على ذلك السؤال بشكل قاطع.

قالت لي هاجر: «لن أنزعه بسبب إيماني، لن تكون كل الأسباب التي دفعتني لارتدائه صحيحة إذا جعلتني ردود أفعال الآخرين أو حرارة الشمس أنزعه. سأشعر بأنني ضحلة التفكير. عندما تريدين الاستقامة، ينبغي أن تلتزمي بها دائماً، لا يمكنك تجزئة الأمر».

أيضاً، لم يخطر ببالي أبداً أن تحمّل صعاب ارتداء النقاب، أو أي شيء آخر يرتبط بالدين، يماثل العمل وفقاً لنظام أخلاقي في بيئة عمل غير أخلاقية. خلال سنوات الفصل العنصري، كانت هناك شركات ترفض التعامل مع جنوب أفريقية أو أي شركة لها مصالح في جنوب أفريقيا. سخر بعضهم من قرارهم، وقالوا: إنهم يخسرون الكثير من الأعمال هناك وعرضوا العديد من الحجج الزائفة الأخرى لدعم أسبابهم في التخلي عن المقاطعة. لكني واثقة أن معظم الناس الذين يمتلكون ضميراً حياً سيوافقون أنه كان من الأفضل عدم التخلي عن مفاهيم الحرية وعدم التمييز في جنوب أفريقيا من أجل مصالح الجنيه والدولار. الغريب أن لا أحد أبداً يشفق على النباتيين عندما لا يستطيعون تناول قطعة لحم متبّلة، أو أولئك الذين يعيشون على الخضار عندما لا يتناولون المثلجات، أو مستهلكي الطعام العضوي عندما يكون عليهم أن يدفعوا أكثر للحصول على طعامهم. إنهم يلقون الاحترام لثباتهم على مبادئهم. يفترض الجميع أنهم اتخذوا خياراً عقلانياً، ولهذا نراهم محط إعجاب كبير.

«أعتقد أن العقيدة والإيمان الكامنين وراء ذلك أقوى من تلك المشكلات الصغيرة التي تواجهينها. لكل شيء صعوباته، والشيء الذي يتعلق بالجلباب والنقاب أنك لا تفكرين به كل صباح ـ إنه جزء منك. إنه مثل طبيعة ثانية ـ تصبح فكرة التخلي عنه أو نزعه عنك غريبة» رابية.

لكـن برغم أن المرأة المسـلمة الملتزمة التي كانت قـد اختارت أن تلبس وتعيشـ بالطريقــة التي ترتـاح لها تعاني مــن درجة معينة من المضــايقة لتمسـكها بمبادئهــا، إلا أن الآخريــن لا ينظــرون إليها بالاحترام نفســه. يفترض الجميع أنه لا يوجد منطق خلف ذلك. أحياناً، ما تقوم به صعب ـ لكنها لا تستسلم. إنها قوية ضد المعارضة، صبورة عند مواجهتها لاختبار، وتكافح باسـتمرار. لا يوجد سوى درجات فرق بينها وبين المحارب ـ أتمنى فقط أن يمنحها الناس بعض الفضل بعد أن يعرفوا ما بذهنها.

الأميرات العربيات

يضــع الناس كل أنواع الفرضـيات بشـأن السـبب الذي يدعو النســاء المسـلمات لتغطية أنفسـهن. إما أننا صــاحبات جمال سـاحر أو «بشعات مثل جهنم». بالنسبة لأولئك الذين يفترضون أننا فاتنات جداً حتى نغطي أنفسـنا، نصبح غريبات، غامضــات وحتى مثيرات وفقاً لأكثر الفرضيات غرابة. يسـمح هؤلاء الناس لخيالهم بالانطلاق جامحاً، ويغذّيه دون شك أوهام الحريم ونســاء الشرق المثيرات. سيصــاب هؤلاء بخيبة أمل عندما يعرفــون أن المرأة التي يعدونهــا أميرة عربية ملتفة بالنقاب قد ولدت جين سـميث من بيملكو. نحن لسـنا مثيرات، أو كائنات تثير الشـهوة جئن إلى هنا من الصــحراء على بســاط الريح، برغم أنني أفضــل ذلك الافتراض على غيره، لأسباب واضحة! بالنسبة لأولئك الذين يفكرون، أو يتظاهرون بالتفكير، بأننا نرتدي تلك الملابس لأننا بشـعات، بدينات أو لأننا بخلاف ذلك نخجل من أجسـادنا، نحن مسـليات، والحديث معنـا ممتع، الإهانة المفضـلة لدينا هــي أننا «نينجا»! يمكــن التعبير عن هــذا الموقف الخاص

بالبُصـاق، السباب أو الاعتداء الجسـدي الحقيقي. أتذكر يوماً ما عندما كنت أسـير مع أم تسنيم عائدتين إلى المنزل مع الأطفال في عرباتهم، قام بعض الأولاد بإلقاء بعض البيض علينا من نوافذ شـقتهم. كادت إحدى البيضـات تصـيب وجه طفلـي، وتحطمت على غطـاء العربة. أصـابتني صـدمة كبيرة، لأنني عرفت أنه إذا أصـاب هؤلاء المتوحشون هدفهم، فلن يبدو وجه ابني على ما هو عليه اليوم.

لدى كل أخت تقريباً ترتدي النقاب قصـة مشـابهة تسـردها. على أي حـال، بعد عدّة حوادث، تصـبح إحدانا أقل تحسسـاً للإهانات والقسـوة الهمجيـة أحيانـاً لبعضـ الجناة الذيـن غالباً مـا يكونون، لسـوء الحظ، صغاراً. مثل معظم الناس، يخافون ما يجهلونه.

بـأي حـال، برغم أننا قـد نواجه عدوانيـة عندما نخطو خـارج أبواب منازلنا، إلا أننا نقابل فضـولاً أيضـاً. لم يسـبق لغالبية غير المسـلمين أن التقوا أو تحدثوا مع امرأة مسـلمة، خاصةً تلك التي ترتدي ملابس وتعيش بالطريقـة التـي نحيا بها. لهـذا هناك دائماً أسـئلة: ما الـذي نبدو عليه فعلاً تحت ملابسـنا الفضفاضة؟ هل نخلعها أبداً؟ هل نحن مثلهم تماماً؟ يتساءل معظم الناس عمّا سيجدونه إذا ألقوا نظرة «خلف النقاب»؟

تحت طبقات القماش

في كل مكان حولنا، كل يوم، عبر كل وسـيلة ممكنة، تمطرنا صور نساء فاتنات يخبرننا أننا نسـتطيع إيجاد السـعادة في فساتين أحد المصممين، حمية غذائية جديدة أو قارورة عطر؛ لأننا نستحقها! من الممرات الضيقة إلى الطرق العامة، من التلفاز إلى الإنترنيت، يتم بيع وصـفات الرشـاقة،

أزياء المشاهير مع تسريحات شعرهم لنا بوصفها دليلاً على الأنوثة. لهذا، في مجتمع يهتم بالمظاهر حيث تتعرض النساء والفتيات على حدٍ سواء لضغط ملاحقة آخر نزعات الجمال، أين يترك ذلك المرأة المسلمة التي تغطي نفسها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها: المرأة التي قرّرت، في الواقع، عدم الاشتراك في عرض الأزياء؟ هل تشعر النساء المسلمات اللواتي يغطين جمالهن بالقلق من الأزياء، الوزن والتقدم في العمر؟ أم هل، بسبب احتجابهن عن العيون المتطفلة، يزددن جمالاً بطرق أخرى، طرق لا تعتمد على مظهرهن؟

أحد أكثر الأفكار الشائعة بشأن الحجاب هو أنه يحول النساء إلى كائنات عديمة المشاعر، مزرية وغير جذّابة. يعتقد بعض الناس أن الحجاب مؤسسة تجرِّد المرأة من أنوثتها، و«حقها» بأن تتجمّل وتظهر جمالها، ومن ثم إخفاء ضعفها وملابسها الرثّة، مثل فراشة فقدت جناحيها. عندما بدأت أغطي نفسي، لم تستطع صديقاتي غير المسلمات أن يفهمن لماذا أزعج نفسي بتجريب تسريحات جديدة، شراء أدوات تبرج أو تجديد ملابسي سألنني: «ما الفائدة؟ سوف تغطينه على أي حال».

الخروج بملابس محتشمة

إذا كان هناك من شيء تقوم به معظم النساء الجديدات على الدين، سواء اللواتي ولدن مسلمات أو عُدن إليه، فسيكون الطقس المتعلق بالتخلص من كل ملابس المرأة القديمة عند اعتناقها الدين. ليس هناك تشريع يطالب بهذا، ولا حديث يشجّع عليه؛ لكن برغم ذلك، غالباً ما تتخلص الأخوات المسلمات من ملابس حياتهن السابقة، وضمنها السراويل المغرية، الملابس

الضــيقة وكل شيء آخر. ولا يتوقف الأمر عادة عند ملابس الحفلات؛ لأن كل شــيء يكون مثيراً يجد طريقه إلى مركز الصــدقات المحلي. الأمر مثل تعويذة تطهّر كل ذكريات ماضينا غير المسلم، أو جاهليتنا.

«أعتقــد أننا نفكر بأنه حالما تبدئين الالتــزام، فإن ذلك يعني أنك وصلت إلى الســتين من العمر! تخلّصي من كل ملابسك، نعم، لقد فعلت ذلك مع الكثير من الأخريات» جميلة.

معالم «ملابس المسلمة حديثاً»

باعتراف الجميع، عندما نبدأ تغطية أنفســنا، يكون لذلك تأثير على الطريقة التي ترتدي بها الكثيرات منا ملابسهن تحت ذلك الغطاء. كان الأمر كما لو أننا شــعرنا، بوصفنا نساء مسلمات، بأن ملابسنا ينبغي أن تكون أطول، أعرض وألوانها داكنة أكثر، وبكلمة واحدة: محافظة. أشير إلى هذه النزعة بظاهرة «ملابس المسلمة حديثاً». تتميز ملابس المسلمة حديثاً بالافتقار الكامل للتصــميمات تحت أقمشتها الخارجية (حجاب، عباءة، جلباب ... إلخ)، ويأتي ذلك غالباً في تناقض صارخ مع الطريقة التــي كانــت تنتقي بها ملابســها قبل الإســلام. يمكن لهذا أن يتضــمن ارتداء ملابس غير متناســقة، فضفاضــة أو ملابس رثّة لا تتناســب مع بعضها كما ينبغي.

ســيبدو أن معالم «ملابس المســلمة حديثاً» غريبــة الطراز، وربما يكون ذلك أصــل المشكلة. سابقاً، ربما كنا نختار ملابســنا وفقاً لدرجة الإغراء الجنســي الــذي تقدمه، لكن هذا هو الإســلام الآن، والمســلمات مطالبات بالحشــمة بشــكل عام، وحتى بين نســاء أخريات، لا ينبغي ارتداء ملابس

فاضحة أو تنانير قصيرة! لهذا أحياناً، تصبح الملابس التي كنا نرتديها قبل أن نصبح مسلمات غير مناسبة حقاً لارتدائها في تجمع للأخوات.

لكن، آه كم ندمنا على القرار المتسرع بالتخلص منها جميعها عندما تزوجنا! كم كنا سنقدّر ذلك الفستان المثير الذي يكشف الظهر الآن، ضمن عالم الحلال الشرعي!

«لقد رميت حقاً الأشياء التي كنت أعتقد أنها غير مناسبة أبداً، لكنني ندمت بعدها؛ لأنني ما زلت أستطيع ارتداء ذلك النوع من الملابس أمام زوجي» صادقة.

ليس هناك فقط قضية نوع الملابس التي كنا نرتديها؛ وإنما غالباً ما يكون هناك سوء فهم عمّا ينبغي للمرأة المسلمة أن تبدو عليه. هناك هذا الشعور بأنك مسلمة الآن، وينبغي عليك، كما قالت أم صفوان: أن «تهملي نفسك وتنسي شأن الحياة». يتضمن هذا عدم ارتداء ملابس جميلة، تسريح شعرك، وضع التبرج وأي شيء آخر يمكن وصفه «زينة دنيوية».

«هناك بعض الأخوات اللواتي لا يهتممن بمظهرهن، ولا يهتممن بما يرتدين ... لا، هذا ليس شيئاً إسلامياً، لكني أعتقد، مع الكثير من الأخوات، أنهن عندما يبدأن ارتداء الحجاب، فإنهن يصبحن كسولات» غانية.

تلك هي بالتأكيد إحدى الصور التي يحملها الغرباء عنا. لكن هذا الموقف، مجدداً، يعدّ عقدة للغربية التي تعتنق الإسلام. في أغلبية المجتمعات والبلاد الإسلامية، من باكستان إلى الصومال، من ماليزيا إلى المملكة العربية السعودية، أتقنت النساء فن الظهور بمظهر جيد، وإن كان

تحت غطائهن الإسلامي: يرتدين الساري المطرّز، الملابس الباكستانية المزيّنة بخطوط مذهبة، وهي السروال والقميص، اللنغا المرصعة بالجواهر مع تنانيرهن الكاملة؛ البوبو المصنوع يدوياً، وهو قفطان غرب أفريقية، الدرعة والغوغورات الشفافين في الصومال، وهما قطعتان مزخرفتان ترتديهما النساء تحت التنانير. يقمن بتزيين أيديهن وأرجلهن بمسحوق الحنّة، ثم يصبغن عيونهن بالكحل، ويعطّرن ملابسهن بالبخور، ويجمّلن أطرافهن بالذهب والفضة. لكن نحن الغربيات المسكينات اللواتي اعتنقن الإسلام لا نعرف شيئاً عن تلك الفنون الغامضة، كل ما نعرفه أننا أصبحنا متدينات، وأن النساء المتدينات لا يهدرن وقتهن في مثل تلك التوافه من الأمور.

أخبرتني هاجر حول الفرق بين الأخوات الغربيات ومثيلاتهن في المملكة العربية السعودية: «نحن نرتدي ملابس رثّة هنا، مقارنة بهن، وينظرن إلينا بعين متعالية لأجل ذلك. يعتقدن أننا عجائز».

كان هذا الموقف الجديد من الملابس والمظهر الحسن شيئاً لم أستطع فهمه عندما انتقلت إلى مجتمع جديد ممن اعتنقن الإسلام، بعد أن تزوجت. قبل ذلك، في حفلة الحنّة الخاصة بي، كنت قد دعوت صديقاتي من الجامعة، اللواتي كانت معظمهن مسلمات بالولادة، وبذلن جميعاً جهوداً كبيرة وكن يبدون رائعات! كن جميعاً يضعن الحلي، ويرتدين ملابس لامعة من الحرير والساتان (الأطلس). كانت القاعة الصغيرة التي قامت ساندرا، وحنّا وحياة بتزيينها، نابضة بألوان الحلي والضحكات، والتنانير التي تتحرك دائرياً مع الدف، الطبلة اليدوية التي نضرب عليها عندما نغني. قضينا وقتاً ممتعاً، نحن الفتيات فقط، ما شاء الله، وكانت واحدة من أفضل الأمسيات في حياتي.

تنتقل بسـرعة إلى وليمتي، وهي احتفـال الغرض منه تقديم المتزوجين حديثاً إلى المجتمع. بعد أن اتخذت موقعي في مجتمعي الجديد من الأخوات اللواتي اعتنقن الإسلام، أُصبت بالدهشة: لم تنزع الكثير من تلك الأخوات جلابيبهن، دعكِ عن ارتداء أكثر الملابس أناقة! لم يكن هناك حلي، تبرّج، جهد ما لجعل المناسبة متميزة ومختلفة عن أي تجمّع إسلامي. الوحيدات اللواتي كن يرتدين ملابس أنيقة هن أم تسنيم (كنا نحتفل بوليمتينا معاً)، وصـديقاتي من الجامعة، وعائلتي وأنا! كان الأمر مخيباً تماماً للآمال في الواقـع، ولم أفهمه. أخبرتني رابية أنها كانت مندهشـة مثلي تماماً: «وفقاً للثقافـة الباكسـتانية، من المهم الظهـور بأجمل حلّة في حفـلات الزفاف والمناسـبات الأخرى، وأجد الأمر غريباً عندما أذهب إلى حفلات الزفاف وأكون الوحيدة التي ترتدي ملابس أنيقة».

أخبرتنـي غانيـة حـول تجاربها مـع معالم «ملابسـ المسـلمة حديثاً»: «تنزعـين حجابـك وينظر الجميع إليـك كما لو أنك جـوان كولينز، ويبدو كأنـك تقولـين: «هذه أنا بعد أن نزعت حجابـي!». كنت أذهب إلى حفلات زفاف أبدو فيها أكثر أناقة من العروس نفسها!».

على أي حال، هناك سبب محتمل آخر لظاهرة ملابس المسلمة حديثاً: الحقيقة أنه يوجد في الأعماق صوت خافت يقول: «لماذا تزعجين نفسك؟ لا يستطيع أحد رؤيتك على أي حال!». بالمحصلة، هذه لم تعد جاهلية (العصر الذي سبق الإسلام) حيث ينبغي انتقاء كل قطعة قماش بعناية؛ لأن هناك رجالاً ينظرون بعيون تعطي الشـيء حقـه إذا كانت الملابس جميلة، وتكون النساء مستعدات مع عبارات ناعمة إذا لم ينجح الأمر! لهذا نرتدي ملابس جميلة لتأكيد وجودنا، ونرتدي ملابسـنا من أجل الآخرين، ونكن مدركات

أنهم سـيحكمون علينا من خلالها. وكان ذلـك الاهتمام والإعجاب جزءاً مـن اللعبـة، تجعل كل الوقت والمال الـذي تم إنفاقه يسـتحق ذلك. عانينا بكل سـرور من وخزات شمع الساقين، وشدّ الملقط، وضيق الأحذية المدببة وبرودة التنورة القصـيرة في ليلة شـتاء. من قال: «ينبغي أن تعاني لتكوني جميلـة»، كان يتكلم إلينا دون شـك! كانت كل تلك الجهود تسـتحق العناء لإطلاق صفير الإعجاب والأحاديث الودية المبتذلة.

إذاً، ما الفائدة من كل ذلك إذا لم يكن هناك أحد، رجل، سيراه؟

«لمـاذا كنـت أبذل جهداً كبـيراً في الجاهلية؟ نقـول: إن ذلك ليس لجـذب اهتمـام الرجـال، وأننا نرغـب بذلك فحسـب، لكن ذلك ليس حقيقياً: في الكثير من الأوقات، يكون ذلك للتأثير على نسـاء أخريات أيضاً» صفوة.

على الأغلـب، الأخوات في مجتمعنا وفي معظـم الأماكن التي يكون بها المسـلمون ملتزمين بدينهم، متواضـعات للغاية، ليس هناك تصنّع، تفاخر أو تباهي بآخر المكتسـبات، هذا لن يسـجل أي نقاط. لهذا لا يوجد صورة ينبغـي الحفـاظ عليها، لا أحـد يراقب ليرى ما إذا كنـت قد ارتديت ذلك الفسـتان في حفلـة الزفاف الأخـيرة، أو كانت حليك تناسـب ما ترتدينه. شعرت الكثيرات منا بالسعادة؛ لأنهن وفّرن كل ذلك العناء. على أي حال، يمكن أن يؤثر جو التواضـع ذاك «سـلبياً» على المرأة التي اعتادت الحضور بشـكل دائـم في عروض الأزياء المختلفة. بالنسـبة لها، إنهـا حالة انعدام الصورة، وانعدام الجهد!

دخلت في نقاش مثير مع سـعاد وآسيا حول سبب ارتدائنا للملابس كما كنا نفعل في الجاهلية، وموقفنا من الملابس الآن.

آسيا: «مقارنة بما كنت عليه في الجاهلية، أشعر بأنني قد حرّرت نفسي. جزء مني يشعر أنها مضيعة للوقت أن نبدو بمظهر حسن بين النساء».

نعيمة: «عندما كنت ترتدين تلك الملابس في الجاهلية، لمن كنت ترتدينها حقاً؟».

آسيا: «الرجال، بالطبع!».

نعيمة: «أنتِ لا تقولين ذلك جزافاً، أليس كذلك؟ هل كان الرجال السبب حقاً؟».

آسيا: «بالتأكيد، والنساء الأخريات أيضاً».

سعاد: «بشكل أساسي، كان ذلك لإثارة إعجاب الجميع. لأكون صادقة، كنت أريد من الجميع، من كبار السن إلى الشباب، من الذكور إلى الإناث، وحتى الكلب أن يديروا رؤوسهم نحوي! كنت أريد أن يدرك الجميع أنني ملكة ذلك اليوم!».

هذه هي القضية التي كان على الأخوات مواجهتها عندما يبدأن تغطية أنفسهن. هل سيتركن حقاً أنفسهن دون عناية بسبب عدم وجود جمهور يقدّرهن بعد ذلك؟ اكتشفت أن لدي فرصة لرؤية ما إذا كان ما حافظت عليه دائماً حقيقياً، أنني ارتديت ملابس جميلة من أجلي وليس من أجل الآخرين. ولأنني حافظت دائماً على ذلك الموقف بقوة (برغم أنني لا أعتقد أن ذلك كان بنسبة 100% في ذلك الوقت!)، كانت لدي وجهة نظر أثبتها. كنت مصممة على أن الحجاب لن يحوّلني إلى امرأة رثّة الملابس!

«أعـرف أن الكثير من النسـاء المسـلمات يقلن: «اعتـدت على تلك الملابس، لكن ذلـك لا يزعجني، لهذا ما الفائـدة؟». لم أفهم أبداً ذلك المبدأ بالالتزام، وعدم الانزعاج في الوقت نفسه. بالنسبة لي، أعتقد أنني ينبغي أن أبدو بأفضـل مظهر. بالمحصلة، أنتن ما زلتن نسـاء وما زلتن جميلات، ما شـاء الله. لا أقـول الآن: إنك يجب أن تكوني مثيرة من أعلى رأسك إلى أخمص قدميك، لكن هذا لا يعني أن ترتدي ملابس فضفاضـة وجوارب داكنة طيلـة اليوم! لا أعتقد أنـه ينبغـي أن يكون هناك هذا التغيير المفاجـئ: «أنا ملتزمة الآن، سوف أبدو مثل متشردة»» رابية.

برغم أن معظم الأخوات، إما يندمن أو يضـحكن على ملابسـهن التي كـن يرتدينهـا قبل أن يعتنقن الإسـلام، إلا أنني اكتشـفت أن عالية لديها مقاربة مختلفة عن الموضوع، ووجهة نظر لم أفكر بها من قبل.

قالت لي: «عندما أصبحت مسلمة، لم يتغير موقفي من الملابس؛ لأنني رفضـت ارتـداء العباءة وتلك الأشـياء. كنت ما أزال أرتدي فسـاتين على الطراز الفرنسـي، وأضـع حجابي معها. لكن حالما بـدأت أرتدي العباءة، علـى ما أعتقد، كان ينبغـي بي التخلص من تلك الأشـياء، كان الأمر كما لو أنني أحاول التمسـك بها، ولم أكن أريد ذلك. لهذا تخلصـت منها. ثم أصبحت ملابسي رثّة تماماً. أعتقد أنني قضيت سنوات عديدة في محاولة تجميل نفسـي، وكنت أقضـي سـاعات في إزالة الشـعر عن سـاقيّ، أنتف حواجبي، وكل ذلك الهراء. شـعرت بأن الإسـلام لم يكن بشأن ذلك. أنتِ جميلة بغض النظر عن مظهرك. لهذا لم أعتقد أن عليّ بذل جهد كبير كما

كنت أفعل في الجاهلية. واستمتعت بعدم القيام بكل ذلك. شعرت بأنني تحرّرت من ذلك».

الجمال المخفي

على أي حال، حافظت أخوات أخريات على معاييرهن، من الجاهلية، وصولاً إلى الحجاب، والجلباب والنقاب.

«كان رمي ملابسي بعيداً أحد الأشياء التي لم أفعلها أبداً، وأنا سعيدة؛ لأنني لم أفعل ذلك، ما شاء الله. أعد نفسي مهتمة بالأزياء، وأعتقد أننا مثل النساء الأخريات في هذا المجال» صادقة.

اليوم، يوجد تحول كامل في المواقف المتعلقة بملابس المسلمة حديثاً، إلى درجة أن الأخوات المسلمات حديثاً يتلقين الآن نصيحة بعدم التخلص من كل ملابسهن الأنيقة، وعدم ارتكاب الغلطة نفسها التي ارتكبناها. تتذكر شريفة، التي اعتنقت الإسلام قبل بضعة شهور فقط، محاولتها التخلص من ملابسها: «كنت سآخذ كل ملابسي إلى مركز الصدقات، لكن شقيقتي سبقتني ووضعتها كلها في صناديق، ووضعت الصناديق في سقيفتها. عندما رأيت ذلك قلت: «كيف تجرئين على القيام بذلك؟ هذا قراري، وهذا ما أريد القيام به». من وجهة نظري، كانت تتدخل في حياتي. لكن بعد ذلك، تكلمت إلى الأخوات بشأن الأمر وأخبرنني أنه لا ينبغي بي التخلي عن ملابسي. قلن جميعهن: «مرحباً! احتفظي بملابسك يا فتاة!»».

خلال السنوات القليلة الماضية، أعتقد أنه كانت هناك نهضة طالت المجالات كافة في مجتمعنا الصغير، فيما يخص الأخوات. لن أنسَى أبداً

العشاء الخيري الذي نظّمته في منزلي لجمع التبرعات قبل سنتين. دعوته «ليلة الأميرة»، وكان على الجميع الحضور وهن يرتدين ملابس مثل الأميرات، ولم يكن مسموحاً اصطحاب الأطفال. قبيل تلك الليلة، لم يسبق لي أن رأيت مثل ذلك العدد الكبير من الأخوات دون أطفال، يظهرن بغاية الجمال وتبدو عليهن علامات الراحة. تناولنا الطعام، تكلمنا وضحكنا، فيما بدّلت إحدى الأخوات ملابسها في الطابق الأعلى. قالت إحدى الأخوات: «من الرائع رؤية كل الأخوات بهذا المظهر الرائع، لا تسنح لنا الفرصة دائماً لارتداء أفضل ملابسنا، أليس كذلك؟».

وبعدها، بدأت الأمور تتغير. فجأة، بدأت الأخوات يرتدين ملابس أنيقة عند الذهاب إلى منازل بعضهن، ويضعن لمسة من التبرّج، وربما بعض الحلي، وكل ذلك تحت ملابسهن الخارجية. أصبحت الأعياد، وحفلات الزفاف، والمناسبات الأخرى، كما هي في مجتمعات أخرى، احتفالاً بالثقافات المختلفة في مجتمعنا ـ كانت تشيونغزام الصيني، ملابس نوم كورتا، الجلابية مع غطاء الرأس واللباس المفضل لدى الجميع ـ الدرعة الصومالية التقليدية من دبي ـ جاهزة لذلك اليوم ويتم ارتداؤها مع وضع أشكال من الحنّة، والخلاخيل، والأقراط المتدلية من الأذن، والخفّين اللذين يمكن ربطهما، وحلي الشعر والمسحوق اللامع الذي يوضع على الجسد. بدأنا نقيم أيام جمال بانتظام في مواقع مختلفة من لندن. كانت تلك التجمعات تهدف إلى منح الأخوات استراحة ووقتاً للعناية بأنفسهن في أمكنة خاصة بهن، ودعم أولئك اللواتي كن خبيرات تجميل، مسّرحات شعر وفنانات حنّة. بدأت أخوات أخريات يعملن في تجارة الحلي الفضّية، الملابس الداخلية المغرية ومنتجات الجمال والعناية بالصحة، وكان كل ذلك يجد

سـوقاً جاهزاً بين الأخوات اللواتي كن يرغبن آنذاك بالعناية بأنفسهن كما فعلن من قبل، إن لم يكن أفضل. اليوم، هناك العديد من نشاطات الرشاقة والترفيـه المتاحـة للأخوات التي تـتراوح من اللياقة البدنيـة إلى التمارين الرياضـية إلى الكيغ بوكسينغ والسـباحة. هناك أيضاً قاعة جمباز يذهب إليها المسلمون، تخصص أياماً للإخوة وأياماً للأخوات. آمل فعلاً أن تكون أيام «ملابس المسلمة حديثاً» قد ولّت إلى غير رجعة.

على أي حال، هذه النهضـة مقيدة بعدد من العوامل المتنوعة. ما تزال الأخـوات حـذرات من الإفراط في ارتـداء الملابس أو وضـع التبرّج، وعلى درايـة أنهـا مجرد أشـياء مادية، بالمحصـلة. أيضـاً، هنـاك بالتأكيد في مجتمعي رغبة قوية دائمة لتفادي المنافسة بين أنفسنا والحكم على بعضنا وفقاً لحسن مظهرنا أو الجهد الذي بذلناه في ذلك. كانت تلك العوامل قد منعت خروج الأمور عن نطاق السيطرة، وأن تتحول إلى عامل ضغط لنبدو بمظهـر معين ونرتدي أشـياء معينة اختبرناها جميعنـا في الجاهلية. كما قلت مرة إلى زبيدة: «شـعرنا بالضـغط الناجم عن «حافظي على عباءتك طيلة الوقت»، لأننا أردنا أن يكون مظهرنا جيداً. لكن هناك بعض الأخوات اللواتـي لا يرغبن أو لا يسـتطعن ارتداء ملابس معينة لكل مناسـبة. ربما يشـعرن بأن الضـغط لنزع العباءة وارتداء ملابس جميلة هو اضطهاد في حـد ذاته». لهذا لم تسـيطر تلك النزعة على حياتنا، لم نصـبح ضـحايا الأزياء، ولا نرتدي ما هو جديد في كل حفلة، لكننا لم نعد نشـعر بالحاجة للاعتذار عن مظهرنا الجيد بين أخواتنا عندما نرغب بذلك.

علـى أي حال، لا يسـتطيع الكثير من الناس تجاهـل حقيقة أننا نغطي أنفسـنا مـن الخارج وتكون ملابسـنا جميلة من الداخل. ليس غير شـائع

بالنسبة لأخت أن تجد نفسها موضع تمحيص دقيق بشأن الفستان المفتوح عند الصدر، السراويل المثيرة أو الملابس الداخلية المغرية التي تشتريها.

«أعتقد أن الناس يشعرون بأن النساء المسلمات لا يرتدين ملابس أنيقة، وأنهن لا يحببن أن يسرّحن شعرهن، أو يضعن التبرّج. أحياناً، تدخلين إلى محل وينظرون إلى ما تختارين شراءه كأنهم يقولون: «مهلاً دقيقة، ماذا ستفعل بذلك؟ لماذا تختار تلك التنورة، ذلك القميص؟». يمكن أن يصبح الأمر مزعجاً أحياناً» أم محمد.

كنت قد اكتشفت أيضاً أنه من المثير للاهتمام الاستماع إلى الجيل الأصغر من الفتيات اللواتي يغطين أنفسهن، أولئك اللواتي ترعرعن مع الإسلام، يتكلمن حول مواقفهن بأن يظهرن بشكل حسن. كانت رميثة البالغة من العمر ست عشرة سنة تغطي وجهها منذ سنوات عديدة، وأردت أن أعرف كيف أصبحت فجأة محترفة بعمل ظلٍ لامع للعيون!

قالت لي: «أعتقد أنك عندما تكبرين، تصبحين أكثر اهتماماً بمظهرك وتجرّبين أشياء مختلفة. كنت أحب الأزياء عندما كنت أصغر سناً، لكن والدتي كانت تقرر ما أرتديه عندما أخرج. الآن، أذهب عادة إلى المحال بنفسي وأختار ملابسي، برغم أنني ما زلت أطلب رأيها في أشياء معينة. لكن والدتي خبيرة تماماً، وحذرة للغاية فيما يتعلق بالأزياء».

وعلى اعتبار أن الملابس غالباً ما تكون إحدى ساحات المعارك بين المراهقات المسلمات وأهاليهن، أردت أن أعرف كيف تشعر والدتها، أم محمد، التي كانت تهتم كثيراً بالأزياء فيما مضى، بشأن نمو إحساس ابنتها بالأزياء. أصابتني دهشة كبيرة تماماً عندما سمعت أنها تدعمها تماماً.

قالت لي: «كنت أقول لرميثة دائماً أن ترتدي ملابس أكثر أناقة، لكنها لم تكن ترتديها، لم تكن تضع أقراطاً، ولم تكن تسرّح شعرها، ولم تكن ترغب بارتداء ملابس جميلة. سأقول: إنها عندما كانت أصغر سناً، كانت جبانة، حتى بجوار الأخوات. لكن حالما كبرت قليلاً، نمت ثقتها بنفسها وأصبحت أكثر اهتماماً بأن تبدو أنيقة. وهذا رائع لأن ذلك تحت ثوبها الخارجي على أي حال».

تبيّن أنه حتى بالنسبة لمراهقة نشأت تغطي نفسها، لم يقمع الحجاب رميثة ونظرتها في العناية بنفسها وارتداء أجمل الملابس.

حجابي، شخصيتي

يرغمك ارتداء الحجاب على النظر إلى صورتك الذاتية، دوافعك ونواياكِ بعين نقدية. لأنه ينبغي بالمرأة المسلمة عدم إظهار زينتها، قد يقود هذا إلى أزمة نوايا: إذا لم تظهري أي زينة، ما هي الفائدة من اقتنائها؟ وبرغم أننا، في بداية إسلامنا، عانينا من هذا السؤال، إلا أن معظمنا توصل إلى قناعة بأن المظهر الحسن والحفاظ على الشخصية ينبغي أن يكون مسألة احترام ذاتي وعناية بالنفس، بغض النظر عمن يستطيع أو لا يستطيع رؤيتنا. لهذا نرتدي الآن ملابس من أجل أنفسنا فعلاً، وليس للحصول على استحسان الآخرين. هذه الأيام، عندما أتكلم إلى أخوات حول كيف يشعرن بأنفسهن ومظهرهن تحت الحجاب، أحصل على رد إيجابي جداً. لا تشعر إحدانا بأي توتر مهما كان بين التغطية من الخارج وارتداء أجمل الملابس من الداخل. يبدو الأمر كما لو أن الأجنحة متعددة الألوان، تحت طبقات القماش، تنبسط وتنتشر وتجعل الأخوات يحلقن عالياً.

بالنسـبة للّواتي اخـترن منا العيش وفقاً لشـريعة الله، سـواء اعتنقن الإسـلام أم ولدن مسـلمات، الحجاب يعني أشـياء كثيرة لنا: إنه ستارنا، محرّرنا، رمز عبوديتنا للمولى عز وجل. إنه لا يشكل عبئاً غير مرغوب، أو ضلالة، وليس رمزاً لاضطهادنا: إنه جزء أساسي من هويتنا بوصفنا نساء مسلمات. وأولئك الذي يعملون ما بوسعهم «لتحريرنا» منه، يحسنون صنعاً بالإصغاء إلى أصوات أولئك الساعيات إلى الحرية؛ لأن حرية امرأة، مهما كانت النوايا صادقة، قد تكون سجناً لامرأة أخرى.

6

الحب والزواج في الإسلام

بعد نحو تسعة شهور من نطقي بالشهادة واعتناقي الإسلام، التقيت رجلاً وتزوجت وفقاً للطريقة الإسلامية. منذ إقامتي في غينيا، لم يكن موضوع الزواج بعيداً عن ذهني، وقد قضينا ساعات عديدة نناقش ذلك في مطبخ ساندرا. مؤسسة الزواج الإسلامي، الحقوق والواجبات التي ينطوي عليها، طريقة عقد اللقاءات مع الإخوة، نوعية الأسئلة التي ينبغي طرحها، ما ينبغي فعله إذا بدأ يتصرف «بطريقة غير متوقعة» ناقشنا ذلك كله بجدّية، تكلمنا بصراحة وضحكنا بصوت عالٍ.

كنا جميعاً غير متزوجات حينها، ولم نكن نعرف بالطبع ما ينتظرنا. لكن بعد عدّة اجتماعات غير ناجحة، تخليت عن لقاء الإخوة، وأخذت على نفسي عهداً بألا أفكر بالزواج مجدداً، ووضعت خططاً ضبابية للسفر حول العالم بدلاً من ذلك. وعندها أخبرنا أحد معارفنا من الجامعة عن أخ كان قد نشأ معه. وفقاً للوصف ـ أخ أفريقي اعتنق الإسلام، ملتزم، ملتحٍ، يدير مزرعة والدته، مثقف، هادئ ويتحمل المسؤولية ـ كان يبدو مناسباً أكثر من أي شخص آخر التقيته. وافقت على تنظيم لقاء بينه وبين ولي أمري، حارسي، وهو إمام مسجد ريجنت بارك، الذي خاض معه جولة مبدئية من الأسئلة. لحسن الحظ، نجح في الانتقال إلى الجولة اللاحقة، وبعد الاتصال بي في العمل، التقينا في المسجد. عرفت أنني أريد الزواج منه بعد ثلاثة أيام.

الحب والزواج

قال النبي ﷺ: من تزوج فقد استكمل نصف إيمان فليتق الله في النصف الباقي». حديث حسن رواه الطبراني.

منذ رحلتي إلى غينيا، كنت أعرف أن الزواج جزء أساسي من طريقة الحياة الإسلامية. كما قلت سابقاً، كان كل من التقيتهم يحاولون تعريفي بشخص يعرفونه. بطريقة ما، فهمت السبب. نظرت حولي ورأيت أزواجاً وزوجات، أطفالاً وجدوداً، أعماماً وأخوالاً، أبناء عم وخال، جميعهم مرتبطون بعروة العائلة. وأدركت حينها أن الزواج إحدى أهم المؤسسات لأجل ذلك، عبره كانت العائلات ترتبط ببعضها بالنسب، وتقوم بتشكيل عائلات جديدة، تربية جيل جديد والعناية بالجيل الأكبر سناً. أستطيع أن أتخيل مدى العزلة إذا حاولت عيش حياة إسلامية وحدي، دون أحد يوقظني في الصباح للصلاة، دون أحد يتناول الإفطار معي، دون أحد يذكّرني بالله عندما تنخفض معنوياتي ودون أحد يشاركني أفراح وأتراح تربية عائلة مسلمة.

على مستوى شخصي، يقدّم الزواج فردوساً يزدهر فيه الحب، العواطف والمعاشرة، بشكل حرّ من القيود. هذا هو الهدف الأسمى الذي وضعه الله عندما قال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

نظراً إلى أن العلاقات الجسدية ممكنة بحرية في مجتمعنا ـ عبر العلاقات السابقة للزواج والعابرة، والسكن المشترك وعلاقات الليلة الواحدة ـ يعتقد الكثير من الناس اليوم أن فوائد الزواج قليلة مقارنة بالمسؤوليات التي ينطوي عليها. الأمر ليس كذلك بالنسبة للمسلم. بطرق عديدة، يمثّل الزواج نوعاً من الحرية لنا. ضمن الزواج، تصبح الكثير من الأشياء التي كانت محرّمة شرعية، وتلقى القبول. يستطيع الشاب والفتاة آنذاك التفاعل مع بعضهما ودون قيود، وتستطيعين التخلي عن حذرك، نزع حجابك، الضحك والصراخ، الخروج من المنزل أو البقاء فيه. بالمختصر، تستطيعين الاشتراك في كل شيء مع شخص واحد مميز. علاوة على ذلك، المتع الجسدية متاحة لك. بالفعل، إحدى الأهداف المعلنة للزواج الإسلامي هي السماح لمعتنقي الإيمان بإرضاء رغباتهم بطريقة وأسلوب شرعيين (حلال) ويجزيهم في الواقع الثواب، في هذه الحياة على شكل سعادة وذرية، وفي الآخرة رضا من الله.

الزواج، لهذا السبب، مصمم لحماية الفرد من الحرام والأمراض المتنوعة التي تنتج إما عن كبت الرغبات الجنسية أو الاختلاط الجنسي.

بخلاف الأديان الأخرى، ليس للرهبنة مكانة رفيعة في الإسلام. في الواقع، عنّف النبي ﷺ أولئك الذين يسعون لأن يصبحوا ورعين بالابتعاد عن العلاقات الجنسية مع النساء بقوله: «وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنتي فليس مني» رواه مسلم.

لهذا كان واضحاً أن الزواج شيء لا يمكنني تفاديه. ليس أنني أردت ذلك، كنت أشعر بالإثارة من احتمال لقاء رجل اشترك في وقتي، وديني وحياتي معه.

توقع غير المتوقع

أتذكر بوضــوح أنه في الأيام الأولى من إسلامي، لم تكن إحدانا ترغب بالزواج من أخ «مســلم ملتزم ومتشــدد»: «ماذا، وأن يقول لي بأن كل شيء حرام طيلة الوقت؟ قطعاً لا!». كانت تلك أياماً شاع فيها سماع أشياء مثل: «زفافي ســيكون حراماً قطعاً!». كان ذلك يعني أنه لا يمكن فصــل الرجال والنســاء، وأن العروس لن تكون مغطاة بشــكل ملائم وأنه ســتكون هناك حفلة كبيرة بعد ذلك، وسيرقص الجميع! يعكس هذا مدى فهمنا للإسلام في تلــك الأيام. كلما تعلمنا المزيد والمزيد وأصــبحنا أكــثر التزاماً روحياً، تغيرت أولوياتنا. لم نعد نرغب بعد ذلك بأخ ضعيف، أردنا شخصاً قوياً في الدين، شخصاً يشجعنا على تعلم المزيد، شخصاً يريد أن «يعيش الإسلام» كما نرغب نحن بذلك.

> «كنت أبحث عن شخص متدين يحب أن يتعلم، يذهب إلى الدروس، شــخص يعمل على إنشاء أسرة إسلامية. أســرة يحتل فيها الدين طليعة الاهتمامات، ويتم فيها ممارســة الشــعائر الإسلامية وليس مجــرد الحديــث عنها، وليس يــوم الجمعة فقط. الإســلام طريقة حيــاة وهذا ما كنــت أريده: طريقة إســلامية في العيش. أردت أن أعيش الإسلام» أم محمد.

مثل معظم المســلمات، اســتلهمت أفــكاري عن الزوج المســلم المثالي من صــفات النبي ﷺ نفســه. كما ذكرت ســابقاً، كان محمد ﷺ، رجل العائلة، يسحرني.

كان مثالاً رائعاً عن الرجولة في الإســلام، والشــخص الذي وازن بدقة بــين الديــن والدنيــا. فيما كان، مــن جهة، يعلّم المســلمين شــؤون دينهم،

يشارك في مناسباتهم، يحكم بينهم، إضافة إلى تلقي الوحي، كان يبكي في صلاته، ويبقى مستيقظاً طيلة الليل يصلي، حتى تتورّم قدماه. أحببت أيضاً الطريقة التي وصفته بها الأحاديث المنقولة عن زوجته عائشة: كيف كان يضع شفتيه في المكان الذي لمست فيه شفتاها الكأس عندما يشرب الحليب، كيف كانا يتسابقان فيما بينهما، كيف كان يلاعبها وتلاعبه. تعلمت أنه كان لطيفاً وصبوراً للغاية، ويساعد في أعمال المنزل، يخدم أسرته ويرتق أحذيته. كان ذلك العمل صعباً للغاية.

أهم من أي شيء آخر، كنت أحب فكرة الزواج من مسلم، رجل متواضع يسجد لمولاه خمس مرات في اليوم، وشخص يجسّد المُثل العليا للشخصية الإسلامية. كنت أتوقعه أن يكون صادقاً، كريماً لطيفاً ومحباً. أردت شخصاً يخاف الله في العلن والسر، شخصاً يقّر بالخطأ عند وقوعه ومستعد لقبول النصيحة من الآخرين، خاصةً من زوجته!

لهذا، في مناحٍ كثيرة، كانت توقعاتي عالية جداً عن أي شريك محتمل، وآمل أن يكون أفضل كثيراً من الأصحاب الذين عرفتهم قبل الإسلام، في الجاهلية. وكان مبعث راحة بالتأكيد أن أعرف أنه، بشكل عام، سيحاول الإخوة المهتمون حقاً بالزواج السؤال عن أخت ترتدي الحجاب! بعد خوض تجربة جدّية في الجاهلية، قالت هاجر: «كانت توقعاتي عالية حقاً بشأن زواجي الإسلامي، ذهبت إلى لقائي مع زوجي بصفحتين ونصف من الأسئلة. وكان قد أجاب على سؤال إثر آخر حتى قبل الوصول إلى مرحلة الزواج».

كنت أتوقع أيضاً من زوجي أن يؤدي دوره بوصفه مُعيلا. في الحديث، قال النبي ﷺ أن من حق المرأة أن تأكل كما يأكل زوجها، تلبس كما يلبس وتسكن حيث يسكن.

لكن طموحاتي الشخصية لم تتبخر حتى عندما ازدادت رغبتي بالزواج. منذ سني مراهقتي، في مرحلة «المنزل الكبير في ضواحي هراري» من حياتي، كنت آمل دائماً أن يكون لي عملي الخاص، وأجني المقدار نفسه من المال، إن لم يكن أكثر، مثل زوجي. بعد أن اعتنقت الإسلام آنذاك، كنت ما أزال أنوي أن أجني مالي الخاص (برغم أنني لم أكن أعرف الطريقة تماماً في تلك المرحلة)، لكني كنت أعرف أنه وفقاً لشريعة الله، من واجب الرجل أن يعتني بعائلته، مالياً وغير ذلك. كانت فوائد الزواج واضحة لي عندما أدركت أنه مهما جنيت، بوصفي امرأة، يمكنني الاحتفاظ بذلك لنفسي، أدّخر وأنفق كثيراً أو قليلاً حسب ما أشاء. يمكنني رؤية مزايا أكيدة في ذلك النظام.

لم يكن في نيتي أبداً القبول بأقل مما منحه الله لي وكان ذلك يستلزم تغييراً في أولوياتي. كنت أتوقع، مثل معظم المسلمات الأخريات، أن أتزوج رجلاً مستعداً لإنشاء عائلة. هناك تشديد كبير على إنجاب الأطفال في الدين، ومن النادر أن نجد مسلماً ملتزماً ينأى بنفسه عن تحمل مسؤولياته بوصفه أباً. في ذهني، كان الزواج والأطفال متلازمين.

سابقاً، كنت أرى نفسي سيدة أعمال أولاً، أنجب أطفالاً لكن أستعين بمربية أو خادمة للعناية بهم، مما يسمح لي بمتابعة عملي. لكن الإسلام جعلني أنظر إلى دوري المستقبلي بوصفي زوجة وأماً بشكل مختلف. قرّرت

أنني أرغب بتربية أولادي بنفسي. كنت أعرف، كما هي حال العديد من الأمهات العاملات، أن متطلبات تربية الأولاد، العناية بالمنزل والعمل سترهقني. لم أكن أريد أن أتحمل أدواراً ومسؤوليات متعددة. ولم أكن أريد تفويت تلك اللحظات الثمينة الخاصة بطفلي، رؤية خطواته الأولى، سماع كلماته الأولى وتشكل شخصيته. عندما يحين الوقت، كنت أريد بحق إلقاء نفسي في الأمومة، وأن يحظى طفلي بالاستقرار نتيجة وجود أمه المستمر في المنزل. شعرت، كما يعلّم الإسلام، أن ذلك سيكون أكثر قيمة من أي أموال إضافية سأجنيها من عملي خارج المنزل. لهذا كان النظام الإسلامي التقليدي في خروج الزوج للعمل وبقاء الزوجة للعناية بالأطفال في المنزل مغرياً بالنسبة لي، لكني كنت أستطيع الحفاظ على نوع من الاهتمامات الخارجية، وربما جني بعض المال بينما أقوم بذلك.

«لا أتوقع أن يعيلني أحد تماماً لكن، في الدين، هذه هي مسؤولية الزوج. إذا تم تقييد ذلك العمل، ربما يجعله ذلك أقل رجولة، ولا يفعل ما كلّفه الله القيام به» شريفة.

لكن كان هناك جزء مني، الجزء المشاكس دون شك، يشعر بالرضا و«الإذعان» للزواج من ذلك «المسلم الطيب». كنت أقول لنفسي: ما هي برأيكِ نتيجة كل تلك العبادة والتقوى؟ بالتأكيد، ستحصلين على رجل طيب ولطيف، رجل يصلي ويصوم، لكن واجهي الأمر، سيكون مملاً للغاية.

لا أعرف من أين جاءت تلك الفكرة، لكن كانت لدي صورة عن المسلم الملتزم بأنه رصين، لا يجاري العصر ويفتقر لحس الدعابة. هل سيقول لي باستمرار أن أخاف الله، أتوقف عن الضحك وأن هذا الشيء أو ذاك الأمر

حرام! بطريقة ما، لم أكن أعتقد أن المتعة، والمرح والرومانسية التي يتعلم المرء أن يتوقعها في علاقة في الغرب لها مكان في الزواج الإسلامي.

والأسوأ من ذلك، كان هناك جانب مظلم في توقعاتي. كان جزء مني خائفاً، خائفاً جداً، من أنني سأحظى بزوج مسلم من النوع الذي نسمع عنه في قصص الرعب. كنت خائفة أن أكتشف أنه وحش، يبقيني حبيسة المنزل، يمنعني من رؤية صديقاتي وعائلتي، ويدفعني لأن أكون نوعاً من الزوجات، نوعاً من النساء اللواتي يوافقن أفكاره. كنت خائفة من الوقوع في زواج يوفر لي الأمان، والاستقرار والحماية من ناحية؛ ويسلب مني استقلاليتي، وشخصيتي وحرية التواصل مع الآخرين، من ناحية أخرى.

تزوجتِ بعد لقاء واحد!

حالما بدأت مع سارة وحنّا التفكير بجدّية بشأن الزواج، كان نظام «اللقاء» الإسلامي شيئاً بدأنا نتعرف عليه جيداً. لم يكن غير شائع بالنسبة لأخ أن يرى أختاً ثم يرسل زوجة صديقه لتسأل: «يا أختاه، هل ترغبين بالزواج؟». كان يرافق ذلك عادة نظرات خفية على الشاب الواعد، تورّد من الخجل وضحكات خافتة إذا كان يبدو مناسباً، قهقهات مكتومة ووكزة بالمرفق إن لم يكن كذلك. أحياناً، كان الأمر يصل إلى مرحلة يلتقي فيها الاثنان، بوجود مرافقة، وحالما تعود الفتاة إلى أخواتها، كانت تشاركهن كل التفاصيل المثيرة لما حدث. إن بدا أنه «الشخص المناسب» حقاً، على أي حال، كانت الأمور تأخذ منحًى أكثر جدّية. ثم، يتم قراءة كتب عن موضوع الزواج، ووضع قوائم بالأسئلة التي سيتم طرحها، السعي للحصول على النصيحة من «ذوي الخبرة» وخوض مناقشات جادة حول ما إذا كان «النصف الآخر» المنتظر.

إذاً، كيـف بالضـبط ينتهـي الأمر بمسـلمين ملتزمين للقاء بعضـهما، وأخـيراً، الـزواج في بيئة غربية؟ كيـف يكون الأمر عادة بالنسـبة لامرأة، مثلاً، عندما تقرر أنها وصـلت إلى مرحلة أضـحت فيهـا جاهزة للزواج؟ سـيكون عليها عندها أن تخبر والديها، وعائلتها وصديقاتها بأنها «تتطلع لأن تتزوج» وأن تناقش معاييرها بشأن ذلك.

«إذا جاءكـم من ترضـون دينه وخُلقه فأنكحـوه، إلا تفعلوا تكن فتنة وفساد في الأرض».

حديث عن النبي ﷺ، رواه الإمام الترمذي، حسن.

كان يمكن لمعاييرها أن تتضـمن أساسـاً المسـتوى الدينـي الذي تتطلع إليه، نموذج الشخصـية، سـماته ومظهره، إضـافة إلى خلفيتـه التعليمية والثقافية، أي شيء تعتقد أنه سوف يساعد عائلتها وصديقاتها على إيجاد القرين المناسـب. نصـح النبي ﷺ كلاً من الرجال والنسـاء بالبحث عن شركاء متدينين، يكون إسلامهم قوياً. هذا يعني أن المرأة المسلمة الملتزمة سـتبحث عن رجل ذي شخصـية طيبة، نبيل ولطيف، كريم وصـبور، رجل يخاف الله، يصلي، يصوم ويطيع مولاه سراً وعلانية.

بعد ذلك، سيقوم الناس إما باقتراح شركاء محتملين أو البحث عنهم. لهذا ربما يكون لدى شقيق الفتاة صديق، أو لدى صديقتها شقيق، يمكن أن يصبح قريناً مناسباً. يتبع هذه المرحلة عادة مدة تحقق. نيابة عن الفتاة، تطرح العائلة والأصـدقاء أسـئلة عن الرجل في «محيطه الطبيعي»، وتكّون فكرة عن شخصـيته وكيف يتعامل مع الآخرين. يسـألون أيضـاً أشخاصاً آخرين يعرفونه ويحصلون على معلومات منهم.

إذا حصل الأخ على موافقة كل المهتمين، يقوم والد الفتاة أو وليّها بالاتصال به أو بوالديه. ثم، إذا كان مهتماً وكان الولي والعائلة راضين، يلتقي الشابان بحضور شخص ثالث. ونظراً إلى أن المسلمين يشجعون الزواج من شخص يجدونه جذّاباً من الناحية الجسدية، يمنحهما هذا اللقاء فرصة اكتشاف ما إذا كانا ينجذبان إلى بعضهما. سيحظيان أيضاً بفرصة لمناقشة الأشياء المهمة لهما وطرح أي أسئلة قد تكون لديهما. في الواقع، يستطيع الثنائي المحتمل اللقاء ببعضهما قدر ما يرغبان، بناءً على الظروف. على أي حال، يتلقى المسلمون دائماً نصائح بعدم الإكثار من اللقاءات قبل الزواج فعلاً. هناك عدد من الأسباب الوجيهة لهذا. إحداها، وفقاً للشريعة الإسلامية، أن كلاً من الشخصين المعنيين ليس حلالاً بالنسبة للآخر، وليس مسموحاً لهما قضاء وقت اجتماعي أو الوجود معاً وحدهما، ورسمياً، يكونان ما يزالان مثل أي رجل وامرأة مسلمين آخرين غير مرتبطين ببعضهما. من الواضح وجود تواصل اجتماعي، في أثناء تلك اللقاءات، والذي ينبغي أن يبقى في حدوده الدنيا، ومن ثم تقليل فرص السلوك غير الملائم. ليس نادراً أن يقع ثنائي ملتزم عادة في الزنا (اتصال جنسي غير شرعي) بسبب لقاءاتهما الكثيرة التي قادتهما إلى الغواية. في لحظات معينة، تسيطر الغرائز، ويتم نسيان كل الأحكام، والتحذيرات والعواقب. ولا يريد أي مسلم ملتزم أن يفقد السيطرة على نفسه أو نفسها بتلك الطريقة.

يبدو انتقاء الشريك بناء على الانجذاب العاطفي له أو لها طبيعياً وإيجابياً لمعظم الناس. لكن مشاعر مثل الحب والرغبة لها طريقة في رسم الصور، تغذية الخيالات ونسج الأوهام. الرجل ـ أو المرأة ـ الذي

تقعـون في محبته أو ترغبون به ليس بالضـرورة شخصـاً صـادقاً، جديراً بالثقـة، كريماً، لطيفاً ومسـؤولاً، وليس بالضـرورة مـادة زواج جيد. لهذا بإبعاد المشـاعر، يستطيع المرء تقييم شخص بطريقة سليمة منطقية، وأن يرى بوضـوح نقاط ضـعفه وقوته، ويمكنه لاحقاً اتخاذ قرار منطقي. لكن أحيانـاً، بالطبع، تعرفين أنه لا فائدة إطلاقاً من مجرد التفكير بلقاء ثانٍ، ليس هناك شعلة على الإطلاق!

كنت أنا وصـديقاتي محظوظـات؛ لأننا حظينا بصـفوة منتقاة عندما كنـا نتطلـع لأن نتزوج. عندمـا كان الإخوة يثيرون معنا الموضـوع، كنا إما نقبل أو نرفض. لم يكن ذلك يتفق والشكل النمطي للفتاة المسلمة التي يتم دفعها إلى زواج مُدبّر. كان ذلك يعود في سبب منه إلى حقيقة أننا، معتنقي الإسلام، نعملُ باستقلالية كبيرة. برغم أنني وصديقتي سارة كان لنا الولي نفسـه، لكن لأنه ليس أحد أفراد العائلة، لم يكن يستطيع إرغامنا أو منعنا عن القيام بشيء نشعر بأنه صحيح. أيضاً، لم نكن عُرضة لتأثيرات عائلية قوية ولهذا كنا مسـتقلتين تماماً في قراراتنا. لطالما فكرت بأن ذلك شـيء جيد، كما تعرفون، شابة مستقلة تشق طريقها بنفسها. هذا ما كانت عليه الحال حتى بدأت أرى أمثلة عن تلك الاسـتقلالية نفسها تذهب في الاتجاه الخاطـئ. في المجتمع الذي انتقلت إليه، لم تكـن أغلبية عائلات الفتيات، سـواء كانت غير مسلمة أو غير ملتزمة، تتدخل في قراراتهن. لهذا شهدت أخوات يتزوجن إخوة دون سؤال عنهم. رأيتهن ينخدعن بالمظاهر. رأيتهن يتخلـين عن حقوقهن ــ المهر الذي يرغبن بـه، العقد، النفقـة ـ لأنهن لم يكن يمتلكن المعرفة (أو الشـجاعة) للإصرار على نيل حقوقهن الشرعية. وجعلنـي ذلك أفكر بجدّية بشـأن دور العائلة في الزواج الإسـلامي وكيف يمكنها حمايتكِ جيداً.

في كل المجتمعات تقريباً خارج الغرب، لطالما كان الزواج شـأناً عائلياً، وليس قـراراً فردياً. هذا يعنـي أن العائلات تلعب دوراً فعالاً في مسـاعدة أبنائها على اختيار الشـريك. ولم لا؟ بالمحصلة، الزواج عروة بين عائلتين بالإضافة إلى شخصين. لهذا أردت مناقشة قضية «التطلع إلى الزواج» مع امرأة تحظى بمثل ذلك النظام الأسري من حولها، صديقتي، رابية.

قالـت لي: «لدي ميزة تتمثّـل في عائلتي. أعرف أنه سـيتم التحقق من الأخ تمامـاً، وأن عليـه تلبية بعض الشـروط، وإثبات أنه رجل مسـؤول. لم أقلـق أبداً بشـأن ذلك الجانب من الأمـور؛ لأنني أعرف أن أبي سـيتولاه. بالنسـبة لي، كل مـا كنت بحاجـة للتأكد منه هو دينه، شخصـيته، ماهية خططه للمسـتقبل، وأشـياء من هذا القبيل. أشـعر بأنني محظوظة جداً؛ لأنني أتمتع بدعم العائلة ولأنني أيضاً صعبة المنال بالنسبة للإخوة، وأكثر منعة. بعضهم لن يستطيع حتى الحصول على موافقة أبي!».

أردت أن أعـرف إن كان لا يزعجهـا قيـام والدهـا بالتدقيق في طالبي يدها. بدت مندهشة من السؤال وضحكت.

«أخ عاطل عن العمل، يعيش في منزل مع عائلته، شخص دون إمكانيات أو مؤهلات، جديد على الدين، سـيعرف أنه لا فائدة تُرجى! لأنه يعرف أن أول شيء سوف يسأله أبي عنه هو: «هل لديك عمل؟ كيف ستعيل ابنتي؟». وأريد شخصاً لديه أجوبة عن تلك الأسئلة!».

بخـلاف «الزواج المنظّم» في بعض الثقافات، لم يتم التخطيط لزواجي فيمـا كنت لا أزال طفلـة أو لقريب «في الديار». وبخـلاف النظرة العامة، لم يكـن «زواجي المنظّم» مفروضـاً علي أو جـرى التخطيط له دون علمي.

رأيت زوج المستقبل ورآني، وإن كنت أرتدي حجابي. ناقشنا قضايا متنوعة وتطور قبولنا لبعضنا ورغبتنا بالزواج.

بالفعل، الفرق الرئيس بين الزواج المنظّم ثقافياً والزواج الإسلامي هو في عنصر الاختيار. تاريخياً، وعبر العالم، كانت تتم خطبة الأطفال إلى بعضهم، وأحياناً منذ الولادة، ولم يكن الزوجان غالباً يلتقيان بعضهما سوى في ليلة الزفاف، بعد إتمام المراسم. كان عقد الزواج يتم لتأمين عروش، ضم عائلات قوية، تحسين النسل، تقوية الروابط العائلية، وكان يتم دفع المهور للعائلات. في كل تلك الحالات، كان يُتوقع من الشباب الإذعان لقرارات العائلات، وكانوا مجرد بيادق في لعبة أكبر منهم. حتى اليوم، في العائلات الآسيوية وغيرها، الزواج المنظّم مرادف للزواج القسري، مع وجود ضغوط عائلية ومجتمعية تضمن قبول الأولاد للشريك الذي يختاره أهلهم دون نقاش.

النسخة الإسلامية الصحيحة عن «الزواج» المنظّم مختلفة تماماً. وفقاً لسُنّة النبي ﷺ، الزواج الذي لا يحظى بقبول الرجل والمرأة لا يعد شرعياً. ولا يمتلك أحد السلطة لعقد زواج نيابة عن ابنه. إضافة إلى ذلك، ينبغي أن يلتقي الثنائي ويشاهدان ما إذا كانا يرغبان ببعضهما. المهر هدية يمنحها الرجل لعروسه المستقبلية جزءاً من الزواج. بخلاف ما هو شائع في ثقافات أخرى، هذه الهدية لها وليس لعائلتها.

لهذا، يقع «الزواج المنظّم» الإسلامي الحقيقي في منتصف الطريق بين الزواج القسري المقيد وعالم الاختلاط الحر، المواعدة والسكن المشترك.

لطالما اعتقدت بوجود الكثير من المزايا في البحث عن زوج بالطريقة الإسلامية. أي شخص كان قد قضى سنوات في بناء علاقة تصل إلى

مرحلة ينقلب فيها الرجل ويقول: إنه «ليس مستعداً للالتزام» سيقدّر البساطة الجميلة لرجل يتكلم بشكل مباشر: إذا كان مستعداً للزواج، فسيطلب يدكِ؛ وإن كان غير ذلك، فسيبقى بعيداً.

كلما أخبرت أشخاصاً عن «زواجي المنظّم»، كانوا يعبرون عن دهشتهم، شكوكهم ويبدون قليلاً من الحسد: «هل تعنين أنك لم تكوني وحدك معه أبداً؟ لم تمسكي بيده إطلاقاً. عرفت أنك ترغبين بالزواج منه بعد ثلاثة أيام من لقائك به؟». سألت هاجر عن مزايا الزواج على الطريقة الإسلامية، وقالت: «التخلّص من كل الترّهات! كل هراء التظاهر، والادعاء بأنكِ شخص مختلف، ومحاولة إسعاد شخص والارتقاء إلى مستوى توقعاته».

غني عن القول: إن الطريقة الإسلامية تخلو من مشكلاتها وخصائصها المميزة. هناك دائماً فرصة لأن يقدم الأخ صورة زائفة عن نفسه، يتظاهر بأنه تقي ويخاف الله فيما يكون في الواقع وحشاً شريراً، ويعمد إلى تدمير حياتكِ! من الواضح أن العامل الحاسم يتمثّل في قيامكِ وعائلتك بالتدقيق جيداً في الأزواج المحتملين وخلفياتهم.

يحدث أحياناً أنه بعد استيفاء كل الشروط، لا يكون الرجل على المستوى المطلوب من ناحية المظهر. يمكن لذلك أن يسبب القلق فعلاً؛ لأن الجاذبية الجسدية تُعدّ عاملاً مهماً!

«كانت إحدى أكبر بواعث القلق بشأن ما سيكون عليه مظهره، هل سيعجبني؟ هل سأعجبه؟ كنت مهتمة كثيراً بألا يكون ذلك الرجل «مناسباً» لي» صفوة.

في الشريعة، وضع الله قواعد وإرشادات لكل علاقاتنا، في ديننا وحياتنا الدنيوية. لهذا هناك إرشادات للبحث عن الزوج أو الزوجة المناسبة بالطريقة الإسلامية. لا تتوافق الإرشادات الآتية مع الشريعة فحسب، وإنما جرى اختبارها أيضاً: تستند أساساً على تجاربي وتجارب أخواتي.

- لتكن النية صافية. انوي الزواج إكراماً لله، لتحقيق ما أمر به وعبادته أكثر. إذا كانت نواياكِ موضع شك، مثل محاولة الحصول على جواز سفر بريطاني، إدخال شخص إلى البلاد أو تحطيم زواج شخص آخر، فلا تتوقعي أن يبارك الله بزواجكِ!

- اعرفي حقوقك وواجباتك. كونك مسلمة، ينبغي أن تعرفي كل ما يتعلق بأمر ما قبل الإقدام عليه، تأكدي أنك تعرفين كل شيء عن الزواج الإسلامي ومتطلباته. افهمي حقوقك وحقوقه، واستعدي، ذهنياً على الأقل، للوفاء بتلك الحقوق!

- لتكن عائلتك إلى جانبك. حاولي عدم إبعاد عائلتك (سواء كانوا مسلمين أم لا) لأن دعمهم مهم. حتى إذا لم يكونوا يستطيعون الاشتراك في عملية الاختيار، حاولي إشراكهم في احتفالات الزفاف والمناسبات الأخرى إذا استطعت. وجود عائلة قوية خلفك يعدّ أيضاً حافزاً إضافياً للأخ؛ ليأخذ الأمر على محمل الجد ويحترم قراراتك.

- قومي بما ينبغي عليك. فكّري بالزواج على أنه استثمار. إذا كان لديك 100.000 جنيه للاستثمار في شركة معينة، ستقومين بأبحاث عنها، وتدققين بشخصيات المديرين، سجلاتهم الماضية،

مراجعهم وسمعتهم. بشكل مشابه، عندما تتطلعين إلى الزواج من شـخص مـا، ينبغي أن تقيّمي نفسـك بالطريقة نفسـها إن لم يكن أكثر. خـذي وقتكِ لتفقـد أحـوال الأخ، اطرحي الأسـئلة، واجعلي صـديقاتك يطرحن أسـئلة، اسألي أصدقاءه، أسـاتذته، أشخاصاً آخريـن يتعامـل معهم، حتـى إذا اسـتغرق الأمر بعضـ الوقت. لا تتسرعي أبداً عند اتخاذ هذا النوع من القرارات.

- ليكن الأمر طاهراً. احذري الاقتراب من الزنا، العلاقات الجنسـية خـارج الـزواج. لا تتخلي عن حذرك تماماً، ولا تقض سـاعات على الهاتف ولا تجتمعي به وحدكما. ليس فقط أن ذلك ليس مسـموحاً، لكنـكِ قد تجدين نفسـكِ في موقـف مثير للشـبهات إذا كان هناك انجذاب كبير بينكما.

- كوني صادقة. قولي الحقيقة حول ما تستطيعين تقديمه وما تتوقعينه من زوجك. شجّعيه لأن يكون صادقاً معك بشأن توقعاته، لا تفترضي أبداً أنه سيسافر حول العالم ويقيم في فنادق فخمة كل عطلة نهاية أسـبوع، أو أنـه لن يفعـل ذلك. ليس كل الرجال المسـلمين سـواء، وكذلك النسـاء المسـلمات. إذا كنت من النوع الذي يحب البقاء في المنزل دائماً، فأوضحي ذلك. إذا كنت تتوقعين أن تتابعي دراستك، فأوضحي ذلك أيضاً. إذا تزوجتِ وفقاً لمزاعم زائفة، فسوف يسبب هذا الكثير من المشـكلات. آخر ما تريدينه هو الزواج من شـخص يتوقع الاقتران بالسـيدة كليفر، ربة منزل رائعة، ويكتشـف أنها في الواقع مارثا ستيوارت، أسطورة الأعمال!

- لا تبيعي نفسكِ رخيصة. كوني واقعية بشأن عقدك ومهرك. إذا كانت هناك أي شروط تريدينها في عقدك وتتفق مع الشريعة الإسلامية، فلا تشعري بالخجل من تضمنيها فيه. لا تطالبي بمهر مستحيل؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك. من ناحية أخرى، لا تبخسي من قيمة نفسكِ. المهر حق لكِ، وليس لأحد أن يقيد ذلك. لا يضر برجل أن يكدح قليلاً للفوز بك، فقط لا تطلبي ثروات أمراء العرب إذا كان الشخص الذي سيصبح حبيبك يقود حافلة!

- قومي بأداء صلاة الاستخارة، وهي الصلاة الواجبة عند التماس عون الله في اتخاذ قرار. عندما ترغبين باتخاذ أي قرار، صلّي ركعتين وتضرعي باستخارة إلى الله؛ ليهديك سواء السبيل. إذا لم يكن الزواج خيراً لكِ أو لدينكِ، فستجدين عقبات في طريقكِ وتعرفين أنه ليس الشخص المناسب لكِ.

بعد اتخاذي القرار برغبتي الاقتران بزوجي (بعد ثلاثة أيام من لقائه!) صلّيت صلاة الاستخارة وانتظرت نوعاً من الإشارة. اتصلت في اليوم اللاحق بوالدتي لإطلاعها على نواياي. لطالما كانت والدتي تقول: إنها لا تريد سماع أي كلام عن الزواج قبل أن أبلغ السابعة والعشرين، ولأنني كنت في الثانية والعشرين فقط، كان مفهوماً شعوري بالعصبية. لكنها قالت لي: «هل تعرفين أمراً؟ لا أعرف السبب، لكن راودني شعور جيد بشأن هذا الشخص». واعتبرت تلك إشارة جيدة، إذا كنت قد رأيت واحدة أصلاً!

● ثقي بالله. اعرفي ذلك، إذا كنت مخلصة في طاعة الله والتقيد بما أمر به، فسيباركك ويجعل زواجك ناجحاً. لا تقلقي كثيراً بشأن ما قد يحدث أو ما يحمله المستقبل، ثقي بأن الله سيحميكِ، وحافظي على التواصل معه بذكره، التضرع له وفعل الخير.

كان زواج الأغلبية العظمى من أخواتي «منظماً»، وعشن لسرد الحكاية. التقت أم تسنيم واقترنت بزوجها في غضون أسبوع واحد، وقصتها لا تفشل أبداً في إثارة سعادة المسلمين ودهشة غير المسلمين. كانت ابنتها من زواج سابق تبلغ من العمر ست سنوات في ذلك الوقت، وبعد عدّة لقاءات غير ناجحة مع إخوة غير مناسبين، كانت على وشك التخلي عن الأمر عندما عرفت عن أخ جديد على المجموعة: كان طالباً في جامعة إسلامية، يدير عملاً صغيراً، ذا طبيعة لطيفة ويبحث عن زوجة. كان كل من يعرفه يذكره بالخير، وأدركت أن عليها أن تلتقي به! حسناً، انتهى بها الأمر بلقائه، وعندما سألته عن شعوره بشأن الاعتناء بطفلة رجل آخر، قال الكلمات التي كانت تتوق لسماعها، كلمات لم يذكرها أي رجل آخر: أن الذي يعتني بيتيم سيكون مع النبي ﷺ في الجنة. كما يقول الحديث: (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وأشار إلى السبابة والوسطى) كانت تلك كلمات جعلت قلبها يذوب، وكما قال لها آخرون، عرفت مباشرة أنها تريد الزواج منه. ألحّت ابنتها، التي لم تكن سعيدة بكل الرجال الآخرين الذين التقتهم أمها من قبل، عليها بأن تتزوجه لأنه «الشخص المناسب». وفي الواقع، كان الأخ المذكور مستعداً للزواج منها دون حتى أن يرى وجهها! على أي حال، رآه للحظة قصيرة، وتزوجا بعد أسبوع. بعد ست سنوات والمزيد من الأطفال خلال تلك المدة، ما يزال وجهها يشع ألقاً عندما تسرد القصة.

حب لا مثيل له

مناقشــة موضــوع الحــب مــع مجموعــة مــن الأخــوات تجربــة مثيرة للاهتمام، والتي تصبح أكثر حدّة عندما ندرك حقيقة أن العالم الخارجي يعد أنه ليس لدينا «تلك الأنواع» من المشــاعر. بالمحصــلة، متى كانت المرة الأخيرة التي شاهدتم بها ثنائياً مسلماً، المرأة ترتدي النقاب والزوج يطلق لحيته ويرتدي ثوباً أبيض، يمســكان أيدي بعضــهما، يتعانقان أو، سأتجرأ على القول: يقبلان بعضــهما علانية؟ صــحيح، لم تروا شيئاً مماثلاً أبداً. لهــذا لن يفاجئني إذا كان الانطباع الكلي عن الزواج الإســلامي التقليدي بأنه ســيطرة وإذعان، قواعــد وأنظمة، غير ممكن وغير مســموح، واجب ومعاناة. كيف يكون هناك مســاحة للهوى، الرومانســية، المودة والحب في مثل هذا الاقتران الجاف المنظّم سلفاً؟

عنــدمــا نعتنق الإســلام، لا يتخلص معظمنا من كل الأفــكار والتقاليد التي نشأنا معها. إحدى أكثر الأفكار تغلغلاً في الثقافة العامة الغربية، التي نشــرتها الأفلام، والكتب والموسيقى، بســيطة: «الحب يجعل العالم يدور». منذ سن مبكرة، وعبر الحكايات الخيالية وتجارب الطفولة الأخرى، تتعلم الفتيــات أن ينتظرن اســتعداداً لـ«حب حياتكِ». كنــا جميعاً نؤمن بـ«الحب من النظرة الأولى» في وقت ما، و«الحب يتغلب على كل شيء» وأهمية العثور على «حبك الصــادق حقاً». نظرة خاطفة على الثقافة الشــعبية لأي حقبة ســتؤكد على مركزية الحب من نظرة العالم الغربي. لهذا ماذا عن الحب والرومانسية عندما يعتنق المرء الإسلام؟

برغم أنه قد يحمل خصائص مشابهة مثل اللطف، والرومانسية والمودة، إلا أن الحب الإسلامي مختلف عن الحب في الجاهلية، «وقت الجهل» قبل الإسلام. في الجوهر، يستند الحب في الإسلام على الحب في الله، وهذا يعني محبة ما يحبه الله في الشخص: الإيمان، والإذعان، والتقوى، والأخلاق الإسلامية، والشخصية الطيبة والدين القوي. تحتل هذه المزايا في الشخص الأولوية على الخصائص المادية أو الدنيوية الأخرى.

خلال أمسية ممتعة للغاية من النقاش، والاعتراف والضحك، أخبرتني غانية أن: «الفرق بين الحب في الإسلام والحب في الجاهلية هو أنكِ في الإسلام تحبين في الله، فيما في الجاهلية تحبين وحدكِ؛ لأن قلبك وغرائزك تنجذب إلى ذلك الشخص».

أضافت كلير المال، والمكانة، والامتيازات والجنس؛ لكن في مزاجٍ أكثر صفاءً، كانت غانية مرتاحة وتابعت قائلة: «شخص يبدو مثل براد بيت، شخص ثري جداً أو [كما قالت بلهجة لاهوري التي تجيدها] شخص يكون طبيباً أو مهندساً أو طياراً أو مهماً يسعد والديكِ». كانت هناك ضحكات إقرار وموافقة من النساء الأخريات.

«في الجاهلية، تؤثر عليكِ كل أنواع العوامل، طموح والديكِ، القيم التي نشأت عليها. في حالتي، كانت تلك تتعلق بالمؤهلات، المهنة الجيدة، وربما التدريب الفكري أو الأكاديمي بشيء ما، أشياء ضحلة، حقاً. كان صعباً جداً بالنسبة لي الابتعاد عن طريقة التفكير تلك عندما بدأت الالتزام بادئ الأمر. عندما ازداد إيماني وفهمي للإسلام، تعلمت وضع ثقتي في الله. توقفت عن التعلّق

بالصورة والمظهر، وأدركت أن الجميل في الرجل مدى عبوديته لله. عندما التقيت زوجي أول مرة، لم يكن فيه أي من الأشياء التي كنت سأبحث عنها في الجاهلية، لكن بدلاً من ذلك كان يتمتع بمجموعة أخرى من القيم والخصائص التي تبدو أكثر جمالاً لي الآن بعد أن تعلمت أن أحب ما يحبه الله» سارة.

الحب في الله أعلى منزلة بطرق عديدة من الحب لأجل الآخرين، ولأسباب أكثر أنانية. أولاً، الحب في الله لا يتقلّب وفقاً لأهوائك ورغباتك إنه ثابت، طالما أن الشخص الآخر يبذل ما بوسعه أيضاً لإرضاء الله. ثانياً، ذلك الحب من النوع الذي يدفع الشخص لمنح الشريك حقوقه، حتى إذا لم يكن يشعر نحوه بذلك.

كما يقول الله:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19].

«إذا كان يخاف الله، إذا كان يعبد الله كما ينبغي له، فسيعاملك بالمعروف؛ لأنه يعرف أنكِ أمة الله وأنه عبد الله. سوف يسأله الله حول طريقة معاملته لك وكيف كنت زوجة له، لهذا يعود الأمر كله إلى الله» غانية.

غالباً، يميّز الناس بين «زواج الحب» و «الزواج المنظّم»، كما لو أن الاثنين متعارضان. بحلول الوقت الذي كنت فيه على وشك الزواج بنفسي، كنت أعرف أن ذلك ليس صحيحاً. يعتقد معظم الناس أن الحب

ينمو من اهتمامات مشتركة، قضاء الوقت معاً والعلاقة الجسدية. برغم أن هذه الأشياء قد تزيد الحب، إلا أننا نعتقد، بوصفنا مسلمين، أن الحب مثل بذرة يزرعها الله الودود في القلوب. لهذا، الله من يجمع القلوب معاً ويضع الحب فيها. ولهذا نؤمن بأننا سنحظى بأزواجٍ محبين، حتى إذا لم نكن نعرفهم، ولم نفعل ما من شأنه جعل ذلك الحب ينمو. لكن كل النوايا الصافية، التضرعات الخافتة في السجود، بذل أقصى جهد في طاعة الله، وحتى اللمسة الأكثر رقة، تلك هي الأشياء التي تجعل الحب بين المسلمين مباركاً.

نكاحي

بعد الكثير من الأخذ والرد بشأن الموعد ـ أولاً في رمضان، ثم أيلول، ثم آب، ثم نيسان وأخيراً في شباط ـ استيقظت في اليوم الأول من نكاحي ـــ يوم زفافي ـ ممتلئة إثارة. كانت زميلتي العزيزة في السكن، حياة، قد أعدّت إفطاراً خاصاً لي، حبوب مع فراولة طازجة وعصير برتقال بكأس مزيّن. كانت لدي عباءة جديدة بلون خاكي (أسمر ضارب إلى الصفرة) مصنوعة خصيصاً لهذا اليوم وارتديتها مع وشاح عريض من الحرير الصيني بلون الباذنجان. على أي حال، مقارنة بالاستعدادات التقليدية لزفاف إسلامي، كان زفافي بسيطاً للغاية: كنت قد أقمت حفلة حنّة قبل أسبوع، وقامت أخت سودانية بتزيين يديّ وقدميّ بأشكال حنّة داكنة. لم يكن هناك تعطير للجو بشذا خاص، البخور، لساعات في النهاية، لم يكن هناك حمام بخار، لا تشميع لليدين والساقين لإزالة الشعر الذي ينمو هناك، لم يكن هناك تجمع كبير للعائلة، لا قدور كبيرة من الطعام الذي

يتم طهيه، لا أقارب من كل أنحاء إنكلترا ومن أرجاء العالم. كانت مناسبة هادئة وبسيطة. تزوجت زوجي في قبو مكتبة إسلامية، محصورة بين كتب الشيخ البخاري من جهة والحاسب من جهة أخرى. كان ذلك هو نكاحي.

الزفاف

النكاح هو الاحتفال البسيط الذي يشهر الزواج الإسلامي. يحضر فيه العريس وولي المرأة، معاً مع العروس وأحياناً الأصدقاء وأفراد الأسرة الآخرين. يتم إعلان عقد الزواج والشهادة عليه. يتم تحديد المهر والشهادة عليه. وهذا كل ما في الأمر.

مقارنة بالزفاف الغربي التقليدي، النكاح الإسلامي مقتصد في الاحتفال والنفقات.

عقد الزواج مشابه لاتفاق الزفاف. فيه، تضع المرأة شروطاً معينة ينبغي أن يوافق ويوقع عليها زوجها قبل إتمام الزواج، والتي ربما تتضمن نصوصاً بشأن العمل، الزواج من أخرى، مغادرة البلاد، بالمختصر، أي شرط ترغب المرأة به يكون موضع احترام ويتم تنفيذه. يعد عدم الوفاء بشروط عقد الزواج أساساً للطلاق في الشريعة الإسلامية.

المهر يشبه ما هو موجود في ثقافات أخرى، ما عدا أنه يتم تقديمه للعروس وليس لعائلتها. تستطيع طلب مهر كبيراً (أو قليلاً) حسب رغبتها، سواء كان مالاً أو غير ذلك. تتضمن بعض أمثلة المهر معرفة بالقرآن أو شيء ديني آخر (الذي ينبغي تعليمه لها)، أموالاً، ذهباً ومجوهرات، كتباً، ملابس، أدوات منزلية أو رحلات. في حالة أم تسنيم، كان جزء من مهرها رحلة إلى المملكة العربية السعودية لأداء العمرة.

برغم أن النكاح عادة شأن خاص يتم بهدوء، إلا أن الوليمة، احتفالية الزفاف التي تتبعه، على النقيض تماماً من ذلك. هدفها الإشهار علانية أن الشخصين متزوجان الآن وقد حان وقت الاحتفال والمرح، ويتم فيها تقديم الطعام وتغني فيها النساء والأطفال ويضربن على الدف، (الطبلة اليدوية)، بين أنفسهن.

أتذكر أول مرة ذهبت فيها إلى وليمة. كانت كل الأخوات يخططن لما سيرتدينه منذ أسابيع، وفي النهاية، كان لون الأمسية وردياً: بذلات وردية، سروال وقميص ورديان، تنانير وردية موشحة باللون الذهبي، غوغورات، وساري وردي. تألقت الأخوات بمودّتهن وزينتهن المنتقاة بعناية، وتلألأت آذانهن بالأقراط، وتثاقلت أيديهن وأناملهن بالذهب والفضة، بذلن جميعهن جهدهن. بعد تناول طعام شمال أفريقية الشهي، ذهبت العروس لتغيّر ملابسها، وفقاً للتقاليد في حفلات الزفاف الجزائرية والمغربية. نظّمنا الفتيات الصغيرات لمرافقتها إلى الطابق الأعلى فيما قمنا بتشكيل صفّين استعداداً لاستقبالها. صعدت السلالم، رأسها مغطّى بقلنسوة جلابيتها المغربية المزركشة. صعدت معها أخت، تضرب على الطبلة اليدوية، وحالما دخلت الغرفة، بدأنا نشدو بأغنيتها المفضّلة، الأغنية التي كنا قد كتبناها لها، مع اسمها كلازمة. كان عليها أن تستدير في المنتصف عدّة مرات قبل أن تجلس على الدثار المجهّز خصيصاً لها. ثم غنينا، سردنا القصص، زودناها بالنصائح، رقصنا وغنينا مرة أخرى، حتى وقت متأخر من الليل. حتى هذا اليوم، تبتسم تلك الأخت عندما تتذكر الوليمة، يوم اجتماع الأخوات، المرح والضحك الذي شهد دخولها حياة الزوجية.

7

الجانب الآخر من النكاح

إذاً لقـد تزوجـتِ. أنتما هناك، غريبان في الواقـع، وحدكما معاً للمرة الأولى. هل هناك أي طريقة لوصـف التوتر، الخجل، رهبة التوقّع والتردد التـي تطبع تلـك الأيام والليـالي الأولى بطابعها؟ بينمـا «رهبة المتزوجين حديثاً» شـيء لم يعد معروفـاً فعلياً في الغرب اليوم، الأيـام الأولى للزواج الإسـلامي مليئـة بالاستكشـاف والاكتشـاف، الإثـارة والتسـاؤل: أنتمـا شخصان يتعرفان على بعضهما، روحياً، وذهنياً وجسدياً. غالباً، ستكونين أنت وزوجك تعيشـان معاً، برغم أنه ليس غير شائع أن تتأخر هذه المرحلة حتى تجدا منزلاً جديداً تسكنان فيه. بالنسبة للكثير من المتزوجين حديثاً، «مدة المودّة» تلك رائعة تماماً. يمكنكما أن تتعاملا مثل صديقين وعاشقين وليسـ زوجاً وزوجة؛ لأنكما تسـتطيعان فعل كل ما ترغبـان به معاً دون أن تتعرضا للضـغوط وكل المسـؤوليات التي ترافق ذلك. إنه وقت التعوّد على بعضـكما، والتعرف إلى بعضـكما أكثر، الخروج في نزهـات، والذهاب في «مواعيد»، وأن تكونا حبيبين شابين، إنه وقت مبارك للاكتشاف.

احتفالات الزفاف و «المواعدة» شـيء رائع للغاية، لكن عاجلاً أم آجلاً، سـتبدأ مرحلة ما بعد «شـهر العسـل». كوننا اعتنقنا الإسـلام، أعرف أنا وصديقاتي من كل أبحاثنا أن الزواج في الإسلام يقوم على حقوق وواجبات، ونظراً إلى أنها أشياء فرضها الله، ينبغي أخذها على محمل الجد.

لهذا، ما نوع الاتفاق الذي نعقده بهذا الشأن؟

الحقوق والواجبات في الزواج

لا فائدة من أي نقاش للحقوق والواجبات إذا لم يأخذ المرء في الحسبان أنه، في رؤية الله، الرجال والنساء متساوون. إنهم يستحقون الثواب نفسه على فعل الخير وينالون العقاب نفسه على فعل الشر. بالفعل، كانت أم سلمة، إحدى زوجات النبي ﷺ، التي سألته لماذا يشير الله دائماً إلى الرجال في القرآن، السبب في نزول الآية:

﴿أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195].

وأيضاً الآية:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

المرأة المسلمة ليست مستثناة من أي أعمال عبادة ـ صلاة، صيام، دراسة الدين، الذهاب إلى المسجد، دفع الزكاة ـ إلا عندما يكون هناك مانع جسدي خاص بالمرأة، مثل الحمل، الحيض أو النزيف اللاحق للولادة. كما هو متوقع من الرجل أن يدرس الدين، ينبغي عليها أيضاً أن تتعلم قدر ما تستطيع من الدين، تبذل أقصى جهدها لإتقان صلاتها، تبقى مخلصة وتقوم بأفعال الخير. ما هو مطلوب من المرأة ليس مختلفاً عما هو مطلوب من الرجل. بخلاف المعتقدات الأخرى، ليس هناك أي جدال في الإسلام

حول امتلاك المرأة للأرواح أو مسـؤوليتها عن «سقوط الإنسانية» أو، فيما يخص ذلك الأمر، كونها شـريرة بطبعها وتميـل للوقوع في الخطيئة. هذا شـيء لا يعيـه الكثير من الناس، لكنـه بالتأكيد شـيء لطالما كان يمنحني سلواناً كبيراً.

برغـم أن الرجال والنسـاء متسـاوون روحياً، إلا أنهـم يقومون بأدوار اجتماعيـة ويتحملون واجبات مختلفة في الإسـلام. لهـذا، يتمتعون أحياناً بحقـوق مختلفـة عـن بعضـهم. ضـمن الـزواج الإسـلامي، دور الرجـل ومسـؤولياته مختلفة تماماً عن تلك الخاصـة بالمرأة. هذا يعني أن حقوق الزوج والزوجة متمايزة أيضـاً عن بعضـها وتُكمل كل منها الدور المختلف الذي يقوم به كل منهما.

إضافة إلى الحقوق التي تتمتع بها كل امرأة بموجب الشريعة الإسلامية، مثل حق الملكية، الثروة والهوية القانونية، وتتضمن حقوق الزوجة معاملتها بالمعـروف وتلبيـة كل حاجاتها من طعـام ولباس ومنزل كما يـأكل ويلبس وحيـث يسـكن زوجها. لها الحق في العلاقة الجسـدية وإنجـاب الأطفال. إنها مسـؤولة عن تربية الأطفال وإدارة المنزل، وفي يوم الحسـاب، سـوف يسألها الله عن ذلك:

> «كلكـم راعٍ وكلكم مسـؤول عن رعيته، الإمام راعٍ ومسـؤول عن رعيته؛ والرجل راعٍ في أهله ومسـؤول عـن رعيته؛ والمرأة راعية في بيت زوجها ومسـؤولة عن رعيتها؛ والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته. كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته».
>
> حديث ورد في صحيح البخاري.

في الإسلام، لكل مجموعة اجتماعية قائد، ذكر أو أنثى، ويكون شخصاً مسؤولاً عن العناية بالآخرين، سواء في الدولة، المسجد، العمل أو المنزل. وبرغم أن ذلك الشخص مطالب بالتشاور مع أفراد المجموعة الآخرين، إلا أن القرار النهائي يقع على عاتقه أو عاتقها ومسؤول أمام الله عن ذلك. مثلاً، امرأة تدير عملاً ستكون مسؤولة عن معاملة موظفيها، عن التعاملات الصادقة لذلك العمل والإدارة الجيدة للشؤون المالية.

يرأس الزوج وحدة العائلة الإسلامية. برغم أنه ليس، على أي حال، المسؤول الوحيد عن صالح كل أفرادها الروحي، والجسدي والمالي، إلا أنه من يتحمل المسؤولية النهائية وسوف يسأله الله عن ذلك.

يتمتع الزوج بحق العناية بحاجاته في منزله، الطهي والتنظيف وإصلاح ملابسه. بدت واجبات الزوجة هذه عتيقة الطراز بالنسبة لي، لكني سرعان ما علمت أن موقف الإسلام مما يُشار إليه ازدراءً الآن بـ«عمل الزوجة» مختلف تماماً عمّا نشأت عليه. اعتناء الزوجة بزوجها وعائلتها يحوّل المنزل إلى ملاذ من الطمأنينة والسكون، وراحة من ضغوط العالم الخارجي. العناية باحتياجات زوجها تُثاب عليها المرأة بقدر ما يُثاب الرجل على العناية بها. لهذا، ليس هناك على الإطلاق وصمة مرتبطة بتلك الواجبات في الإسلام، خاصةً عند القيام بها بنية صافية. وجدت الآتي منطقياً: رجل فقير يعمل طيلة اليوم لتلبية ما أحتاجه وأريده، هل كثير عليه أن يجد وجبة جاهزة له عندما يعود إلى منزله؟ العناية بمنزلنا الحبيب؟ العناية بملابسنا الجميلة؟ لم يبدُ ذلك كثيراً. إضافة إلى ذلك، يتمتع الرجل، مثل زوجته تماماً، بالحق في العلاقة الجسدية وإنجاب الأطفال.

لكـن الزوج له حـق آخر: ينبغي أن تطيعه زوجته في كل ما لا يتعارض مع الشريعة.

تطيعه؟

تطيعه، هكذا ـ مثل طفل؟ خط تحت الكلمة، أَمَة، تطيع من؟

لن أكذب لحظة واحدة: كان ذلك السـؤال الأخير الوحيد الذي جعلني أتوقـف للتفكير! تطلـب الأمر كل إيماني ـ معتقدي ـ حتى استوضـح ذلك هنـاك وفي تلك اللحظـة. كان ذلك علـى النقيض مما نشـأت عليه، مما تعلمته، مما أردت القيام به! لم يكن لدي أم مثل مي التي أخبرتها: «عندما تتزوجين، سوف تتركيننا وتتبعين زوجك: أطيعي زوجك ...».

لم أحصل أبداً على نصيحة مماثلة، ولم أكن أرغب بذلك. كنت غريبة تماماً عن كل ذلك.

«إذا صلّت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت».

حديث عن النبي ﷺ، رواه الإمام أحمد والطبراني.

إذاً، كيـف تقبلـت الأمـر؟ بصـعوبة: مع الكثـير من البحـث الروحي، والقـراءة، ومحاولـة الفهم، وفي النهاية، الإذعان. كان عليّ تذكير نفسـي باستمرار فيما قاله الله:

﴿وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

وأدركت أيضاً مدى أهمية أن تحظى المرأة بزوج يخاف الله حقاً، شخص ليس مستبداً، طاغية يحكم منزله بقبضة من حديد. وفي شبابي، تأكدت أيضاً أن يعرف زوجي المستقبلي أنني لن أتحمّل أياً من ذلك الهراء: لن يأمرني بأن أصمت. وحتى إذا لم يكن هناك أي إشارة على أنه من ذلك النوع، لم أكن لأجازف. حذّرته عملياً في كل مرة تكلمت فيها معه حتى قال لي يوماً ما بأنه قد «فهم الرسالة، اتفقنا؟».

مضطهِد/ مضطهَد

يظهر أن هناك شيئاً في صورة الرجل الملتحي الذي يمشي مع امرأة مغطاة تثير أفكاراً عن الكبت والإذعان، عن القوي والضعيف: «أراهن أنه جعلها ترتدي ذلك الشيء!». الويل لامرأة إذا تخلّفت عن زوجها لأي سبب: «شاهدوا، إنه يجعلها تمشي خلفه، حقاً، بعشر خطوات وراءه!» وإذا كانت تحمل المشتريات وهو يحمل الطفل: «يعاملها مثل حمار، أليس كذلك؟». وإذا كان يحمل المشتريات وهي تحمل الطفل: «أراهن أنها لا ترتاح أبداً، كل ما يفعلانه هو التناسل!». يبدو كما لو أن أي عمل، بغض النظر عن أهميته، يصبح تأكيداً على الأفكار المسبقة التي يحملها الشخص. إنها قصة «الطحّان وحماره» يومياً!

كما قالت لي كلير: «يعتقد الناس، أن الرجل، في الإسلام، مسؤول عن كل شيء، أي إن المرأة المسلمة لا تختار شيئاً، وأنها تؤمر بما ينبغي عليها القيام به، وأنه ليس لديها أفكارها، أو خططها، أو حياتها الخاصة بها». كل ذلك من فم أخت يجري في عروقها دم كلتي ـ يمكن أن يقال ذلك بكل صراحة. لكن هل هناك حقاً حياة تتجاوز حقوق الزواج وواجباته؟

ما وراء الحقوق

الزواج في الإسلام ليس مجرد حقوق وواجبات، هذه فقط القواعد التي يقوم عليها. أساساً، تأتي الحقوق في المقام الأول، قبل الحب، والرومانسية وزهرة الصداقة، وتكون آخر ما يذهب، بعد وقت طويل أحياناً من انطفاء جـذوة الحب. لكن مـا وراء الواجبات والالتزامات، يوجـد فردوس، تماماً كمـا هو موجود في حالات الـزواج الأخرى في الثقافـات والأديان الأخرى. وبرغـم أن للحب بين المسـلمين دليله وشـكله في الشـريعة، إلا أنه لطيف، عذب وانفعـالي مثل أي حب آخر، تماماً كما علّمنا النبي ﷺ عندما قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم».

كمـا أخبرتني غانية: «في هذه الحياة الدنيوية، زوجي هو من يحميني، صديقي الحميم، مستشاري، سندي ومصرفي! شخص أتعلم معه، وعندما تسوء الأمور، شخص أتكلم إليه، أزواجنا هم أفضل أصدقائنا، وبرغم أننا نحب صـديقاتنا ونكون سعيدات بفعل ما يخصـنا خلال جزء من النهار، اكتشفنا أننا لا نستطيع الاستغناء عن أزواجنا؛ لأن الله بارك فينا».

> «كل مـا يمكنني قوله: إن زوجي يبدو كمن فرّ للتو من طالبان، يبدو مثل أفغاني، شـيئاً فشيئاً! لكنه أكثر الأشخاص لطفاً، محبة وروعة علـى وجه هذه الأرض، ما شـاء الله! أتمنى أن يكون لدى كل امرأة زوج مثله ... فقط لا تأخذوا زوجي!» بيغوم.

وإذا كنـت قد فكّرت بأن الزوج المسـلم سـيكون مغـروراً ومتحفظاً عن القيام بما يعده «عمل المرأة»، اكتشـفت أن الرجل المسـلم الحقيقي، الذي يسـتحق الاحترام، لا يخاف من إذلال نفسـه أو تلويث يديه! كما قالت لي

سـارة: «عندما كنت حاملاً، كنت أمرض باسـتمرار. كان زوجي يدعمني كثـيراً، ولم يكن يخيب أملي، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الأمر. ينبغي أن يكون داعماً في ذلك الدور!».

سألت أخوات عن وجهات نظرهن في الرومانسية. هل توجد في الزواج الإسـلامي؟ وماذا يعرف عنها الرجال المسلمون بالتحديد؟ قالت لي ليلى: «بالطبع هناك رومانسية، يمكنك تعليم رجل مسلم كيف يصبح رومانسياً، وأن تعلّميه كيف يقوم بذلك».

من الجدير بالملاحظة أن فكرتنا، بوصفنا أشخاصاً من خلفيات غربية اعتنقوا الإسـلام، عن الرومانسـية الغربية على وجه الخصوص، أزهار، شوكولا، عطور وذلك النوع من الأشياء. لطالما كانت لدى سارة هذه الفكرة أيضاً حتى تزوجت رجلاً عربياً جعلها تعيد التفكير في فهمها للرومانسية. قالت لي: «تشـجع الثقافة الغربية على ذلك النوع من الرومانسية. ترينها على التلفاز، تسـمعينها في الموسيقى وهي نوع خاص من الرومانسية. لكن إذا لم يكـن [الرجال غير الغربيين] منفتحـين على ذلك، إذا لم يكونوا قد شـاهدوا أبـداً مثالاً عنهـا في ثقافتهم أو مـن أهلهم، أعتقـد أنه لن يكون لديهم حقاً أدنى فكرة. وينبغي أن تشرحي لهم ذلك».

إذاً، كيف تأقلمت مع الصدمة الثقافية؟

«حسـناً، كنت منفتحة علـى الكثير من الثقافات خلال نشـأتي، وكنت أعـرف عندما تزوجت أن بعضـ الخلافات الثقافية ستنشـأ بيننا. مثلاً، إذا اشـترى لي زوجاً من الأحذية، يكون سـعيداً حقاً، تلك هي طريقته في إظهار حبه، فيما أرى الرومانسية في سياقها الغربي «عندما ترى الزهور، ينبغي أن تفكر بي!».

وهكـذا، بالرغم مما اعتبرته عقبة لا يمكـن تذليلها، إلا أنني اختبرت وشـاهدت حالات زواج إسلامي تجاوزت قضـية طاعة المرأة لزوجها، وأن الرجل رب الأسرة. هناك حالات اقتران تسودها المحبة، والأمان، والدعم والصـدق. في العـرف، يحـترم الأزواج زوجاتهم، آراءهن ومشـاعرهن؛ ويعملان معاً كفريق، ويساعدان ويدعمان بعضهما.

وهكذا بدأت أفهم أن الزوج المسلم مثل أي قائد، إذا كان فاسداً، فسوف يستفيد من أي شيء لإساءة استغلال منصبه. لكن إذا كان قائداً صالحاً، يحب الله ويخافه، فسيعمل على تلبية كل رغبات زوجته وحاجاتها، وكل ما يأمره الله به!

وهكذا، بعد الكثير من البحث الروحي والصـراع مع النفس، اكتشـفت توازنـاً بين مـا أمرني الله به والحفاظ على شـعوري بذاتـي. وبرغم أنني مطالبـة بالامتثال لرغبات زوجي، إلا أننـي كنت محظوظة؛ لأن لي ذهنية خاصـة بي، صـوت، ولباقة ودين يحميني من الاستبداد، ورجل يخاف الله أكثر مما يسعى ليحكم منزله بقبضة من حديد.

زوجات آليات

كان قد مضـى على زواجي بضع سنوات عندما رأيت مصادفة النسخة الأصـلية من زوجات آليـات Stepford Wives. أتذكـر أنني تأثرت كثيراً به: جعلني أشـعر بالضـعف والخوف. سألت صديقاتي: «هل هذا ما يريده الرجال حقاً؟ هل سيقايضني زوجي بزوجة آلية إذا استطاع؟». كانت فكرة أن الرجل، في قرارة نفسه، سيتخلى عن شخصية، موهبة زوجته وكينونتها مقابل زوجة طيّعة خانعة تعد أن سعادتها الكبرى تكمن في رؤية وجه زوجها

القانع ينعكس عن الأرضية اللامعة قد أرعبتني. مع تاريخي الخاص في الكفاح مع المناحي الإيجابية والسلبية لعلاقة الزوج ـ الزوجة في الإسلام، كان يمكن تفهّم سبب انزعاجي. اعتبرت أن الزوجة الآلية قوقعة للمرأة: تجرّدها من شخصيتها، آرائها، اهتماماتها أو حوافزها.

لكن، كما رأينا، هناك جوانب في شخصية «الزوجة الآلية» يتم تشجيع الزوجات المسلمات على الالتزام بها: طاعة أزواجنا، العناية جيداً بهم وبأطفالنا، الاهتمام بالمنزل، الاهتمام بأنفسنا وأن نبدو بمظهر حسن. لهذا حثّني ذلك على طرح أسئلة: أليست الزوجة المسلمة المثالية في الحقيقة المجردة زوجة آلية؟ وبالفعل، في تكريس نفسها لأطفالها، ومنزلها وزوجها (ليس بالضرورة بذلك الترتيب)، ألا تنافس الزوجة المسلمة الزوجات الآليات؟ إذا لم تكن تعمل خارج المنزل، فسوف تستثمر الكثير من الوقت والطاقة في تدبير شؤون منزلها، في الطهي والتنظيف والترتيب، إضافة إلى تغذية أطفالها، اللعب معهم وتعليمهم. على أي حال، العناية بشؤون منزلها ليس سبب وجود المرأة المسلمة. لقد خُلقت لعبادة الله، وبرغم أنها تستطيع تحقيق ذلك من خلال عملها في المنزل، إلا أن هناك الكثير من الطرق الأخرى التي تستطيع من خلالها تحقيق هدف وجودها. وكان عليّ أن أسأل نفسي: ألا يحب كل رجل أن يعود إلى منزل نظيف، وجبة ساخنة، زوجة جميلة وأطفال سعداء قانعين كل مساء؟ وإذا لم يكن كل مساء، الأمر الذي ربما يصبح متعباً بعض الشيء، على الأقل مرة بين الحين والآخر! بالفعل، أي امرأة لا ترغب بأن يكون لديها زوج يجد كل دعاباتها مسلية، يرغب بأن «يتحدث عنا» كلما أرادت، ينزع جواربه دائماً، ويشتري لها كل ما ترغب به زوجاً آلياً! دلّوني على المرأة التي ستقول لا!

دون أدنى شـك، يوجد رجال، مسلمون وغير مسلمين، يحلمون بتحويل قريناتهـم إلى زوجـات آليات. إنها أسـهل، أكثر مرونة وأقل صـعوبة، أقل ممـا إذا كانت «امرأة حقيقية». لكن بالنسـبة لمعظم الرجال، هذه واحدة مـن تلك الخيالات الواهمة. لأن الحقيقة، بالنسـبة لمعظم الرجال، هي أن الزوجة الآلية ستمزّقهم إرباً بعد عدّة أسابيع.

«كان زوجـي يبحـث بحرص عن زوجـة تمتلك شخصـية متميزة، امرأة ناضجة، امرأة يستطيع تبادل الأفكار معها، امرأة تدفعه إلى الأمام بطرق معينة» هاجر.

علاوة على ذلك، هناك بعد آخر بالنسبة للرجل المسلم. برغم أن الرجل المسـلم القوي الواثق من نفسـه لا يمانع ببعض الرضـوخ من زوجته، وبعض الـدلال وطعام سـاخن باسـتمرار، إلا أنه يريـد خديجة أو عائشـة. هاتان المرآتـان الرائعتان، زوجَتا النبي ﷺ، من أمهات المسـلمين، أفضـل نسـاء الخليقة. نعم، كن زوجات مسلمات طيبات لكنهن أيضاً الإثبات الأقوى الذي وجدته ضـد فكرة أن تكون الزوجة المسلمة آلية. كانت خديجة سيدة أعمال ناجحة، أكبر سـناً من النبي ﷺ، وقد اسـتعانت به لقيادة قوافلها. بعد أن أدركـت أنـه جدير بالثقة ومثابر في عمله، طلبت منـه الزواج منها. وعندما تلقـى النبي ﷺ الوحي أول مرة، إلى من التجـأ؟ إلى خديجة. من كان أول شـخص يعتنق الإسلام ويؤمن بالرسول ﷺ؟ خديجة. من اصطحب النبي ﷺ إلى وَرَقة؟ من شرح علامات النبوة له؟ إنها خديجة. لم تكن تلك زوجة آلية، تتصـرف وفقاً لبرنامج سـهل. وبعدها، بالطبع، كانت هناك عائشـة، المعلمـة التي تشـرح الشـريعة الإسـلامية، الشـاعرة والطبيبـة. كانت من رفضت أن تشكر النبي ﷺ عندما كشف الله براءتها من تهمة الزنا التي تم

إلصاقها بها، وحمدت الله بدلاً من ذلك. تحدّته، لعبت معه وفتنته. وعندما سُئل محمد ﷺ عن أحب النساء إليه، قال دون تردد: «عائشة».

هنا تكمن إحدى الفروق الأساسية بين النموذجين من الزوجات. الزوجة الآلية مبرمجة على إلغاء شخصيتها الفردية. ليس هناك في الأدب الإسلامي ما يشير إلى أن هذا مطلوب من الزوجة المسلمة، الشخصيات المختلفة لزوجات النبي ﷺ والصحابيات خير دليل على هذه الحقيقة.

أيضاً، يتم تشجيع المرأة المسلمة على دراسة دينها، حتى تتعلم وتعرف حقوقها وحقوق الآخرين. ومعرفة تلك الحقوق ينبغي أن تمنحها الثقة للدفاع عنها. هذا ليس جزءاً من برنامج الزوجة الآلية.

«برغم أنه يتم تشجيع المرأة المسلمة على العناية بزوجها، أطفالها ومنزلها، إلا أن هناك تشديداً كبيراً على تعليمها ودراستها. انخرطت العديد من الأخوات اللواتي أعرفهن، واللواتي لم يتلقين تعليماً، في تعليم جدّي ـ ديني أولاً ثم شيئاً آخر بعد ذلك، بسبب هذا. ازداد حبهن وفهمهن للتعليم، لا تجدين هذا في زوجات آليات» هاجر.

بالفعل، فقد شجع النبي ﷺ الرجل المسلم المستقيم والواثق من نفسه على الزواج من امرأة صالحة قوية ورعايتها؛ حتى تستطيع مساعدته في كل ما يتعلق بالحياة الآخرة، وأن تتعلم منه، تعلّمه، تذكّره وتساعده على طاعة الله.

لهذا نستنتج أنه برغم وجود أشياء في الزوجة الآلية ينبغي علينا بوصفنا زوجات مسلمات أن نحاول تبنيها، إلا أن الدين لا يرغمنا على

أن نكون خادمات آليات لا تفكير لهن. بالمختصـر، الزوجة المسلمة المثالية ليست زوجة آلية، إلا إن كان لديها زوج آلي، بالطبع!

لا تذكر كلمة «جنس»

لكن هناك بالتأكيد شـيء مفقود هنا؟ لقد ناقشـنا الزواج الإسـلامي بالتفصـيل، الواجبـات، المنافع، المسـؤوليات، الرومانسـية لكننا لم نذكر «الجنس» بعد!

في العالم الغربي، الجنس سلعة يتم تسويقها علانية، وبيعها وشراؤها. يسـتعمله المعلنون، يغني له المطربون، يصـنع له المنتجون أفلاماً، يؤديه الممثلون، يدرسـه علماء النفس، يكتب المؤلفـون عنه والجميع يقرأ عنه، ولا يحصـل أحد على ما يشـاء منـه كما يدّعي! هذا هـو جوهر المجتمع المنفتح جنسياً.

إذا كنا سنصـدّق وسـائل الإعـلام الجماهيرية، فلن يكـون هناك أي مفهـوم عن الكبت، الامتناع عن الكلام، التحـريم أو الخجل، هناك خواء أخلاقي كامل. فيما مضى، سواء كان ذلك للأفضل أو للأسوأ، كان الدين، والثقافة، والعائلة والمجتمع يعمل على تنظيم السلوك الجنسي البشري، إلا أن هناك خواءً الآن. ويتم تعبئة ذلك الخواء بما يناسب مصالح الصناعة والرأسـمال، مبيعات الجنس، بشـكل لم يسـبق له مثيل. يبـدو أنه في هذا العصر والأوان، وحده اللواط لم يحظ بقبول في وسائل الإعلام. لكن بغض النظر عن ذلك، هل هناك أي ممارسة جنسية لا يتم تشجيعها، قبولها أو، علـى الأقل، الصـفح عنها في هذا المجتمع؟ من الخلاعـة إلى اللواط، من الجنس الجماعي إلى السـادية، هناك مجلات، أفلام فيديو ومحال جنس توافق كل الأذواق.

في ضـوء كل هذا، يمكن أن نغفر لكل من يعتقد أن المسـلمين متشددون بشأن الجنس. بالمحصلة، تغطي النساء المسلمات أنفسهن، الاختلاط غير مسـموح، ينبغي على الرجال آن يغضوا من آبصارهم ويتم تحذيرنا بآشد العبارات من مناقشـة حياتنا الجنسـية علانية. لهذا، ما الذي يعلمنا إياه الإسـلام بالتحديد عن الجنس؟ هل هو شـيء مخجل، غير شـريف، يتم خصيصاً للتوالد، وحتى عندها، مع أعين مغلقة وفي الظلام؟

لا. إن الإسـلام يعـد، الديـن، الجنس شـيئاً رائعـاً، تعبـيراً عن الحب والتواصل بين شخصين. المهم هنا التركيز على ما يقوله الإسلام، وليس ما يفعله المسلمون. لهذا سواء كان بعض المسلمين يشعرون بالخجل من الجنس هنا وهناك، المهم هو الموقف الذي يشجع الدين المسلمين على اتخاذه.

وفقـاً لأدب الحديـث، يمكن أن يكون الجنس عملاً مـن أعمال العبادة إذا كانت النية صـادقة. إنه شيء صحي ومفيد، وينتج عنه سعادة جسدية وتناسـل، مما يزيد من عدد المسـلمين. إنه شـيء يرغب به البشـر وليس هنـاك خجل في تلـك الرغبة. إنها، بالمحصـلة، الطريقـة التي خلقنا الله عليها. لهذا يتم تشجيعنا على تلبية تلك الرغبة ضمن الحدود التي وضعها الله. هذا يعني أن المتعة الجنسـية ينبغي أن تكون ضمن الزواج. يقول الله في القرآن:

﴿نِسَـاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِـئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 223].

ضمن الزواج، لا يوجد سوى القليل من القيود على الطريقة التي يسعد بها كلا الزوجين الآخر. تتضـمن بعض هذه القيود منع الجماع في الشرج والجنس خلال مدة المحيض، برغم أن أي شكل من التواصل الذي يتفادى

منطقـة المرأة الحساسـة مسـموح في هذا الوقت. لكل مـن الرجل والمرأة الحـق باللذة الجنسـية ويتم تشـجيعهما على إقامة علاقة حب: تُنصـح المرأة بقوة على عدم اللجوء باستمرار إلى الروتين القديم «أشعر بصداع في رأسـي»، وأن تكون متجاوبة قدر المسـتطاع عندما يطلبها زوجها. يبدو هـذا منطقياً تمامـاً عندما يفكر المرء بالتأثير السـلبي للرجال المحبطين جنسياً على الانحلال في المجتمع الأوسع. يُنصح الزوج، بالمقابل، أن يقوم بالمداعبة لضـمان رضا زوجته، وألا يمارس الجماع دون قبولها؛ خوفاً من إصابتها بالإحباط، النساء المحبطات جنسياً لسن أقل خطراً على المجتمع الواسع! في الواقع، قال علامة كبير في الماضي، ابن قدامة: «يُنصح الرجل بأن يُقبّـل زوجته ويداعبها قبل الجماع؛ حتى يثيرها وتشـعر بالمتعة من الجماع بقدر ما يشعر، وإذا وصل إلى النشوة قبلها، ينبغي ألا يبتعد عنها قبل أن تصـل إلى النشـوة ... لأن ذلك سوف يؤذيها ويمنع تلبية رغبتها». كـم هو مختلف فهم هـذا العلامة الإسـلامي عن آراء الكثـير من رجال الدين في العالم الذين يعدون الرغبة، وخاصـةً رغبة المرأة، شيئاً مخجلاً وغير شريف!

بالفعل، في الوقت الذي عاش فيه النبي ﷺ، كان المسـلمون يناقشـون القضـايا الجنسية ـ من الوضعيات الجنسية إلى الاحتلام ـ ولم يكن ذلك موضـع انتقاد أبـداً. كان النبي ﷺ يعطـي دائماً أجوبة صـريحة، ويزيل الكثير من المفاهيم الخاطئة.

لهذا، موقف المسـلم من الجنس بسـيط: إنه شـيء صـحي وطبيعي له زمانـه ومكانـه. الجنس بين شخصـين علاقـة حميمة خاصـة تنتمي إلى الفضاء الخاص، ضمن الزواج، وليس على الملأ.

الزواج باثنتين، أو ثلاث، أو أربع

بعد نحو شهرين من الزواج، فكّرت في أن أطلب من زوجي الزواج بأخرى. لم يكن الأمر أنني لا أحب زوجي، الأمر معكوس تماماً. لكن، في تلك الشهور الأولى من الحياة الزوجية، عندما لم يكن لدي شقة وحدي ولا أراه كل يوم، ازداد حبي لصحبتي، والحيّز الخاص بي. أحببت الوقت الذي يمكنني تخصيصه لصديقاتي، اللواتي كنت أزورهن غالباً. استمتعت بإثارة رؤيته مجدداً بعد ابتعادنا عن بعضنا، كان ذلك يبقي علاقتنا حيوية. لكن الأكثر أهمية أنني كنت قد التقيت أختاً أضحت علاقتي بها وثيقة للغاية، وفكّرت فعلاً بأن زواجها من زوجي سيجعلها سعيدة، وكان هذا ما أردته لها. كنت مستعدة (ذهنياً، على الأقل) لأن «أشارك» زوجي معها؛ لأنني أحببتها في الله. لكن زوجي لم يكن مهتماً بالموضوع، وبعد أن بدأنا العيش معاً، تراجعت الفكرة في ذهني. لكن ذلك الشعور بالحيّز والحب الأخوي شيء لم أَنْسَهُ أبداً.

هل أن ما يتم اعتباره ربما الناحية الأكثر استبداداً في الإسلام هي في الواقع وسيلة تحرير لبعض النساء؟ موضوع تعدد الزوجات مليء بالافتراضات، بين المسلمين وغير المسلمين على حدٍ سواء. على أي حال، ستكون مفاجأة للكثير من الغربيين عندما يكتشفون أن تعدد الزوجات ليس «مؤسسة إسلامية» فقط. في معظم ثقافات العالم، مسموح للرجال ويتم تشجيعهم على الجمع بين أكثر من زوجة، وقد كان تعدد الزوجات معروفاً تاريخياً بين اليهود والنصارى، وهو أمر مارسه الأنبياء والتابعون على حدٍ سواء. حتى اليوم، في العديد من المجتمعات، وحتى في مجتمعنا، لنكون صادقين، ينتشر «تعدد الزوجات غير الرسمي» على نطاق واسع.

الرغبة في المتعة، العلاقة الجنسية، علاقات الليلة الواحدة، الزيارات إلى الغانيات، الملذات والعلاقات طويلة الأمد التي تنتشر في معظم المجتمعات أمثلة على هذا. سواء كان الأمر مرتبطاً بطبيعة تعدد الزوجات الغرائزية أو بظروف اجتماعية، يبدو مؤكداً أن الرجال لديهم رغبة جنسية أكبر، برغم أن النساء يحاولن مجاراتهم، والعوائق البيولوجية أقل بالنسبة لهم (الطمث، الحمل، الولادة، الإرضاع الطبيعي وهي أمور تجعل الإثارة والوصول إلى الذروة الجنسية أكثر تعقيداً) وأكثر استعداداً للتفكير في إقامة علاقة جنسية مع امرأة أخرى غير تلك التي يحبونها.

يدرك القانون الإسلامي، الشريعة، هذه الناحية من طبيعة الذكور، وبدلاً من التظاهر بعدم وجودها، فإنها تشكّل إطاراً يرغم الرجل على تحمّل مسؤوليات رغباته الجنسية. عندما بيّن الله حقوق النساء ضمن الزواج في القرآن، لم تكن خاصة بالزوجة الأولى فقط، وإنما لكل زوجة. بموجب الشريعة الإسلامية، لا يمكن لرجل «الاستمتاع» بامرأة دون أن يكون مسؤولاً عنها شرعاً: ينبغي أن يتعرف على عائلتها أو ولي أمرها، يدفع لها مهراً، يتزوجها وأن يشهر ارتباطهما، يقدم لها ما تحتاجه، يعترف بأطفالهما وأن تصبح أحد الورثة الشرعيين. إضافة إلى ذلك، الرجل مقيد بألا يجمع أكثر من أربع زوجات، زوجات ينبغي عليه أن يعاملهن وينفق عليهن بالطريقة نفسها، واللواتي لهن الحق بالسكن في منازل منفصلة، ولهن الحقوق نفسها بالحصول على الوقت والاهتمام مثل بعضهن أن تكون لهن المكانة نفسها، والاعتراف بشرعية أطفالهن وأن يرثن منه. نظرة خاطفة على مكانة العشيقة وأطفالها في مجتمعنا ستدل على وجود فارق كبير بين العلاقة خارج إطار الزوجية والزواج الثاني.

فيما يتم اعتبار الزوجة الثانية مساوية للأولى بكل شيء، لا يتم الاعتراف بأغلبية العشيقات وأطفالهن. ويعد هؤلاء الأطفال غير شرعيين، والذين لا يظهر والدهم أبداً في المدرسة أو يوم الرياضة. ليس لديهم حقوق، وليس مسؤولاً عنهم، إنهم «أسرار الحرام».

لكن إذا كان القصد من تعدد الزوجات إرضاء حاجات الرجل الجنسية، ما الذي توفره للنساء؟ بعد موت خديجة، تزوج النبي محمد ﷺ عدّة مرات. على أي حال، على النقيض من الصورة الشائعة بين غير المسلمين عن السلطان الشرقي النهم الذي تحيط به المحظيات، كانت معظم زوجات النبي ﷺ أرامل حرب ومطلقات، ولدى بعضهن أطفال من زواج سابق. سلّطت السُنّة الأضواء على ناحية من تعدد الزوجات لا يعرفها الكثيرون: إنها تضمن بأن تجد الأرامل، والمطلقات والنساء الكبيرات في السن جميعاً الحب والأمان في الزواج، وأن يكون لديهن الوقت لتولّي مسؤولياتهن الأخرى.

خطر لي دائماً أن نظام تعدد الزوجات يناسب تماماً نوعاً معيناً من النساء: المرأة المشغولة بدراستها أو عملها، والتي تلعب صديقاتها وعائلتها جزءاً كبيراً من حياتها، المرأة التي لديها أطفال من علاقة سابقة، المرأة الكبيرة في السن التي لا تريد رجلاً يوجد معها طيلة الوقت؛ لأنها تستمتع بصحبتها الخاصة.

قالت أم محمد بشكل جازم: «تعدد الزوجات لصالح المرأة؛ لأن الزوج عندما ينفق وقته بين زوجاته، يكون لديهن المزيد من الوقت لأطفالهن وأنفسهن. بالمحصلة، متى كانت آخر مرة فعلت بها النساء

شـيئاً لأنفسهن: طلين أظفار أصـابعهن، واعتنين بأيديهن؟ يكون لديهن أيضاً وقت لمولاهن، وهذا مهم جداً. عندما يكون زوجها بعيداً، يكون لدى المرأة وقت لتلاوة القرآن، الاسـتماع إلى شـريط عن المعرفة الإسلامية، العناية بدراستها بهدوء».

«أنا سـعيدة؛ لأنني لسـت زوجة وحيدة. لطالما كنت امرأة مسـتقلة تماماً، أحب حيّزي الخاص بي، وبهذه الطريقة، لدي حيّز لنفسـي وعندما يعود زوجي، يقدّرني ويكون سعيداً برؤيتي» عزيزة.

ميـزة إيجابية أخرى في تعدد الزوجات هي المسـاعدة الإضـافية التي يمكن للـ«ضـرّة» تقديمها، خاصـةً في أماكن لم يعد موجـوداً فيها أو قريباً منها عائلات كبيرة.

«أنا و«ضـرّتي» متقاربتان للغاية. نوجد من أجل بعضـنا إذا أرادت أن تخـرج، أعتنـي أنـا وزوجـنا بـالأولاد. نريد العـدل لبعضـنا» عـزيزة.

يمكن للزوجات أن يسـاعدن بعضـهن، ويشـتركن في رعاية الأولاد إذا كان على إحداهن أن تعمل أو تدرس، يطهين لبعضـهن إذا كانت إحداهن مريضـة أو وضـعت طفلاً للتو، يتعلمن ويدرسن الدين معاً. بالفعل، هناك حـالات كثيرة تبني فيهـا زوجات متعـددات وحدة عائلية قوية، وصـداقة دائمة ويعاملن بعضـهن كأخوات في الإسـلام، ويحببن لبعضهن ما يحببن لأنفسـهن. هناك أيضـاً زوجـات يتفاهمن مع بعضـهن، باسـتقلالية عن أزواجهن. هناك نسـاء يكتشفن وجود الكثير من الأشياء المشتركة بينهن، واللواتي يحببن بعضهن حقاً.

«إنها أختي في الإسلام وهذا أهم شيء. الدين يأتي أولاً» عزيزة.

هـذا لا يعنـي أن من السـهل على المـرأة أن تعرف أن زوجهـا يفكّر في الزواج من أخرى. تجتاحك مشـاعر كما لو تم إلقاء طن من الآجر عليك؛ لأن جوهر الأمر: فيما يخصـك، إنه لكِ ولا تريدين إشـراك أحد به. ليس سـهلاً بالنسـبة لمعظم المتزوجين الدخول في هذه المرحلـة، وأولئك الذين لا يسـتطيعون التوصـل إلى تفاهم مشترك، إما يتخلون عن الفكرة كلها أو يذهب كلٌّ في حال سـبيله. لكن الكثيرين يسـتطيعون تجـاوز هذه المرحلة، وغالبـاً مـا يسـاعدهم إيمانهـم في عبورها. ويكتشـفون أنهـم يتجاوزون الاختبـارات والمحـن المتنوعة ويخرجون مـن التجربة أقـوى وأكثر حكمة، كأفراد وكعائلة.

تعدد الزوجات ليس إلزامياً، إنه أمر اختياري، انتقائي. لا يمكن إرغام أحـد على الدخول في نظام تعدد الزوجات أو البقاء فيه. وبالنسـبة للكثير من النساء، إذا كان لديهن خيار إما الحصول على المكانة الرفيعة للزوجة أو الإذلال المحتمل للعشيقة، يفوز دور «الضرّة» باليد العليا.

النحت في الصخر - عندما تسوء الأمور

عندمـا تعلمنـا بادئ الأمر عـن الدين، كنا نعتقد أنـه يمكن تفادي كل المشـكلات الزوجية، طالما التزمنا القرآن والسُّنّة. باعتبار أن الدين يقدّم دليـلاً عن كل شـيء، كل مـا نحتاج إليه هـو الالتزام بالدليـل ولن نخطئ جادة الصواب. لكن الحياة نادراً ما تكون بتلك البساطة. حتى ضمن أكثر المسـلمين التزاماً، هناك مشكلات زوجية، بعضها مؤقت ويمكن إصلاحه، وأخرى أكثر ديمومة.

حلّ النزاع

على الرغم من أن الزواج مؤسسة رائعة وتسدّ الاحتياجات البشرية، إلا أنه مثل معظم الأشياء القيّمة الأخرى، له حصته من الاختبارات والتجارب. ربما يتعرض الزواج الإسلامي للمشكلات نفسها مثل أي زواج آخر، المشاجرات الشخصية، الفشل في تقدير الزوجين لبعضهما، المشكلات المالية، ضمن أشياء أخرى. لكن يمكن أن يتعرض الزواج الإسلامي لمشكلاته الخاصة به أيضاً. ويبرز بشكل خاص فشل الزوجين في منح بعضهما حقوقهما، أن يصبحا ضعيفين روحياً أو يتركا الدين تماماً. تترك كل تلك القضايا تأثيراً ضاراً على الزوج والزوجة، إضافة إلى الأطفال الذين ربما يكونان قد أنجباهما. يخفت الشعور الطيب بين الزوجين، ويبدأ الحب بالابتعاد ويصبح أصعب وأصعب منح الشخص الآخر حقوقه، ناهيك عن إظهار الحب والعواطف له.

السُنّة مليئة بالنصائح حول كيفية التعامل مع الصعوبات والاختبارات، آليات ستمنع الفرد من أن يفقد صبره في مثل تلك الأوضاع. الصبر أحد أصعب الخصائص التي يمكن أن يتمتع بها المرء لكنها الأكثر نبلاً. كانت تلك سجية تمتع بها كل الأنبياء، وهي ميزة يرفع القرآن من شأنها دائماً. ينبغي على الزوجين المسلمين أن يتمتعا بالصبر مع بعضهما وتجاه التحديات التي يواجهانها. التمتع بالصبر يعني التقيد بحدود الله وعدم مخالفتها نتيجة الإحباط، والقيام بأشياء ممنوعة نتيجة الغضب أو الحاجة للانتقام.

نصح النبي ﷺ الرجال المسلمين: «لا يَفرَك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر» رواه مسلم. من الواضح أن الشيء نفسه ينطبق على

المرأة المسلمة. لهذا نحن مطالبون بالتغاضي والستر على أخطاء الآخرين وأن نلتمس أعذاراً لبعضنا.

بوصفنا مسلمين، رجالاً ونساء، نحن مطالبون أيضاً بالنظر في أنفسنا أولاً عندما نواجه مشكلة، وأن ندقق فيما نكون قد فعلناه حتى تسببنا بذلك، سواء فيما يتعلق بسلوكنا نحو الشخص الآخر أو كيف أننا ربما كنا متهاونين فيما يتعلق بديننا وعلاقتنا مع الله.

كما يقول الله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

معرفة هذا يجعل ممكناً التركيز على شيء يمكننا تغييره مباشرة ـ أنفسنا ـ بدلاً من التركيز على شيء لا نسيطر عليه، سلوك الأشخاص الآخرين.

بالفعل، تمنحنا الشريعة أفضل نصيحة في التعامل مع المشكلات الزوجية وتكمن في عودة الزوج والزوجة إلى المولى. غالباً ما تكون مثل تلك الصعوبات، والطريقة التي نتعامل بها معها، نتيجة مباشرة لضعف الإيمان. بزيادة الذكر (ذكر الله)، الدعاء (التضرّع والصلوات)، فعل الخير وطلب الصفح، نقترب من الله. وعندما نركّز مجدداً على الله بدلاً من ذلك الشخص، سنجد أن الله يجعل ذلك الشخص يتغير، أو نحن نتغير أو تذبل أهمية الموقف نفسه.

هناك أيضاً خطوات أخرى يمكن اتخاذها من قبل الزوجين لحل خلافاتهما يتكلم الزوجان عن مشكلاتهما، ينصحان بعضهما، ويلومان بعضهما، خاصةً إذا كانت المشكلة مرتبطة بالدين. ربما يسعيان أيضاً

إلى الحصـــول على النصـــيحة من أفراد العائلة أو شخص ضليع بالمعرفة الإســـلامية. يساعد أيضاً معرفة الموقف الإسلامي من النزاع الدائر. على أي حال، يكون لهذا الأمر الأخير عادة تأثيره إذا كان كلا الزوجين يريدان فعلاً إطاعة أوامره.

ما دخل الحب بذلك؟

أخبرني والدي مرة عن مقياس للعلاقة، مقياس صحيح للغاية ومناسب جــداً حتى إنني أقوله للجميع عندما تُثار مســألة العلاقــات. لم يجد أحد عيباً فيه بعد.

العلاقة مثل الحســاب المصــرفي. كل لحظات الحــب، الهدايا، الكلمات الطيبــة وأوقات المــرح هي إيداعــات. كل الخلافات، خيبــات الأمل والأذى هي سحوبات. في الســياق الإسلامي، تتضمن الودائع وفاء الزوجين بحقوق بعضــهما. السحوبات هي أوقات يتم فيها الامتناع عن الوفاء بتلك الحقوق. إذا كان هنــاك إيداعات كافية، يبقى حســاب الحــب مفتوحاً ويمكن تحمّل الســحوبات بالصــبر. لهذا تعوض الأوقات الجيدة عن تلك الســيئة وتجعل من السهل الصفح عنها ونسيانها. إذا بدأت، على أي حال، السحوبات تزيد عن الإيداعات، يصــبح الحساب مكشــوفاً. إذا استمر ذلك ووصل الحساب إلى مرحلة ليس فيها ســوى السحوبات دون إيداعات للتعويض عنها، يصبح الحساب مفلساً. عندما تصل العلاقة إلى تلك المرحلة، يصبح صعباً العودة إلى ما كانت عليه الحال سابقاً. بسبب كل الصعوبات، يتم إنفاق كل المشاعر الرقيقة والاحترام، ولا يبقى شيء سوى الاستياء وخيبة الأمل. وعندما يصل الأمر إلى تلك المرحلة، ما الذي سيفعله الحب عندها؟

سـمعت مرة، في اجتماع في منزلي، أختـاً تقتبس تلك العبارة ولم أفهم ما كانت تعنيه. طلبت منها أن تشـرح الأمر في الجوهر، قالت: «عندما لا تحصلين على حقوقكِ ولا يتم احترامكِ، عندما يتكلم زوجك عن الحريات فقط، ما الذي سيفعله الحب عندها؟ في أوقات مثل تلك، ما الذي يعنيه إن كنـت ما تزالين «تحبينه»؟ هل ينبغي أن تبقي معه، تتشـبثين بالحب، فيما يكون كل شيء آخر قد انتهى؟».

«لا يمكننـي القول: إنني وقعـت في الحب ... لا أعتقد أن للحب دخلاً في ذلك. حتى الآن، أحبه في الله؛ لأنه مسـلم ... لقد أضـحى مسلماً ضعيفاً وليس هذا ما أريده لنفسي. من الصعب جداً البقاء مع شخص لا يطيع الله. هذا يجعله يتناقض تماماً مع ما تؤمنين به» عالية.

وافقـت كل الأخـوات اللواتي تكلمت إليهن بشـأن هـذا الأمر أن الحب ليس بالضـرورة ما يجعل الزوجين يعاملان بعضـهما بإنصاف، إنه الدين ــ طاعـة أوامـر الله. لهـذا زواج مع حـب دون ديـن فيه مجازفـة ـ كيف سيتصرف الزوج إذا تبددت مشاعر الحب، أو إذا أحب امرأة أخرى؟ ليس هناك قيود، قواعد، متطلبات الحد الأدنى، أو أي شـيء ينبغي عليه الوفاء به حتى إذا لم يكن يحب زوجته. الشـيء نفسـه ينطبق على المرأة ـ الدين هو ما سيجعلها تعامل زوجها جيداً، حتى إذا توقفت عن حبه.

«بالنسـبة لي، ليس الحـب وإنما الدين الذي يقهر كل شـيء. نعم، يريد كل رجل وامرأة أن يحب ويكون محبوباً، لكني لا أستطيع العيش مع الحب دون دين. لن يكون لطيفاً العيش في الدين دون حب، لكن ربما يكون ذلك أسـهل. على الأقل، إذا كان الرجل متديناً، فسـوف يحب في الله، وسيحترمك ويقدّرك ويمنحك حقوقك» أم محمد.

علـى أي حال، لدى بعض الأخوات إجابات مختلفة. قالت هاجر، مثلاً: «الحب ضـروري قطعاً في الزواج. بالنسبة لي، إذا لم يكن هناك حب، فلن يكون هناك زواج. ينبغي أن أحب زوجي، وإلا سيكون زواجاً ناقصاً». لكنها وجدت أيضاً أن الدين جزء لا يتجزأ من بنية الزواج.

«تحتاجين إلى كلٍ من الحب والدين؛ لأن الدين هو البناء. أعتقد أن تلك نقطة ضـعف العديد من حالات الزواج اليوم، الافتقـار إلى البناء. الزوج يريـد أن يكون الزوجة، والزوجة تريد أن تصـبح الـزوج، وأخيراً لا يرغب أحد بأن يكون الآخر! لا أحد يعرف حقاً دوره بالتحديد، يصبح الأمر أسهل كثيراً عندما تعرف المرأة دورها ودوره. ربما كنا بحاجة للابتعاد عن البناء من وقت لآخر، لكننا سنعود إليه دائماً في النهاية».

وبالرغم من ذلك، يبدو ذلك ساخراً جداً! مهما حدث، هل يبقى الحب كافياً، يتغلب على كل شـيء ويجعل العالم يستمر بالدوران؟ أردت تصديق تلـك الأشـياء، كما نفعل جميعنـا. لم أكن أريد التفكير بـأن تلك الكلمات خاويـة دون معنى، وأنها أساسـاً آمال غير ذات جـدوى. هناك الكثير من الأشـياء التي نريد تصديقها، ليس لأنها صحيحة، لكن لأنها تجعلنا نشعر بحال أفضل، وتجعل التعامل مع الحياة أسهل، حتى إذا كان تأثيرها أشبه بالممنوعات منه أي شيء آخر. لهذا تابعت البحث، الكلام والإصغاء. سمعت قصصـاً عن رجـال جعلوا حياة زوجاتهم بائسـةً، عاملوهن بشـكل فظيع وحرموهن حتى من بعض حقوقهن الأساسـية، وكانوا يزعمون برغم ذلك أنهم يحبوهن بشـدة، يرفضون تسـريحهن ويخافون من خسارتهن. رأيت نسـاءً يبعن أنفسـهن رخيصـة، يقبلن بأقل من حقوقهن، يؤذين أنفسهن إكراماً للأزواج الذين يدّعون أنهم يحبونهن. يتشبثن به، سنة بعد أخرى،

على أمل أن تضع كلمات الحب تلك في النهاية حداً للإهمال، الإهانات أو الضرب لكن نادراً ما يحدث ذلك. عندما سمعت تلك القصص، أصبح صعباً علي أن أصدّق بـ«قوة الحب».

وحيثما وجدت زوجين مسلمين متحابين، كنت أرى أنهما عندما يواجهان المشكلات، ليس «الحب» ما يتحولان إليه، وإنما الدين، الإيمان. ويلجآن إلى الصلاة في الليل، التضرع، طلب المغفرة، تنقية الروح، زيادة أعمال الخير. وكل ذلك يفتح أبواب التواصل والتسامح التي تقودهما، ببطء لكن بثبات، مجدداً إلى الحب الذي كانا قد تشاطراه مرة. ويكون هذه المرة أكثر عمقاً، غنىً وثباتاً في الأرض. لأن الله يكون قد جمع قلبيهما معاً.

عندما نقول وداعاً

لا شك أن الخلافات الزوجية لا يمكن حلّها أحياناً، وينبغي على الزوجين أن يفترقا. يدهشني أنه، حتى اليوم، يوجد أشخاص مسلمون وغير مسلمين يعتقدون أن المرأة المسلمة لا تستطيع الانفصال عن زوجها. يعتقدون أنها حالما تدخل في تلك العلاقة، لا يوجد نص يسمح لها بالخروج منها، وأنه لا مفر، تبقى عالقة فيها إلى الأبد. صدّقوني أنني قبل أن أقبل الزواج، تفقّدت تلك المسألة جيداً:

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: 128].

في الإسلام، الزواج ليس ارتباطاً مخيفاً لا يمكن أبداً «التخلص منه». تدرك الشريعة وجود أوقات تفشل فيها كل الجهود الرامية للتوصل

إلى حل سلمي في تحقيق نتائج، ويكون على الزوجين الانفصال. نظراً لتأثيراته السلبية على الأفراد المعنيين، أطفالهما والمجتمع بشكل عام، لا يتم التشجيع على الطلاق وما يزال نادراً في بعض المجتمعات الإسلامية. على أي حال، ربما يبدو في المناخ الاجتماعي المعاصر أن حالات الزواج تصبح أكثر هشاشة مع تزايد عدد حالات الطلاق. هل يعود سبب ذلك إلى أننا نتعلم أن نأمل الكثير من الشريك، لكننا لا نجد ذلك أبداً في شخص واحد؟ هل لأن النساء اللواتي يتركن مؤسسة الزواج لم يعدن يواجهن العوز؟ هل لأننا نعد الزواج شيئاً غير ذي قيمة كبيرة، بخلاف أجدادنا الذين كانوا، سواء للأفضل أو للأسوأ، يبقون معاً حتى موتهم، يتحملون الصعاب وخيبات الأمل إضافة إلى قضاء أوقات سعيدة؟ لا يقول الإسلام: إن الأفضل لزواج سيئ أن ينتهي بالطلاق، لكنه يركّز على الصبر، وهو أحد عوامل الزواج الناجح.

في الشريعة الإسلامية، هناك ثلاثة أنواع من الانفصال الزوجي، الطلاق الرجعي، الطلاق البائن وفسخ عقد الزواج (الخَلْع). الطلاق يكون من جانب الرجل، والخلع من جانب المرأة.

﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 229].

الشيء الطبيعي، بعد محاولة كل الأساليب المختلفة لحل النزاعات الزوجية دون التوصل إلى اتفاق، أن يقوم الرجل بتطليق زوجته طلقة

واحــدة. وتدخـل الزوجة بعد ذلك في العدّة ـ مـدة الانتظار ـ ثلاثة قروء. خـلال هــذا الوقت، ينبغي علــى الزوج والزوجــة البقاء معــاً في المنزل، لا يتخلى أحدهما عن الآخر. إضافة إلى ذلك، يكون من حق المرأة الحصول على الطعام، والملابس والسـكن. تمنح هذه المدة الزوجين، عبر التواصـل اليومي، فرصة حل خلافاتهما.

أيضــاً، إذا اســتعاد الزوجان علاقاتهما الطبيعية أو تشاطرا الفراش، يكـون الطـلاق ملغىً. لهــذا ينبغي عليهما البقــاء برغم انفصــالهما. إذا «انقضت مدة العدّة، يكون الطلاق نهائياً ويفترق الزوجان. إذا كان للمرأة أطفــال، تحتفظ بحق الحضــانة ما داموا في رعايتهــا. وكما هو مذكور في القــرآن، يمكن للاثنين أن يتزوجا مرة أخرى بموجب عقد ومهر جديدين. يمكنهما القيام بذلك بعد الطلاق مرتين.

الطـلاق الثالـث بائن. هــذا يعني أن الاثنــين لا يسـتطيعان العودة إلى بعضهما إلا بعد أن تتزوج المرأة زواجاً حقيقياً كاملاً من رجل آخر. بعد هذا الطلاق، ينبغي أن ينفصل الزوجان ومدة العدّة هي دورة حيض واحدة.

الخلع هو عندما تتقدم المرأة بطلب إلى السـلطة القضائية لإلغاء عقد الزواج. مســببات الخلع تتضــمن فشــل الــزوج في إعالة زوجته، الإســاءة النفســية أو الجســدية، الظلم، الغيــاب الطويل والعنانة. يتــم الطلب إلى الزوج أولاً أن يطلّقها، وإذا رفض، يعلن القاضي أو سلطة أخرى طلاقهما. في هــذه الحالة، تعيد المرأة مهرها؛ لأنه تم فســخ العقــد الآن. إذا لم يكن لديها مال لإعادة مهرها، يمكنها أن تطالب بدين لها في ذمة زوجها؛ ليكون «فدية» لها. تســتطيع أيضاً اســتعمال أموال الزكاة لتكون «فدية» لنفسها. مــدة العدّة دورة حيض واحدة، يكون الاثنــان بعدها حرّين في الزواج مرة أخرى بعقد ومهر جديدين.

المسلمون مطالبون بالصبر في كل الشدائد، سواء كانت روحية، أو مالية أو زوجية. لكن أحياناً لا يكون ذلك الصبر كافياً لتفادي النهاية. كنت قد تعرفت إلى نساء مسلمات يعانين من مشكلات زوجية أكثر معارضة لفض عرى الزواج من نساء أخريات. يسألن أنفسهن إن لم يكن باستطاعتهن فعل المزيد، الصلاة أكثر، التحلي بالصبر أكثر وأكثر. يفكّرن بالتأثير الذي سيتركه الانفصال على دينهن، أطفالهن، والأثر الذي سيخلّفه على آراء عائلاتهن غير المسلمة بشأن الدين.

لكن الشيء الوحيد الذي غالباً ما يجعل الانفصال حتمياً هو عندما يؤثر الزواج سلبياً على دينهن. كنت قد رأيت عدّة أخوات يضعن اهتمامات الآخرين الجسدية، المالية والنفسية قبل اهتماماتهن الخاصة طيلة سنوات، لكن ذلك استمر فقط إلى مرحلة شعرن بها أن دينهن سيتأثر سلباً، وأنه سيتأذين روحياً.

> «انتابني شك في نفسي وفيما أؤمن به. جعلني ذلك أتساءل عن الدين، أو ما أعرف عنه. فكّرت: هل هذا صحيح؟ إلى أي حد تعرّضت لغسيل دماغ، وهل هذا من الدين؟ فكّرت فحسب أنه إذا كان هذا هو الدين، ربما هذا ليس مناسباً لي؛ لأنني أتداعى من الداخل هنا، لا يمكنني الاستمرار، ولا أستطيع العيش على هذه الحال» ليلى.

إذا سمحت بذلك الظلم الجائر، وعدم الإنصاف واليأس بوضعك يمكن أن يجعلك تفقدين إيمانك بوعد الله، وربما تشككين أحياناً في الدين نفسه. لا يريد أي مسلم الوصول إلى تلك المرحلة أبداً.

أخبرتني ليلى بشأن أسبابها لطلب الخلع: «أدركت آنذاك أن الوضع لم يكن كما أرغب أبداً، أعتقد أن كلينا قد تغيّر بوصفه شخصاً. كنت أمام خيار إما فقدان نفسي، أو فقدان هويتي، أو النضوج بصفتي شخصاً. كنت قد تقلّبت كثيراً حتى تلك اللحظة، وعرفت أنني كنت أمر بآخر تقلباتي ولم أرد أن أضع الأمر جانباً. كنت أعرف أنني غير سعيدة على الإطلاق وأن ذلك ليس ما أريده. لهذا وقّعت أوراق الخلع».

ناقشت مع أم محمد طلاقها بشكل مطوّل. كان عليّ أن أسألها ما الذي جعلها تُقدم على تلك الخطوة القاسية وطلب الطلاق من زوجها، الرجل الذي عرّفها على الإسلام.

أجابت: «نظراً لمشكلات زوجي النفسية وعدم الاستقرار الذي أحدثته في منزلي، قررت أن أغادر».

لكن ألم تكن تحبه؟

«عندما لا يقوم الرجل بما يطلب منه الله القيام به، ولا يتقدم في الدين، بالنسبة لي، يبدأ الحب بالتراجع. لهذا تقدمت بطلب الخلع، لكن لأن ذلك كان إجراءً طويلاً، قلت له فحسب: إنني أريد الطلاق. حاول إقناعي بالاستمرار معه لكني كنت مقتنعة تماماً بأن ذلك ما أريده. لهذا جعلته يطلقني طلقة واحدة».

لماذا كان الطلاق الطريق الوحيد؟

«شعرت بأن هناك شيئاً يعوقني فيما يتعلق بديني، والطريقة التي أردت أن أعيشها، وكيف أردت ممارسة ديني؛ لأن مرضه العقلي كان يعطّل

حياتي حقاً. كانت هناك أشياء أريد اكتسابها من الإسلام، ولم أشعر بأنني أحصل عليها في ذلك الزواج. زيارة مستشفيات الأمراض العقلية، السجن وتعرّضي للتفتيش، لم تكن تلك الطريقة التي أريد أن أحيا بها. لم أكن أشعر بالأمان بصفتي امرأة وقد تأثر الأطفال سلباً بشكل كبير أيضاً».

أردت أن أعرف ما إذا كان امتلاك معرفة أعمق بالدين أو إيمان أقوى سيجعل المرأة، على الأرجح، تتحمّل زواجاً غير سعيد. بكلمات أخرى، هل تتحمل المرأة المتدينة صعاباً وبؤساً أكثر أم أقل؟ لهذا، عندما تكلمت إلى أخوات مطلقات، سألتهن: «هل تعتقدين أن طلاقك كان نتيجة إيمان ومعرفة أكثر أم إيمان ومعرفة أقل؟

كانت أم محمد واثقة تماماً من جوابها. «كان طلب الطلاق الخاص بي نتيجة إيمان أكبر؛ لأنني كنت أعرف أنني لا أريده أن يكون في حياتي بعد ذلك. لم تكن تلك الحياة تقوم على أسس إسلامية فيما أظن».

لكن عالية لم تكن واثقة تماماً. بعد أن اختبرت حوافزها باستمرار، وأخضعت نفسها وماضيها للاستفهام، قالت لي: «قضيت وقتي أحاول اكتساب المعرفة وتربية أطفالي، وما بين هذا وذاك، وبين الحين والآخر، كنت أنظر إلى المرآة وأفكّر: «لماذا فعلت هذا؟ أو لماذا فعلت ذلك؟ وما زلت أطرح على نفسي الكثير من الأسئلة، وهذا أمر لا يُصدّق. هل هو الشخص نفسه الذي عرفته عندما التقيت به؟ هل هناك إشارات على ذلك الآن؟».

أخيراً، كان دينها الذي منحها القوة لإنهاء علاقتهما.

«جوهرياً، فكّرت بأنني انتظرت أن تقوم بإصلاح نفسك لكنك لم تفعل

أي شيء. لهذا، هل تعرف أمراً؟ سأطلب الطلاق منك. أنت لا تقوم بالعمل الصائب، ولا تخشى الله كما ينبغي لك أن تخشاه. وتعمل على إضعافي وإضعاف أطفالي. أردت فعلاً أن أتعلم عن ديني، أتقدم إلى الأمام، وقد كان يأخذني بعيداً عن ذلك».

عندما غادرت منزل عالية، كنت متأثرة للغاية، وغارقة في الأفكار. أستطيع القول من خلال محادثتنا: إن زواجها كان مليئاً عبر السنين بالصعوبات وواجه الكثير من الاختبارات. وبرغم أن قلبي تألم لمعاناتها، إلا أنني لم أستطع سوى الإعجاب بالأم الحنون، المضيفة الكريمة والأخت المحبة التي كانت أمامي. أين كانت المرارة؟ أين كان الندم، الغضب والألم؟ لم أرَ شيئاً من ذلك فيها، ليس في صوتها، ليس في سلوكها، ليس في كلماتها. وكنت أعرف السبب. لأنها كانت تؤمن بوعد الله، وأنه لن يحمّلها ما لا طاقة لها به، وأن مع العسر يسراً، وأن ما من مؤمنة تعمل عملاً صالحاً لا ترى ثوابه، في هذه الحياة أو الحياة الآخرة. كل تلك الأشياء هي التي جعلتها تخرج من تجربتها القاسية شخصاً أقوى وأفضل، ممتلئة تفاؤلاً وأملاً.

تترافق نهاية الزواج مع مجموعة من المشاعر. تكلمت العديد من الأخوات عن مشاعر الارتياح والتطلع قدماً نحو حقبة جديدة في حياتهن. كن يشعرن بالثقة والقوة، وهو شيء ربما يكون انعكاساً لحالة انتهاء الزواج وليس للطلاق نفسه. بعد التفكير ملياً في تأثيرات طلاقها على حياتها، أخبرتني عالية: «منذ حصولي على الطلاق، أشعر ببعض الطمأنينة. كنت أقاتل دائماً ضد شيء ما، وكان هناك دائماً شيء ما «يجري» في حياتي. لهذا برغم أنني الآن أتولى شؤون العائلة بمفردي، إلا أنني أعرف أنه بعد الشدّة يأتي الفرج. أشعر بالسكينة الآن مع نفسي».

«عندما انتهت إجراءات الطلاق، كانت رؤيتي للأشياء مختلفة. أصبحت أقوى من الداخل الآن، وأعرف كيف أسيطر على نفسي بشكل أفضل. بعد الشدّة يأتي الفرج، وإذا كنت صبورة واعتمدت على الله، أعتقد أنك ستشعرين بارتياح أكبر، وأعرف أنني بذلت ما بوسعي لأكون صبورة، وقد منحني الله لأجل ذلك الراحة. عندما جاءت الأوراق، كنت بخير، ما شاء الله» ليلى.

لكن لم تكن كل الأخوات سعيدات عند وقوع الطلاق، خاصةً إذا كان من جانب الزوج. بالنسبة لبعض النساء، المسلمات وغير المسلمات على حدٍ سواء، يشير الطلاق إلى بداية الوحدة وعدم الاستقرار ـ ينبغي عقد صداقات جديدة، اكتشاف أساليب جديدة لتمضية الوقت، طرق جديدة للتأقلم مع الوضع، عاطفياً وغالباً مالياً. يصح هذا خاصةً على حالات الطلاق التي تقع في وقت متأخر من عمر المرأة. بعد قضاء سنوات زوجة وأماً، تصبح وحيدة حينها، تتعلم كيف تعيش دون «النصف الآخر». بالنسبة للعديد من النساء، يترافق هذا مع استياء ومرارة ـ تشعر أنها أضاعت أفضل سنوات حياتها، وأن الحياة قد تجاوزتها، وأنها كانت موضع استغلال وتم التخلي عنها.

لكني اندهشت عندما وجدت أن المرأة المسلمة الملتزمة تجد الأمور مختلفة. برغم أنها قد تكون تنزف من الداخل، إلا أنها صبورة في المحنة. لا تغضب ضد القدر، قضاء الله، وتقبل الأمر. تعرف أن تلك السنوات التي كانت تعبد فيها مولاها من خلال العناية بعائلتها لن تضيع، إنها تحتسبها عند الله وتأمل بأن يضعها في ميزان حسناتها. تعرف أنه بعد الشدّة يأتي

الفـرج. تعرف أنـه لن يتم تحميلها ما لا طاقة لها به. ويمنحها هذا الأمل. لهذا، بعد أن تجف الدموع ويهدأ الألم قليلاً، تبدأ التطلع قدماً، وتعرف أن هويتها مسـلمةً ليسـت مرتبطة بزوجها وأطفالها. تجتمـع الأخوات حولها عادة، ويزوّدنها بالنصيحة والدعم أو يقدمن لها ببساطة كتفاً تبكي عليه. وتبـدأ تتطلـع قدماً نحو إعـادة البناء، إعـادة الاكتشـاف، التجديد الذي سـيجري في السـنوات اللاحقة. وهي ممتنة لله؛ لأنه أنعـم عليها بدينها، وعقلها وجسـدها. وبرغـم أن ذلك قد لا يبدو كثـيراً، إلا أنه كافٍ لجعلها ترغب بالعيش يوماً آخر والاسـتفادة منه. بالنسـبة لها، تلك ليسـت نهاية العالم. ولحسـن الحظ، ليس شـائعاً في مجتمعنا ألا تتـزوج المطلقات مرة أخرى وألا يحظين بفرصة ثانية لإنشاء زواج إسلامي ناجح.

مقوّمات الزواج الإسلامي الناجح

برغم أن القائمة ليست شاملة، إلا أنها تستند إلى ما جاء في الشريعة، إضافة إلى تجارب شخصية وأحاديثي مع الأخوات.

● **الدين**

«قـال النبي ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» سـنن الترمـذي، وهـذا يلخّص الأمـر كلـه. إذا كان زوجك رجـلاً طيباً ومسـلماً صـالحاً، إذا كان يخاف الله، فسـوف يعاملكِ كما ينبغي ويلتزم بما قاله النبي ﷺ» بيغوم.

الديـن هو أكـثر المقومـات أهمية في الـزواج الإسـلامي الناجح. هذا يعنـي أنه ينبغي على الزوجين احترام الدين وقواعده. ينبغي أن يتصـرفا

ضـــمن زواجهما وفقاً لما جاء في القرآن والسُنّة. ينبغي أن يتصرف الزوج بحكمة ويعمل على تلبية حاجات أسرته أولاً بشكل عاطفي. ينبغي أن تدعم الزوجة زوجها بالخير وتطيعه قدر ما تستطيع. ينبغي أن تكون تصرفاتهما إسلامية. ينبغي ألا يكون هناك كذب، غش، إهانات، غيبة، فظاظة، كفر، تفضـــيل النفس، تكبّر، أنانية وإنكار للمعروف؛ لأن الإسلام حرّم كل ذلك. ينبغي أن تكون نشـــاطاتهما إســـلامية، ليس فيها كحـــول، ممنوعات، زنا، اختلاط أو ارتياد للنوادي الليلية؛ لأن الإســـلام استبدل بهذه الأمور أشياء مفيـــدة وجميلة. ينبغـــي على الزوجـــين أن يكافحا في دينهما معاً، دراســـة الديـــن، حفظ القرآن، تعلّم الدعاء، تذكير أحدهما الآخر بالله، تصـــويب أخطاء بعضهما، تشجيع بعضهما بالخير؛ لأن الله يبارك كل هذا ويقرّبهما إلى بعضهما نتيجة ذلك.

«تحاولـــين الأمر بالمعـــروف والنهي عن المنكر، تحاولين فعل أشـــياء ترضي الله» ليلى.

ينبغـــي أن يمنحـــا بعضـــهما حقوقهما ويتحمـــلان مســـؤولياتهما ويأخذان بالحسبان دائماً أن الله سيسألهما عن طريقة معاملتهما لبعضهما.

«ينبثق كل شـــيء من الدين. كيف كان النبي ﷺ مع عائلته، ينبغي على زوجكِ أن يكون مثله أو يكافح ليكون مثله» صفوة.

أيضـــاً، الدين يحمي من سوء المعاملة، لأن الزوجين ليسا مسؤولين عن بعضهما فقط، وإنما مسؤولان في النهاية أمام الله. تقّرب كل تلك الأشياء الزوجـــين من بعضـــهما، وتجلب بركة الله على الـــزواج؛ لأنه هو من يمتلك القدرة على جعل الزواج ناجحاً أو فاشلاً.

● تقدير الزوجين لبعضهما

«ينبغي على الزوج المسلم احترام زوجته للواجبات التي تقوم بها ـ قدّر الطعام الذي تطهوه، عبّر عن إعجابك بالطريقة التي تربّي بها الأولاد، قل: «الحمد لله» للطريقة التي تستر بها زوجتك نفسها بطريقة إسلامية عندما تخرج، امتدحها عندما تعتني بالمنزل. بالنسبة للنساء، قدّري حقيقة أن زوجك يخرج للعمل وإعالة العائلة، اجعليه يعرف أنكِ تشعرين بالسعادة والطمأنينة في منزلكِ، قدّري ما يفعله من أجلكِ» أم محمد.

بالفعل، قال النبي ﷺ فيما معناه إنه لن يكون ممتناً للناس الذين لا يكونون ممتنين لله. قول «شكراً لك» لبعضهما ربما يبدو أمراً أساسياً، لكنه شيء غالباً ما يتم نسيانه في غمار الحياة اليومية.

● التواصل

«لن يدوم الزواج إلا إذا كان كلاكما يعرف كيف تحلان المشكلات معاً؛ لأنه سيكون هناك مشكلات، طيلة الوقت. لكن إذا لم تكونا تعرفان كيف تحلان المشكلات معاً، فستختلفان حينها كثيراً ويكون عليكما أن تنفصلا. أيضاً، احترما اقتراحات الشخص الآخر. إذا كنتما تستطيعان القيام بذلك باستمرار، فلن تصبح المشكلة أكبر، تتوصلان إلى اتفاقية سلام خلال وقت قصير» هاجر.

ينبغي أن يتحدث الزوجان إلى بعضهما، يتبادلان المشاعر ويحلان خلافاتهما بذهن منفتح وصدق. غالباً ما يقود فقدان التواصل إلى سوء

الفهم، مشاعر الإهمال، الاستياء والنفور. ينبغي عدم ترك المشكلات حتى تتفاقم أو إخفائها دون معالجة. أفضل طريقة للتعامل مع المشكلة غالباً ما تكون الحديث عنها بعد وقت قصـير من وقوعها. بتلك الطريقة، يستطيع الزوجان مناقشتها بعد أن يهدأا ويذهب عنهما الغضب.

• الصبر

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: 45].

مثل كل الأشـياء التي يكون ثوابها كبيراً، يمر الزواج باختبارات خاصة بـه أيضـاً. لـن يتفق الزوجـان طيلة الوقـت، ولن يسـعدا بعضـهما دائماً وسيواجهان عقبات على طول الطريق. الصبر أساسي في مثل تلك الأوقات للحفاظ على اسـتمرارية الزواج والتوصـل إلى حل للمشكلات في النهاية. التحلي بالصبر يعني ألا تتعدّى حدود الله، ليس صحيحاً الامتناع عن منح الآخر حقوقه؛ لأن شـيئاً ما ليس على ما يرام. التحلي بالصبر يعني أيضاً التغاضي عن نقاط ضعف، عيوب وأخطاء الطرف الآخر والتماس الأعذار لـه. الزواج عمل شـاق ولن ينجـح إذا كان أحد الشـريكين يفتقر للهدوء، الصبر أو التسامح.

• التواضع

الزواج من رجل أو امرأة متكبّرة ومتعجرفة كابوس: لن يقبلا الاقتراحات، الانتقادات أو الشكوى. يقود هذا الشريك الآخر للشعور بالإحباط والاستياء. ينبغي على كلا الشـريكين أن يدركا أنهما ليسـا معصـومين عن الخطأ وأن التواضـع ليس علامة على الضـعف، إنها سـجية جديرة بالثناء. يقود قبول الانتقاد بلطف إلى تطوير الذات وعلاقة متكافئة مشتركة.

● **اللطف**

بالفعل، «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».

حديث النبي ﷺ، رواه ابن ماجة.

القاعدة أن الزوجين ينبغي أن يعاملا بعضهما برفق. ليس هناك مكان للكلمات القاسية، اللغة الفاحشة، الأصوات العالية أو العنف في زواج ناجح. إذا عامل الزوج والزوجة بعضهما بلطف وحساسية، فسوف يشعر كلاهما بالطمأنينة والسكينة ضمن العلاقة. سيزيد هذا من الحب بينهما ويجعل التعامل مع أي مشكلات يواجهانها أسهل. من الواضح أن هناك أوقاتاً لا يكون فيها الرفق ممكناً، لكن ينبغي أن يكون المبدأ السائد.

● **تحمّل المسؤوليات**

كلّف الله الزوج والزوجة بمسؤوليات في الزواج، ومن المهم تحمّلها والوفاء بالتزاماتها.

«أحياناً، تحتاجين إلى الإلهام والحافز لتفكّري: «ينبغي أن أبدو بمظهر حسن وأقوم بتحضير عشاء شهي لزوجي»، لأنكِ إذا تركت الكسل يستولي عليكِ، فسينتهي الأمر حينها؛ لأنه إذا جاء زوجك كل يوم إلى المنزل ليجد مظهر زوجته مزرياً وطعاماً غير شهي، ما الذي تتوقعينه سوى التعاسة في زواجك؟ الأمر متبادل، ينبغي أن تفعلي أشياء لطيفة من أجله، وعليه أن يفعل أشياء لطيفة من أجلكِ، ولا يمكن أن يصح الأمر بخلاف ذلك» سارة.

ينبغـي أن يعمـل الرجل على تلبيـة احتياجات عائلته وألا يكون كسـولاً ويعتمد على الآخرين لدعم عائلته فيما هذه مسـؤوليته. ينبغي على كليهما أن يتأكـدا من تلبية احتياجات الطرف الآخر جنسـياً. ينبغي على الزوجة ألا تـدع أعباء المنزل تتراكم، وتهملها لأسـابيع متوالية. قيام المرء بإهمال مسؤولياته ليس إثماً فحسب، وإنما يقود إلى العديد من المشكلات الزوجية، ومن ضـمنها: الاستياء، وفقدان احترام الزوجين لبعضهما، والمشاجرات، وفي أحيان كثيرة الانفصال.

• إبقاء نيران البيت متّقدة

مطلوب من الزوج والزوجة المسـلمين أن يتجمّلا لبعضهما، ولهذا تأثير رائع على الزواج. على العكس مما هو شـائع، ينبغي على الزوجة المسـلمة أن تعمل على تجميل نفسـها عندما تكون في المنزل، لزوجها ونفسـها، وأن تعـرف أن ذلك يطلق شـرارة وشـغفاً في العلاقـة الزوجيـة. حافظا على الشغف بتبادل الهدايا، عبارات الغزل، وجبات رومانسية لكما، حتى إذا تم ذلك على ضوء الشموع في غرفة المعيشة بعد أن يأوي الأطفال إلى السرير. المهم أن تجدا وقتاً لبعضكما، وأن تغازلا بعضكما وتجعلا بعضكما تشعران بأنكما مرغوبان.

• الاحترام المتبادل

أحـد عوامل الـزواج الجيد هو احترام شخصـية سـمات وآراء الطرف الآخر. في الواقع، الرجل المسلم مطالب تحديداً بعدم محاولة تغيير شخصية زوجتـه، كما هو مذكور في الحديث: «إنّ المرأة خلقت من ضـلع لن تسـتقيم لـك علـى طريقة فإن اسـتمتعت بها اسـتمتعت بهـا وفيها عـوج وإن ذهبت

تقيمها كسرتها وكسـرها طلاقها» رواه مسـلم. احترام مسؤوليات،وجهات نظر وخبرات الطرف الآخر شـيء جوهري. ينبغـي على كلا الطرفين عدم التقليل من شأن الطرف الآخر أو إهانته؛ لأن ذلك يقود إلى خسارة الثقة أو الاستياء. في علاقة الاحترام المتبادل، يشعر كل بأن دوره موضع تقدير وثقة ضمن الزواج. ليس هناك حاجة للتهكم أو التنازل في زواج إسلامي.

● الاستمتاع معاً

لا تهملا أبداً أهمية قضـاء وقت ممتع معاً، والقيام بأشياء تكسر رتابة الحيـاة اليومية. كانت علاقة النبي ﷺ بعائشـة نموذجـاً يحتذى في تلك الأشياء الصغيرة، كانا يداعبان بعضهما، يلعبان، يتسابقان، يقصان على بعضهما القصص ويقضيان وقتاً ممتعاً معاً.

> «لا يمكنـك أن تتطلعـي إلى سـد احتياجاتـك فقـط. تريدين منه الخروج عن المألوف لفعل أشياء لطيفة لكِ، وهكذا يمكنكِ الخروج عن المألوف لفعل أشـياء لطيفة له. كونا لطيفين مع بعضكما، قوما بتحضـير مفاجآت لبعضكما، وافعلا أشـياء عفوية، وليس الأشياء الرتيبة نفسها، يوماً بعد آخر» أم محمد.

بـذل كل مـا بوسـعنا لنجعل زواجنـا عمل عبـادة، طاعـة الله، تحمّل مسـؤولياتنا واحترام بعضنا كلها «ودائع حب». تساعد المشاركة في الأفكار والمشاعر، التواصل والقيام بأشياء ممتعة معاً في إبقاء جذوة الحب متقدة وانعاشها، ويضيف إلى رصيد «حساب الحب» ويعمل على إبقاء زواجنا «في منطقة الأمان».

8

أمك، ثم أمك، ثم أمك ...

بعد سنة تقريباً من نكاحي، زواجي، وضعت مولودي الأول. طيلة تسعة شـهور، كنت أشـاهد جسـمي يتغير، يزهر ويرعى معجزة الحياة هذه في داخلي. تعاملت مع الحمل والأمومة بحماسة كبيرة: تناولت طعاماً صحياً، قمت بتمارين خفيفة وقرأت كل كتاب استطعت وضع يديّ عليه عن الحمل والـولادة. أنهيـت بثقـة الاسـتعدادات للـولادة في المنزل، وكنـت محاطة بقابلات يؤمنن بذلك وقمن بدعمي طيلة الوقت. ولدت في حمّام قبو شقتنا الصـغيرة، بحضور زوجي وقابلة، ولا شيء للمساعدة سوى الماء، علاجات موضـعية وجرعة صحية من الدعاء (التضـرّع). ولد ابني معافى، وكانت حماتي في الغرفة المجاورة وشـقيقتي الصـغرى تطهـو الدجاج في الطابق الأعلى. كانت ولادة رائعة. وهكذا أصبحت أماً.

إنجاب كائن حي

لطالمـا فكّرت بأن حمل حيـاة جديدة داخلي عمل عبـادة، يقرّبني من الله. لمـاذا؟ لأن إنجاب الأطفال شـيء يحبه الله، ويشـجّع عليه الإسـلام وهو مصـدر خير في هذه الحياة، والآخرة على ما نأمل. لأن الصـبر على الشدائد والصعاب ـ الغثيان الصباحي، حرقة المعدة، آلام الظهر، الأوجاع والآلام ـ عمل عبادة. أيضاً، الإزعاجات المتنوعة لحمل طفل وإنجابه جزء مما يجعل الأم تكسب المكانة الرفيعة التي تتمتع بها.

مراقبة جسـمك يتغير، الإحسـاس بحركات الحياة النشـيطة داخلك، رؤية صور لأصـابعه، أقدامه الصغيرة وتشكيل الأضلاع الصغيرة الرائع، وقراءة كل ما يتعلق بالأشياء المختلفة التي يتعلمها ويفعلها الطفل ـ دون أي تدخل من جانبك ـ تجربة تحثّك على التواضـع وتمنحك الإلهام. التواضع لأنـكِ تعرفين أنكِ بنفسـك كنت على تلك الحال مـرة، ولأنه يتم تذكيرك بأنك لا تملكين أي سـيطرة مهما كانت على ما يجري داخل جسـمك ـ إذ إن الله، الخالـق، يتولّى كل شـيء، وإن الغرائز والعملية الطبيعية قد تولّت الأمر. إنها ملهمة أيضـاً، لأن الله قـد اختار أن يبارك رحمكِ بهذه الحياة الجديـدة، لأنكِ تشـاركين في طقس الولادة النبيل العتيق، لأنكِ تشـعرين بأن جسـدك ـ رحمكِ، المشيمة، القلب الذي يضخ كل الدماء الإضافية في جسمك ـ يجهد لتأدية دوره. إنها تجربة مثيرة.

ينطبق الشيء نفسه على الولادة. يمكن للمزيج القوي من التوقع، الألم، الأدرينالين أن يكون منعشـاً، إذا اخترت أن تعديه كذلك! بالفعل، نستطيع جميعنا أن نسـتمد الإلهام من قصـة مريم، والدة السـيد المسـيح عليه السلام. وفقـاً لمـا ورد في القرآن، كانت أمهـا قد نذرت ما في بطنهـا محرراً لوجه الله، عندما وضـعت بنتاً، خشيت ألا تستطيع الوفاء بذلك الوعد. لكن الله كان قـد اختار ماري (مريم) من بين نسـاء العالمين؛ لتكون من سـيزورها الملاك جبريل. أخبرها أنها سـتحمل طفلاً، طفلاً صـالحاً سيكون وجيهاً في هـذه الدنيا وفي الآخرة: النبي المسـيح (عيسـى). كانت مريم، التي لم تعرف رجلاً من قبل، مصدومة وتسأل كيف يمكنها أن تحمل طفلاً دون أن يمسّـها بشـر. أجاب الملاك: **﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾**.

وهكـذا اعتكفت ماري (مريم) وحيدة في وادٍ، بعيداً عن قومها. عندما فاجأهـا المخاض، بكـت ألماً وباركهـا الله بماء تحت قدميهـا ورطباً جنياً للتخفيف من معاناتها وجعلها تسـتعيد قوتها. باركها أيضـاً بغلام، المسيح (عيسى)، الذي كان نبياً عظيماً دعا قومه لعبادة الله، والذي خفف معاناة الكثيرين بمشيئة الله.

هناك شـيء خاص في تجربة مـريم، وحدها في وادٍ مهجور، عذراء تلد طفلاً، شيء يلهمنا جميعاً لأن نكون قويات وواثقات من أنفسنا، نثق بالله، ونعرف أنه خلقنا وجهّز أجسامنا لهذه المهمة.

مجتمعنا فريد تماماً مقارنة بالمجتمعات الإسـلامية، حيث إن الرجال يكونـون حاضـرين غالباً عنـد ولادة أطفالهم. ربما يعود هـذا إلى حقيقة أن معظمنـا من خلفيـات غربية حيث يحضـر الآباء بشـكل روتيني ولادة أطفالهـم. على أي حـال، تاريخياً وحتى اليوم، يبقـى الرجال بعيدين عن عملية الولادة، التي يُنظر إليها بأنها شيء خاص بالنساء.

يتصـرف أزواجنا كأنهم شـركاء ولادة في المستشفيات، مراكز الولادة وخـلال الـولادة في المنـازل. في المستشـفى، لا يمكـن الاسـتغناء عنهـم لتقـديم الدعم، التشـجيع، وتنبيه الأم التي تضـع مولودها بأن تتذكر الله وتتضرع له، وألا تفقد الأمل أو تصاب باليأس. يتأكدون أيضاً من الالتزام بالإرشـادات الإسـلامية، خاصـةً ما يتعلق منها بخصوصـياتنا وضـمان احترام رغباتنا. هذه بعض من المشكلات الكبيرة للولادة في المستشفيات، فيما يخص الأخوات: كوننا نسـاء نغطي أنفسنا عادة أمام الغرباء، نشعر بفقدان الخصوصـية والسـيطرة على بيئة مخاضنا بشـكل أكثر وضوحاً.

في خصوصية منزلك، خلال الولادة في البيت، تكونين مرتاحة في حيّزك الخاص بكِ: لا يكون عليكِ أن تقلقي بشأن طلاب الطب الذين يراقبونك على تلك الحالة، بشأن الغرباء الذين يدخلون «للكشف» على حالتك، يربطون قدميكِ أو يقولون لكِ بأن تضطجعي على جانبكِ و «تدفعي»! مع وجود قابلة عادة، تستطيعين قضاء مدة مخاضكِ كما ترغبين، وتكونين حرة في اتخاذ الوضعية التي تجعلك مرتاحة. يمكنك الاستماع إلى تلاوة القرآن، تناول الطعام ولن تقلقي بشأن تسريحة شعرك بعد ساعتين من المخاض. وبعد ذلك، هناك سريرك الخاص بكِ، على أمل أن يكون زوجك، والأطفال الأكبر سناً، ما يزالون نائمين في غرفهم.

«التخطيط للطفل»

الشيء الذي يسبب إزعاجاً كبيراً لبعض الأمهات غير المسلمات أن معظم الأخوات لا يستعملن شكلاً «معتمداً» للحدّ من النسل. هناك عدّة أسباب لذلك. إحداها هي أن المسلمين يؤمنون أنها مشيئة الله في أن تصبح المرأة حاملاً أم لا. بوصفنا بشراً نعرف أننا نستطيع أن «نعقلها ونتوكل» نتخذ الخطوات الضرورية لضمان أن تكون النتيجة ممتازة، لكن أخيراً، نعرف أن النتيجة النهائية في يدي الله: إذا كان مُقدّراً لامرأة أن تحمل، فسيحدث ذلك.

كما قال النبي ﷺ عندما سُئل عن الحدّ من النسل: «لو أن الماء الذي يكون منه الولد أهرقته على صخرة لأخرج الله منها ولداً» رواه أحمد.

سبب آخر لعدم شيوع الحد من النسل على نطاق واسع هو أنه يتم تشجيع المسلمين على إنجاب الكثير من الأطفال، إنه جزء من الدين. قال النبي ﷺ: «تزوّجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم [يوم القيامة]» رواه مسلم. نتيجة لذلك، نسبة مواليد المسلمين في كل أنحاء العالم هي ضمن الأعلى، ومجتمعنا ليس مختلفاً. بخلاف أغلبية العائلات في هذا المجتمع، ليس استثنائياً أن ينجب الزوجان المسلمان أربعة أطفال أو أكثر.

الآن، بالنسبة للكثير من الناس اليوم، العائلات الكبيرة رمز للتخلف والأيام الغابرة عندما لم يكن البشر يعرفون كيف يسيطرون على عملية تناسلهم. يرى المسلمون الأشياء بشكل مختلف: في عيون الله، الأطفال نعمة، وليس نقمة أو «قيد على الحياة». لا نرى أن حياتنا تتوافق مع نوع معين من أسلوب المعيشة، السيارتين، حديقتين أمامية وخلفية، عطلة في الخارج كل سنة، ولهذا لا نعد الأطفال يقفون عائقاً في سبيل تحقيق ذلك. الأطفال أغلى من كل تلك الأشياء المادية، ويتم معاملتهم على هذا الأساس. لهذا يحتفل المسلمون الملتزمون بكل مستوياتهم المالية بالعائلات الكبيرة ويبتهجون بأنباء إضافة مولود جديد إلى الأمة، ويتضرعون بالدعاء أن يصبح الطفل مسلماً صالحاً، وعبداً مخلصاً لله.

إضافة إلى ذلك، يعد الكثير من الأئمة أنه لا يجوز تحديد عدد الأطفال خوفاً؛ من التعرض لمشكلات مالية. ويعود هذا إلى قول الله:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 31].

لهذا نحن نؤمن بأن كل طفل يولد ورزقه مقسوم من الله، بشكل مستقل عن والديه. على أي حال، هناك أوقات يصبح فيها منع الحمل ضرورياً. وفقاً للشريعة الإسلامية، في موقف قد يقود فيه الحمل أو الولادة إلى الإضرار بالأم أو وفاتها، تأتي سلامة الأم أولاً. في مثل تلك الحالات، يتم استعمال موانع الحمل عادة، إضافة إلى حالات أخرى تبرز فيها الحاجة لتلبية مطالب الحمل والولادة.

«ليس لديك أطفال بعد؟»

في الماضي، وفي معظم المجتمعات حول العالم، كانت قيمة المرأة تُقاس بدورها أماً إذا لم تكن تحمل، كانت غير ذات قيمة، تشغل حيّزاً دون جدوى، وكان يتم حثّ زوجها في العادة على أن يستبدل بها امرأة تستطيع منحه الذرية. في بعض الثقافات، ما يزال ذلك سائداً.

على أي حال، ليست تلك هي الحال وفقاً للإسلام. يقول الله في القرآن:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 49 - 50].

لا تعد المرأة المسلمة الملتزمة إنجاب الأطفال هو هدفها الوحيد في الحياة، لقد خُلقت لتعبد مولاها. إذا كانت تستطيع القيام بذلك عبر إنجاب الأطفال، فستكون تلك نعمة، لكن إذا لم تكن تستطيع ذلك، فهناك طرق أخرى عديدة للتقرّب من الله وعيش حياة إسلامية.

أخبرتني أم محمد: «في أحيان كثيرة، لا تستوعب ثقافة المجتمعات الإسلامية الإسلام حقاً. نعرف أن علينا الإيمان بالقدر، القضاء الإلهي، وأن لا شيء يحدث إلا بمشيئة الله. ربما يقوم الرجل والمرأة بالعمل، لكن

الأمر يعود لله حتى تحمل المرأة. كل شيء منوط بمشيئة الله سواء أنجبت صبياً أم بنتاً، سواء كنت غنية أم فقيرة، إنها إرادة الله».

قادني ذلك إلى مناقشة قضية «شائكة» أخرى، كيف يتم التعامل مع البنات في الإسلام.

قبل الإسلام، مارست المجتمعات العربية عادة وأد البنات، وذلك بدفن الرضيعات فيما لا يزلن على قيد الحياة، وبالفعل، في العديد من المجتمعات التي يكون فيها الإسلام الثقافي المعيار، ما يزال هناك وصمة في إنجاب البنت. يدين الله هذا في القرآن بأشدّ العبارات:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: 58 - 59].

هناك أيضاً عدّة أحاديث تتكلم عن فضل تربية البنات والاعتناء بهن. قال النبي ﷺ: «من عال ابنتين أو ثلاث بنات، أو أختين أو ثلاث أخوات حتى يمتن أو يموت عنهن كنت أنا وهو كهاتين». وأشار بإصبعيه السبّابة والوسطى رواه أحمد.

«في مجتمعنا، إن كان صبياً أم بنتاً، الأمر سيّان. إذا كان لأخت الكثير من الصبيان، ثم أنجبت بنتاً، يفرح الجميع؛ وإذا كان لديها الكثير من البنات ثم أنجبت صبياً، يحدث الأمر نفسه» ياسمين.

الأم، الأم، الأم ... ثم الأب

في الكثير من الثقافات في كل أنحاء العالم، تحتل الأم مكانة عالية مرموقة: إنها حاضنة الحياة، حاملة أجيال المستقبل، مربّية أفراد الغد،

وهـي تعالج، تهـدّئ، تواسـي وتحب،إنها أسـاس المجتمع القـوي والمحب. الإسلام ليس مختلفاً. يقول الله في القرآن:

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَـانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَـى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14].

سأل رجل النبي ﷺ: «من أحق الناس بحسن صحبتي؟»

أجاب النبي ﷺ: «أمك».

قال الرجل: «ثم من؟».

كرّر ﷺ: «أمك».

سأل الرجل: «ثم من؟».

كان الجواب: «أمك».

سأل الرجل مجدداً: «ثم من؟».

أجاب النبي ﷺ: «ثم أباك».

بنـاءً على هـذا وأحاديث أخرى كثيرة، تحتل المـرأة مكانة عالية رفيعة في حيـاة المسلم. لا داعي للقول: إن تلك المكانة صعبة المنال، وتتطلب جعل المنـزل مريحاً وملاذاً آمناً إضافة إلى التحلـي بالصبر تجاه كل الصعاب والشدائد التي ترافق تربية الأطفال وتحضيرهم للحياة.

عمل المرأة

كما ذكرت سـابقاً، العنايـة بالمنزل جزء من دور الزوجة المسـلمة. في البداية، وجدت ذلك صـعباً جداً، لأنني لم أفعل ذلك أبداً من قبل بعد أن

ترعرعت في زيمبابوي مع مربيات منزل طيلة حياتي. أيضـاً، وجدت الأمر رتيباً ومملاً، ومضـيعة للوقت كما كنت أعتقـد. ليس هناك تفاخر يرتبط بالعناية بالمنزل في مجتمعنا، خاصـةً للمرأة الشـابة. لن يكون أمراً جيداً أن تنشـغل المرأة كثيراً بإضاعة وقتها في تنظيف ألواح الأرضية إن لم تكن سـتدّعي، بالطبع، أنها «آلة التنظيف» عندها، يمكن تقريباً التغاضـي عن ذلك. لكن عندما جاءت شـقيقتي الكبرى لرؤيتي مـن وراء البحار، قالت شـيئاً جعلني أعيد التفكير بالأمر. كنت أكوي بعض الملابس، وأشتكي أنني لا أحب ذلك، عندما قالت لي: «وما الخطأ في العناية بمنزلكِ؟».

وقلت لنفسي: إن هذا صحيح، ما الخطأ في العناية بمنزلكِ، والحفاظ على نظافته ومظهره الجميل؟ ثم فكّرت في الثواب الذي سـأناله من الله، في هـذه الحياة والآخرة، إذا اعتبرت عملي المنزلي نوعاً من العبادة ـ كان سـيعني أن كل ذلك الجهـد المبذول في الحفاظ على المنزل بأفضـل حال، بغض النظـر عن رتابته، جدير بالاحترام. أصـبحت محرجة من محاولة عائلتـي المبطّنة، برغـم طبيعتها اللطيفة، دفعي للعنايـة أكثر بالمنزل ـ لم أكن أريد أن يعدوني مهملة؛ لهذا قرّرت تنقية عملي من الشـوائب. توقفت عن رؤية الأمر بوصـفه مضـيعة للوقت وبدأت أعده عبادة، وأنني أقوم بما ينبغي علي فعله، ولم أعد أفكّر به كثيراً حتى أسـتطيع التركيز على أشـياء أخرى أكثر إمتاعاً. وعندما فعلت ذلك، لم يعد الأمر عبئاً ثقيلاً.

> «لا يمكننـي القول: إنني أسـتمتع بأعمال المنـزل طيلة الوقت، لكن لأننـي أراه عبـادة، أسـتطيع القيام به، يمنحني ذلـك القدرة على القيام به» سارة.

في عيون الله، تحتل «ربّة المنزل» منزلة رفيعة مرموقة للدور الذي تلعبه في نطاق العائلة ومن ثم في المجتمع ككل، إنها الغراء الذي يجمعها معاً. الموقف السائد بين الرجال (والنساء) أن العناية بالمنزل وتربية الأطفال عمل أدنى مرتبة وأقل مكانة نوعاً ما، والذي لا يمكن فصله عن وجهة النظر الإسلامية. يدرك الدين بأن المنزل هو أول مكان لتدريب كل أفراد المجتمع وأنه ينبغي إيلاء بيئته الأولوية، لا أن تترك حتى آخر القائمة. إذا كانت الحياة في المنزل تسودها الطمأنينة والمحبة، فسيحظى نتاجها ـ الأطفال ـ بفرصة أفضل لأن يصبحوا راشدين متوازنين. لهذا، لا ينبغي أبداً التقليل من قيمة المرأة التي تعتني بالمنزل والعائلة.

الاختبارات والنعم

يقول الله في القرآن:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: 72].

لهذا، يرى المسلمون الأولاد نعمة من الله، نعمة نكون ممتنين لها. نراهم أيضاً أمانة: إنهم وديعة من الله لدينا والعناية بهم واجب ديني وعبادة.

> «عندما تُرزقين بأولاد، يجعلك ذلك تنظرين إلى العالم بشكل مختلف، تريدين أن تجعليه مكاناً أفضل لأولادك؛ لأنهم ليسوا لك، إنهم لله وقد منحهم لنا على سبيل الأمانة» ليلى.

ولد فارس، ابن هاجر، قبل أن تبدأ الالتزام بالتعاليم الإسـلامية، وقد سألتها عن الفرق في كونها أماً غير مسلمة ثم مسلمة.

«دوري أماً مسـلمة مختلـف تماماً عنه قبل الإسـلام. كنت معتادة من قبل على التصرف كما لو أنني أمتلك ابني. لا أفعل ذلك الآن، أقدّر تماماً أنه «أمانة» لدي، وأنه سـيتم سـؤالي عمّا فعلته بالأمانـة. الآن، أركّز أكثر علـى الحيـاة الآخرة في تربيته، وكل مـا يفعله بعد ذلـك بحياته يبقى من شأنه الخاص. إن شاء الله، سيكون ذلك الصواب».

لأن أولادنا أمانة في أعناقنا، ينبغي أن نعاملهم كما نعامل أي شيء نفيس يخص شخصـاً آخر: بعناية. لهذا من المهم بالنسبة لنا أن نعاملهم جيداً، نعتني باحتياجاتهم، نتحلى بالصـبر معهم، نعلّمهم الصـواب من الخطأ ونمنحهـم كل الحب، العنايـة والاهتمام الـذي يحتاجونه حتى يصـبحوا مسلمين ورعين واثقين من أنفسهم. توضح سارة، التي لديها طفل يبلغ من العمر سنة واحدة، الأمر بالطريقة الآتية: «إنه مثل أمانة ـ وديعة ـ أودعها الله لديكِ. وهذا ما كنت أعتبره أحياناً عندما كان ينتابني الكسـل بشـأن تغيـير مئزره أو أي شـيء آخـر للعناية به. ينبغي أن تتذكـري أنه نعمة من الله وأنه يتعين عليكِ بذل قصـارى جهدكِ معه. سوف تكونين مسؤولة عن تشكيله، تعليمه، تربيته، تنشئته وفقاً للإسلام».

لكن الأمومة، كما يعرف الجميع، ليسـت حياة رغيدة. مثل كل شيء في الحيـاة يمنحكِ ثواباً كبيراً، تتطلب عملاً شـاقاً، تفرّغاً وأحياناً تضـحية: يمكن للأطفال أن يختبروا صـبركِ أيضـاً ويدفعوا بك إلى أقصـى حدود الاحتمال. بالفعل، يصفهم الله عندما يقول:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 28].

وبالفعل، يختبر الأولاد أهلهم على عدّة مستويات، دينك، وقتك، جسمك وحالتك الذهنية، أي شخص ينبغي عليه أن يتحمّل نوبة غضب في وسط سوق مكتظّ يعرف ذلك. لكن، لأن تربية الأولاد إحدى مسؤولياتنا الدينية الأساسية، مسؤولية سوف يحاسبنا المولى عنها، تحظى بأهمية متزايدة في حياتنا، إنها أولويتنا القصوى بوصفنا أمهات مسلمات.

أمهات طيلة الوقت

بين الإرضاع الطبيعي، تغيير المئزر والنوم المتقلّب، شعرت دون خجل أو تحفّظ بحب جارف نحو طفلي. كنت مذهولة من معجزة الولادة، وأصابتني آنذاك الدهشة من رؤية أنامله الصغيرة الرائعة وعينيه الكبيرتين الجميلتين.

يستند أسلوب العناية بالطفل الذي يفضّله معظم المسلمين على مناحي متعددة من الطريقة التقليدية، منها الإرضاع الطبيعي والاشتراك معه في سرير أو في غرفة النوم خلال الشهور الأولى من حياته. لكن، الأكثر أهمية، أن نسختنا من الأمومة تتضمن العمل أمهات طيلة الوقت.

لم يخطر ببالي أبداً أن أخرج للعمل بدلاً من الاعتناء بطفلي، وأنه ينبغي بي قضاء الوقت في المكتب بدلاً من القراءة معه، وأن مكاني الطبيعي في اجتماعات الإدارة عوضاً عن مجموعة الأم والرضيع. لم أشعر أنني مطالبة بالبقاء في المنزل للعناية بطفلي، شعرت بأن ذلك امتياز، وكنت ممتنة؛ لأنني استطعت انتقاء ذلك الخيار.

طيلة قرون سـابقة، وفي كل ثقافة وحضـارة تقريباً، كان مكان الأم في المنزل، تعتني بأطفالها. يعلّم الإسـلام هذه القيم نفسها. برغم أن أغلبية الأمهـات اليـوم يعملن وقتـاً جزئياً أو كاملاً ويسـتفدن مـن مجموعة من خيارات رعاية الطفل لضـمان العناية بأطفالهـن، إلا أن الكثيرات يخترن البقاء في المنزل للعناية بأطفالهن طيلة الوقت. سواء كن أمهات تقليديات مع قيـم «محافظة» أو «أمهات ولـودات» يهتممن بتربيـة أطفالهن قربهن قدر المسـتطاع، يعتقد عدد كبير من النساء (والرجال) أن الأم أفضل من يمنح الرعاية للطفل. تبدو وجهة النظر هذه سائدة بين نساء المسلمين بغض النظـر عمّـا إذا كانت الأخت متعلمة أم لا، كان لديها عمل رائع سـابقاً أم لطالما رغبت بأن تكون ربّة منزل حالما تصبح أماً، يصبح طفلها أولوية لها. غني عن القول: إن الأم المسـلمة لا تسـتطيع العمل خـارج المنزل. بالفعل، في العديد من المجتمعات والجاليات الإسـلامية، تتولى الشقيقات، العمّات والجـدّات العناية بالأطفال فيما تخرج الأم للعمل طبيبة، طبيبة أسـنان، معلّمة، طالبة أو أي نوع آخر من الأعمال الذي تزاوله النساء المسلمات.

جزء من عمل الأم المسـلمة تربية أولادها على مُثل عليا قوية صـالحة. تلك المثل العليا التي تجسّـد جوهر الشخصـية الصـالحة: الإيمان بالله، الاسـتقامة، إضـافة إلى القيم العامة في التواضـع، الصـدق، الشجاعة، الكـرم، اللطـف، التعاطـف، الرحمـة والقوة. أفضـل هذه المثـل هي التي جسّدها نبينا محمد ﷺ، وتعليم أطفالنا ما كان يفعله يحثّهم على محبته واتّباع سُـنّته، وهذه واحدة من أولوياتنا الرئيسـة. تتضـمن مُثل المسلمين العليا الأخرى الأنبياء، الصحابة والأولياء الصالحين من الماضي، إضافة إلى بعض المسلمين البارزين في الزمن الحاضر.

تتضـمن هـذه التربيـة أيضـاً زيـادة معرفة الطفـل بـالله، محبته له والهدف من وجوده على هذه الأرض. يتضـمن ذلك تعليمه تقاليد الإسلام وشعائره، شعائر الطهارة (الوضوء)، الصلوات الخمس اليومية، الصيام في رمضـان، الصلوات المختلفة والأدعية المفضّلة خلال اليوم، عند ارتداء الثيـاب، تنـاول الطعام أو مغادرة المنزل، على سـبيل المثـال. في الجوهر، تربية طفل مسـلم عمل يتصـل بدين المرء، والعمل في مهنة يتصـل بحياة المرء الدنيوية. بالنسبة للمسلمة، يبدو واضحاً أنها ستكون له الأولوية.

على أي حال، ليست كل أم تلزم المنزل مرتاحة لذلك الدور. لطالما كان لدي شـيء خاص بي، مشـروع ما أو شيء آخر انشغل به؛ كنت قد تفاديت، حتـى إذا كان ذلك في ذهني فقط، لقب «ربّة منزل طيلة الوقت». اعترفت مي بصـراحة كاملة أن كونها ربّة منزل لم يكن ما تريده تماماً، وأخبرتني قائلـة: «لم أرد أبـداً أن أكون ربّة منزل، ولا أحب تلك الكلمة، ولا أحب تلك المكانـة. برغـم أن ربّات المنـزل يتمتعن باحترام كبير في الإسـلام، إلا أن ذلك الدور لا يناسـبني. لقد نشـأت لأكـون امرأة عاملـة. أحياناً، الموقف يفرض نفسـه ويكون عليّ أن أذكّر نفسـي بـأن عائلتي هي أهم شـيء في حياتي، وأنها هبة من الله ثم تغمرني السـعادة، وعندما تغمرني السعادة، أجد المزيد من الوقت لنفسي».

المعلمة

لدى العائلة الإسـلامية المثالية مؤسسـة قوية: الإيمـان بالله وعبادته. إنهـا أسـاس وسـبب وجودها. كل شـيء في تلـك العائلة ــ العلاقات بين أفرادها، سـلوكها، طموحاتها، نشـاطاتها ـ يتمحور حولها. بالنسـبة لمن

اعتنق الإسلام، كان ذلك مفهوماً جديداً بالكامل. كنا نعرف أن أحد أهم أدوارنا، بوصفنا أمهات، هو التعليم. لكن، في سبيل القيام بذلك الدور، علينا أن ننظر مجدداً إلى عائلاتنا، طفولتنا والتأثيرات التي ترعرعنا معها، الحكم على الأشياء التي أردنا مضاهاتها والأشياء التي أردنا تنحيتها جانباً. في جهودنا لإنشاء عائلة إسلامية تستحق ذلك الاسم، دون كبار في السن، معرفة أو تجربة لترشدنا، وجدنا أنفسنا منغمسات في عملية تعليمية، مستمرة حتى يومنا هذا.

كوننا اعتنقنا الإسلام، كان خيارنا جميعنا واضحاً، اخترنا الإسلام على معتقداتنا السابقة. لم يمر أولادنا بعملية اتخاذ القرار تلك. برغم أن الطفل الذي يولد لأبوين مسلمين أو أب مسلم يعد مسلماً، إلا أن ذلك لا يضمن بأي طريقة كانت صحة معتقده، إيمانه. الإيمان ليس وراثياً كما يبدو أن الكثير من المسلمين يعتقدون اليوم. لأن تعليم الإسلام هو وظيفتنا الأساسية بصفتنا والدين، ينبغي أن نشرح الدين حتى يكون مفهوماً وموضع تقدير من قبل أطفالنا، ويكون لديهم من ثم إيمان حقيقي يستند إلى المعرفة، وليس الخرافات، المفاهيم الثقافية أو الخوف. كونها معلّمة مدرسة بنفسها، تشعر رابية بأن الأخوات بحاجة لأن يتذكرن كيف يبدو عليه الأمر بالنسبة للجديد على الدين.

قالت: «ينبغي أن نتذكر الطريقة التي تعلمنا بها الدين. لقد تم شرح كل شيء لنا، قرأنا، تعلّمنا وتلك هي الطريقة التي يجب أن نعلّم بها أبناءنا أيضاً. ينبغي أن نعود إلى ذلك الزمن عندما لم نكن نعرف شيئاً عن الدين، وتعليم أبنائنا بالطريقة نفسها».

إحدى مزايا العيش في الغرب هي أن المسلمين يستفيدون من الأشكال الغربية لوسائل الإعلام ويعيدون صياغتها خدمة للإسلام. إحدى هذه الأشكال هي وسائل إعلام الطفل ـ الكتب، الأشرطة، الألعاب، الأقراص المضغوطة ـ وجميعها متوافر الآن لمساعدة الأطفال في التعلّم عن الإسلام بطريقة ممتعة. يتعلم الأطفال، من خلال القصص والأغاني، عن كل الأنبياء وقصصهم، إضافة إلى النبي محمد ﷺ وآله وصحابته، وتجعلهم يفهمون إرثهم وتاريخهم بوصفهم مسلمين، إضافة إلى منحهم نوعاً من الفخر بطريقة عيشهم.

التعليم الإسلامي في المدرسة

تقوم معظم الأخوات المذكورات في هذا الكتاب إما بإرسال أطفالهن إلى مدارس إسلامية أو تعليمهم في المنزل. لا يفهم بعض الناس أهمية المدرسة الإسلامية، لكن الكثير من المسلمين الملتزمين يشعرون بأنها بديل «ألطف» عن المدرسة الحكومية غير الإسلامية، التي يتعرض فيها الأطفال لكل أنواع التأثيرات التي يتعارض الكثير منها مع معتقداتنا.

تشدّد بيئة المدرسة الإسلامية على الوعي بإرادة الله في حياتنا، وكيف ينبغي أن تكون علاقة الطفل بمولاه، وأن يتعرف عليه، يحبّه ويفهم واجباته تجاهه. في أفضل حالاتها، تغذّي تلك البيئة محبة الدين، الآداب والأخلاق الإسلامية والطريقة الإسلامية في العيش. إنها تؤثر في علاقته مع الآخرين، كيف يعامل غيره، آدابه، لغته، أفعاله؛ وكذلك شعوره الخاص بالثقة والهوية، وأخيراً نوعية الشخص الذي سيصبح عليه. تساعد على جعل الطفل المسلم آمناً وواثقاً بهويته أو هويتها الإسلامية، ولا يشعر

بالإحراج لأنه لا يستطيع تناول شطائر لحم الخنزير، أو يشعر بالخجل عندما يحين وقت الصلاة أو يكون صائماً، ولا يكون هناك مشكلة في ارتداء الحجاب. بالمختصر، سيكون لديه فرصة لرؤية طريقة الحياة الإسلامية ـ طريقته في الحياة ـ بشكل «طبيعي».

العيد وعيد الميلاد

مثال ملموس عن فائدة أخرى لبيئة المدرسة الإسلامية هو أن الأطفال المسلمين لا يشعرون بالخجل لعدم احتفالهم بعيد الفصح أو الاشتراك في ألعاب عيد الميلاد. وفقاً للسُّنّة، المسلمون لهم عيدان في السنة: «عيد الأضحى وعيد الفطر». رمضان شهر البركة، وكل جمعة يوم خاص. تلك هي الاحتفالات التي شرعها الله. لهذا كيف يشعر الطفل المسلم عندما يشاهد أن كل الكتب، الأفلام والإعلانات تعرض الهدايا الملونة تحت الشجرة في عيد الميلاد، الأضواء البرّاقة في الشعانين والشموع المشتعلة على كعكة عيد الميلاد؟ من الطبيعي أن يرغب الطفل بكل تلك الأشياء، لكن المسلمين ليس مسموحاً لهم الانضمام إلى تلك الاحتفالات. إذ كيف يقوم الوالد المسلم، الذي يعيش في الغرب، بالتعويض عن كل ذلك.

بدلاً من مجاراة ما هو سائد والذي يتناقض مع معتقداتنا الدينية، كما يفعل الكثيرون هذه الأيام، نلجأ إلى أشياء بديلة مرتجلة. لم يسبق لابني أن أقام حفلة عيد ميلاد في حياته، لكن في عيد الأضحى قبل عدّة سنوات، أقمنا حفلة خاصة لكل أصدقائه مع بالونات، ألعاب، سباقات وحلويات وهدايا كثيرة. تعمل بعض الأخوات على تحويل كل جمعة إلى مناسبة خاصة ويبذلن جهوداً كبيرة في عيد رمضان (الفطر)، شراء ملابس جديدة،

القيـام بمشـروعات زيارة الأقـارب، تنظيم حفلات للأطفـال، نزهات أو رحلات إلى الخارج.

«حتى إذا كان ذلك سـيرهقني، فسـأفعل ذلك وأصحبهم في نزهة وأقوم بأشياء معهم؛ لأنه ينبغي أن يكون لديهم ذكريات عن الأعياد، بغض النظر عن الطريقة. يجعلهم ذلـك فخورين بدينهم وما هم عليه» مي.

المناهج والإسلام

ميزة أخرى للمدرسـة الإسلامية تتمثّل في وجود فرصة أفضل لتحقيق تـوازن بين المعرفة الإسـلامية ومقـررات المناهج مثل الرياضـيات واللغة الإنكليزية. لأن الإسلام يركّز كثيراً على التعليم ـ وهناك الكثير مما ينبغي تعلّمـه ـ لا يمكن تنحية ذلك جانباً في ثقافة الطفل المسـلم. لا يتعلق الأمر بإرسـال طفلك للحفظ في المدرسـة الدينية يومياً في المسـاء بعد المدرسـة العاديـة، هناك ما هو أكثر من ذلك بكثير. ينبغي أن يحصـل الطفل على مساعدة؛ حتى يفهم دينه كما ينبغي ويحبّه ويكون فخوراً به.

«أعتقد أن أهم شيء ينبغي أن يتعلمه الأطفال هو الدين؛ لأنه سوف يصحح أي شيء آخر. يقدّم الدين الإطار العام» سارة.

هـذا لا يعني أن الأخوات يعتقدن بضـرورة تجاهـل التعليم الموجود في المناهـج المدرسـية. على أي حال، من السـهل أيضـاً التشـديد كثيراً على المناحـي الدنيويـة في تعليم الطفل، كما شـرحت سـارة لي: «بعض الآباء طموحون جداً فيما يخص التحصـيل الأكاديمي، ويريدون منكِ أن تكوني

مؤهلة لكن ذلك ليس الهدف النهائي لنا، وإنما وسيلة لبلوغ الهدف. أعتقد أن الأمر يدور حول التوازن».

شخصياً، أريد تعليماً جيداً لأبنائي، تعليماً يتضمن معرفتهم بالدين؛ وأن يجيدوا كتابة اللغات وتحدثها؛ وأن يتعلموا العربية، وأن يفهموا الرياضيات، والعلوم، والأشياء التي تتم بها الأمور؛ وأن يفهموا ويتعلموا كيفية تلاوة وحفظ القرآن؛ معرفة تاريخ وثقافات العالم إضافة إلى إرثهم الإسلامي؛ تطوير مهاراتهم الإبداعية عبر الفن؛ أن يتعلموا الانضباط وقدراتهم الجسدية عبر الرياضة؛ وأن يتحلّوا بآداب جيدة وشخصية متواضعة، ويمتلكوا حباً للعلم والقراءة، وحب اطلاع بشأن الحياة والناس ورغبة بعيش الحياة بكل ما فيها من معنى. إنه ذلك التوازن بين التطور الروحي، الذهني والجسدي ـ بين الدين والدنيا ـ الذي نسعى، نحن الآباء المسلمين، لتحقيقه.

التوازن بين الدين والدنيا

في الحياة اليومية، من السهل أن تلهينا مشكلات الدنيا، الحياة الدنيوية. ربما نكون نعمل بجد كبير على مشروع معين، أو نتعرض للضغوط في العمل، بحيث يتراجع الدين إلى الخلف: نكتشف أننا لا ندرس كما كنا من قبل، أو أننا لم نعد نصلي بالتركيز والنشاط نفسه، أو نقرأ القرآن. يقدم لنا مجتمعنا الكثير من العوامل التي تشتت انتباهنا في إطار العمل والمتعة، ولهذا ليس صعباً أن نجد أن ذهن المرء قد انشغل كلياً بكل تلك النشاطات ـ وأهمل عبادة الله. هذا ليس معناه أنه ينبغي بنا الصلاة أو قراءة القرآن في كل دقيقة ـ المسلم مطالب بالتوازن وهذا ما كان عليه نبينا ﷺ. على أي حال، مثلما لا تستطيع طالبة تدرس لامتحان مهم أن تتخلى تماماً عن

كتبها للخروج والتنزّه في الطريق العام، كذلك المسلم لا يستطيع الابتعاد عن عبادة الله لتحقيق مطالب دنيوية لوقت طويل. لهذا ينبغي علينا تحقيق توازن بين حياتنا الدينية ـ الدين ـ وشؤوننا الدنيوية ـ الدنيا ـ في أنفسنا وفي أطفالنا أيضاً.

مثل والد سارة، هناك بعض الآباء المسلمين الذين يحبّون الدنيا لأبنائهم ـ تعليم جيد، راحة مادية، مكانة مرموقة، ترفيه، توافر أسباب الراحة ـ ويتجاهلون الدين تماماً. هذه هي غالباً نتيجة تقديم الدنيا على الدين. إنها وجهة نظر مادية ضيقة عما يهم في الحياة.

هناك أيضاً آباء مسلمون ينكرون على أبنائهم كل وأي شيء في الدنيا، ويدّعون أن «كل ما يحتاجون إليه هو الدين». ربما لا يحظى هؤلاء الأطفال بتعليم مناسب، ولا يكون لديهم وقت أو حيّز للراحة والنمو حتى يصبحوا مؤهلين للعيش في العالم السيئ الكبير. تلك وجهة نظر ضيقة ومقيدة عمّا هو عليه الإسلام.

يركّز الإسلام على التوازن، وهو في المنتصف بين هؤلاء المتشددين. لا أحد منا يريد أبناءً ليس لديهم معرفة عن دينهم، والشيء بالشيء يذكر، لا نريد التضييق عليهم بحرمانهم من معرفة الدنيا والمسرّات الحلال (الشرعية)، ضمن حدود معقولة.

لهذا تكون الكثير من الأشياء في هذا العالم الضارة بصحتنا الذهنية والجسدية مغرية وجذّابة، حلوة وممتعة ـ وهي أكثر تأثيراً على أولادنا. اليوم، تأتي كل تلك الأشياء بأشكال جميلة وتستهدف أطفالنا مباشرة ـ على قنواتهم التلفازية، خلال عروض الرسوم المتحركة، على مستوى أبصارهم في المتاجر، وجميعها تخاطبهم.

قالت لي هاجر: «أعتقد أن الأطفال يتمتعون بالكثير من الحقوق لتقرير ما يناسبهم في مجتمعنا، وهذا يعني أنهم يقترفون الكثير من الأخطاء في اعتماد خياراتهم. أعتقد أن عليهم قبول حقيقة أننا آباؤهم، وأن معرفتنا، في هذه المرحلة، أفضل منهم».

عندما قالت ذلك، فكّرت في نوبات الغضب، الطعام الشهي الذي يتركونه في الأطباق، الإزعاج الذي لا ينتهي للحصول على الوجبات المليئة بالسكر والطعام السريع، العيون التي تحدّق على شاشات التلفاز طيلة ما بعد الظهر، ثياب الفتيات الصغيرات التي تشبه ملابس كريستينا أغويلرا، واكتشفت أنني أتفق معها. بالفعل، عندما كانت الكثيرات منا جديدات على الدين، مع أطفال صغار، حاولنا إغلاق الباب على كل تلك الأشياء.

بالعودة بضع سنوات في حياة مجتمعنا، قالت لي رابية: «عندما بدأت الأخوات ينجبن أطفالهن، كان هناك نوع من «أبعدوهم عن باقي العالم». صرامة كبيرة: ممنوع هذا، ممنوع ذاك.

على أي حال، يكبر الأولاد ونصبح أكثر تجربة، وتبدأ الأمور تتغير.

«يصل الأولاد إلى عمر الست أو سبع سنوات، ويبدؤون التعبير عن آرائهم وطرح الأسئلة. ثم يصلون إلى العاشرة، الحادية عشرة ويبدؤون باتخاذ المواقف. لهذا تبدأ الأخوات بتغيير أسلوبهن أيضاً: لا تستطيعين وضعهم في صندوق وإغلاق القفل عليهم. يدركن أن ذلك ليس عالماً مثالياً ينمو فيه أطفالهن؛ ليكونوا مسلمين مثاليين».

بالفعل، ندرك أننا لن نستطيع إبعادهم عن العالم الخارجي، الدنيا. إنها في كل مكان ولا يمكن تجاهلها، وكذلك أولادنا. لهذا يكون علينا أن نبدأ بمناقشة الحيّز، وأن نعرف متى نسمح ومتى نمنع، وما الذي نعرّضهم له وما الذي نخفيه عنهم، في ذلك الوقت على الأقل.

«لا تستطيعين تدثيرهم، ووضع قطن حولهم، لا يمكنكِ فعل ذلك. أنا وزوجي أكثر واقعية. مقاربته هي: لندعهم يتعرفون عليه ـ ليس كثيراً ـ على أن نكون هناك دائماً لنشرح لهم ما يجري. عندما تكونين صارمة كثيراً ثم تسمحين لهم بالانطلاق، يصلون على نحو ملائم إلى الجانب الآخر» مي.

شرحت هاجر الأمر بالطريقة الآتية: «أشعر بأنني لا أستطيع وضع ابني داخل شرنقة. إذا عشت في اليمن وكنت أعرف أننا سنعيش ونموت في اليمن، ستكون تربيته «إسلامية تماماً»، لكن كل المجتمعات التي عشت فيها تولي الدنيا أهمية كبيرة، ويكون من الصعب تجاهل ذلك. لكن إذا حاولت إنكار كل ذلك عليه، فسأصبح مضطهِدة، ولا أريد أن أكون مضطهِدة في هذه الدنيا».

مدرسة قديمة، مدرسة جديدة

في القرآن، شدّد الله كثيراً على الأولاد في طاعة، الاحترام والتعامل بلطف مع الوالدين. في العديد من الآيات المختلفة، الإحسان إلى الوالدين مذكور مباشرة بعد عبادة الله وحده، وهو أساس الإيمان في الإسلام:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ [الإسراء: 23].

«إنه مزيج من الحب والاحترام. عندما أفكّر في تربيتي، أقول: «لماذا أطيع والدي؟ ليس أنني خائفة منه، ولكني أطيعه لأنني أحبّه وأحترمه كثيراً» سارة.

عندما سألت أم محمد عن أسلوب تربيتها، قالت لي: «سأقول، نعم، أسلوبي في التربية هو أن أولادي ينبغي أن يطيعوني، لكن في نهاية اليوم ينبغي أن أتعامل مع الأشياء بطريقة يفهمونها، لا يمكنني إملاء الإسلام على أطفالي. ينبغي أن أعلّمهم الإسلام بطريقة تجعلهم يرغبون باتبّاع تعاليمه».

هذا التشديد على الطاعة ينبغي أن يكون مغلّفاً بالطبيعة اللطيفة المحبة للعلاقة بين الأبوين والطفل، كما هو مذكور في القرآن والحديث. كان النبي ﷺ بنفسه محباً ولطيفاً للغاية مع الأطفال. مرة، رآه رجل يقبّل ابنه فقال: «لدي عشرة أطفال ولم أقبّل أحداً منهم من قبل». قال النبي ﷺ: «من لا يرحم لا يُرحم». قال النبي ﷺ أيضاً إن الله يُثيب على الرفق ما لا يثيبه على العنف.

«لا يمكنكِ أن تصبحي شديدة كما ترغبين طالما أنكِ تحظين بالتواصل، والاحترام والتقدير. وأظهري لهم الكثير من الحب؛ حتى يعرفوا أنكِ تحبينهم» هاجر.

لهذا، برغم أن الأبوين المسلمين يتوقعان مستوى من الطاعة والاحترام من أولادهما، هناك أيضاً تشديد كبير على إقامة علاقة محبة معهم. وعندما نجح الأمر، كنت متأثرة للغاية من الأطفال الذين يحترمون آباءهم ويفعلون ما يؤمرون به، لكن الذين لا يخافون أيضاً من التعبير عمّا يجيش في أنفسهم ويضحكون ويمرحون مع آبائهم. الفرق هو أنهم يعرفون متى يقومون بهذا الشيء ومتى يفعلون الأشياء الأخرى.

أسلوبي الخاص في التربية في حالة مستمرة من التدفق. كوني مسلمة ملتزمة، ليس ممكناً بالنسبة لي اعتماد مقاربة عدم التدخل في رعاية الأطفال، السماح لأولادي بفعل كل ما يجول في ذهنهم، دون أي حساب للحدود التي وضعها الله. بالنسبة للوالدين، يعد كل من الأب والأم مسؤولين عن تعليم أبنائهما الصواب من الخطأ، إضافة إلى أخلاق وآداب الإسلام، وهما مسؤولان أمام الله عن ذلك.

لكننا، مثل الكثير من الآباء من جيلنا، نواجه عدداً كبيراً من الآراء المتناقضة بشأن أفضل طريقة لتحقيق ذلك. نتأرجح بين الطرق التقليدية، طاعة الوالدين، احترام كبار السن، القيام بما تؤمر به، عدم الرد بفظاظة، والطريقة التحررية العصرية، احترمي رأي طفلك، امنحيه خيارات، تواصلي معه. وجدت أن كلتا الطريقتين لا تجديان نفعاً طيلة الوقت وأن علي المزج بينهما ومقارنتهما للتعامل مع مواقف مختلفة. هناك أوقات ينبغي أن أقوم بها بتذكير ابني بالله وما يحبّه له: ليقوم بالشيء الصحيح. في أوقات أخرى، مثل الأمهات في كل أنحاء العالم، أجد نفسي أتكلم باستمرار، أساوم، أفاوض وأضرب رأسي بالحائط المصنوع من الآجر، الإحباط مروع. مثل العديد من الآباء الآخرين، مسلمين وغير

مسلمين، ما زلنا نحاول الوصول إلى مكان بين هاتين الطريقتين المختلفتين في التربية، لم يتم حسم المعركة بعد.

سنوات المراهقة

سنوات المراهقة مرحلة عصيبة في حياة كل شاب، لكنها كذلك خاصةً بالنسبة للمسلم. هناك الكثير من التناقضات، الكثير من الخيارات الصعبة، والكثير من الإغراءات. في المجتمع الغربي، سنوات المراهقة مثل نعمة وتمثّل وقتاً تحصلين فيه على استقلاليتك دون أن تتحملي الكثير من المسؤوليات، وتعملين فيها على شخصيتك فيما لا تزالين تحت سقف والديك. لهذا، مقدار معين من التمرّد والمشاكسة العامة شيئان متوقعان، إن لم يكن ضد كل أبوين، فمن كل أبوين يعتمدان طريقة التربية الأمريكية!

في الإسلام، الإنسان مسؤول عن تصرفاته حالما يصل مرحلة البلوغ. ليس هناك مدة يتم فيها إما التغاضي أو الانغماس في أنماط السلوك السيئة ـ في عيون الله، ليس هناك فرق بين المراهقة التي تتعاطى الممنوعات والراشدة التي تتعاطى الممنوعات ـ وتكون الآثام والعقوبات متساوية، عدا إن كان المرء يفتقر للمعرفة.

لا يوجد الكثير من المراهقين المسلمين في الغرب اليوم الذين يقدّرون هذه الحقيقة، ونتيجة لذلك تشهد حتى بيوت المسلمين مشاجرات بشأن الشعر، والملابس وثقوب الجسد. في الكثير من الحالات، تكون تلك الاشتباكات ناشئة عن الثقافة وليس الدين. يحاول بعض الآباء، الذين نشؤوا مع بعض المعايير الثقافية المعينة، تطبيقها على أولادهم المتغربين

والذيـن لا يمتلكـون، بالطبع، أياً منهـا. يعتقد هؤلاء الآباء أنـه لا بأس أن يتعلّم أولادهم أساليب البلد الذي يستضيفهم من الحضانة حتى المدارس الثانويـة، ثم يحاولون في مرحلة مـا فرض نوع من الثقافة والهوية القومية التـي لا يمتلكها الابـن. عندما قرأت عن حالات مثل هـذه، نزف قلبي من الآباء المحبطـين والمراهقين الأكثر إحباطاً وتشويشـاً. على أي حال، كنت قد شـهدت أمثلة عن مراهقين يترعرعون في الدين ويلتزمون به، مقتنعين بالخضـوع لأوامـر الله، ليس لأن آباءهـم مسـلمون، لكن لأنهـم يؤمنون بالإسـلام بأنفسـهم. تكـون هذه عـادة نتيجة مسـتوى عالٍ مـن المعرفة، العبادة والدراسـة ضـمن المنزل وجهود تقديم مخارج حلال للعوامل التي تسبب الإحباط للمراهقين عادة.

برغـم أن معظـم المراهقـين يتطلّعون نحـو آخر فرقة بـوب أو مطربة شـهيرة، ويقلّدون سـلوكهم وأسـلوبهم، إلا أن تلك ليسـت حـال المراهقة المسلمة الملتزمة.

أخبرتني رُميثة التي تبلغ من العمر ست عشرة سنة: «أتطلع نحو بعض صـفات الصـحابيات ـ صـحابة النبي ﷺ ـ وأتطلع نحو صـديقات أمي. أعتقد أنهن كائنات قويات: لقد تجاوزن صعاباً مختلفة وما زلن قويات».

على أي حال، برغم أن كل من يراها في الشـارع، مغطّاة بالسـواد من أعلى رأسـها إلى أخمص قدميها، سيجد صعوبة في تصديق ذلك، إلا أنها تشـترك ومثيلاتها في الكثير من الأشياء مع المراهقات الأخريات، «أعتقد أنني أشبه المراهقات الأخريات، بغض النظر عن حقيقة أننا مسلمات وأن هناك أشياء معينة لا نفعلها ويقمن بها. نحب الملابس والأزياء نفسها مثل أي شخص آخر».

لهذا، سألتها عمّا ترغب بفعله بحياتها، وقد أجابتني: «أريد فعل الكثير من الأشياء. أريد زيادة معرفتي بالدين، إضافة إلى ذلك أريد القيام بأشياء معينة من أجل مستقبلي؛ حتى أستطيع الحصول على عمل أفضل ومن ثم أشياء أفضل مثل منزل جميل، سيارة رائعة، أن أكون بحالة جيدة مادياً كما هو الحال مع ديني. أرغب بالسفر إلى الكثير من البلاد المختلفة وأريد أن أصبح خبيرة تجميل أو ممرضة أسنان أيضاً».

أُفٌ! وهل هي في عجلة من أمرها للزواج؟

«أريد الزواج وإنجاب أطفال، لكن ذلك ليس على قمة لائحة أولوياتي، أريد إنهاء ما أقوم به أولاً».

سألت والدتها إذا كانت قلقة من أن يصبح أولادها ضعفاء ويتخلّوا عن الدين، وأن يرتدّوا عن الإسلام. قالت، بحصافتها المعهودة: «إنه ليس خوفاً بالنسبة لي. إنه شيء لا أرغب بأن يحدث، لكنه ليس شيئاً أخاف منه؛ لأنه في نهاية الأمر الله من يهديهم سواء السبيل».

شيء لطالما أزعجني، عندما يتعلق الأمر بالمراهقين المسلمين، هو المعايير الأخلاقية المزدوجة الشائعة في الكثير من المجتمعات الإسلامية، وينتج عن ذلك حبس الفتيات في المنزل؛ صوناً لطهارتهن وشرف العائلة، فيما يكون مسموحاً لأشقائهن بالخروج، وتناول الشراب، وتعاطي الممنوعات وإقامة العلاقات. يبدو أنه، كما هو الأمر في الكثير من المجتمعات في أنحاء العالم، لا بأس للفتيان بأن يخرقوا كل القواعد، فيما الويل للفتاة التي تخرج قليلاً عن المألوف. على أي حال، ليس لهذا الموقف أساس في الإسلام: يُتوقع من كل من الفتيان والفتيات أن يتقيدوا بحدود الله.

ناقشت مع أم محمد قضية تربية البنات والصبيان، واكتشفت أن طريقتها مختلفة تماماً عن التقليد السائد.

قالت: «تربية البنت ليست أصعب من تربية الصبي، من ناحيتي. إسلامياً، كل ما يكسبانه في هذه الحياة، يكون الثواب نفسه من الله. لهذا، برأيي، ينبغي أن تكون تربية ابني مطابقة لتربية ابنتي. ليس الأمر أن تكون ابنتي تقيّة وأن يخرج ابني إلى الشوارع، ينام مع الفتيات، يحدث ذلك في الكثير من المنازل ذات الثقافة الإسلامية. أشعر بأنه ينبغي على ابني التقيّد بالمبادئ ذاتها مثل ابنتي ؛ لأن الإسلام لا يقول أن يفعل ابنك شيئاً وتفعل ابنتك شيئاً آخر».

سألت ياسمين عن آمالها لابنتها المراهقة الساذجة سُميّة، وقالت: «أولاً، أرغب بأن تصبح مسلمة تقية، تعرف مولاها، دينها وحقوقها، من المهم بالنسبة لي أن تعرف ابنتي كل ذلك».

توازن العمل/الحياة

بوصفنا أمهات مسلمات، تتوزّع حياتنا بين ديننا (الدراسة، أعمال العبادة، وقت للتأمل)، عائلاتنا (الواجبات المنزلية، رعاية الأولاد، العناية بالزوج) وأنفسنا (تطوير أنفسنا، تدليل أنفسنا، الاسترخاء)، وكما هي حال معظم الأمهات، هذا الشيء الأخير غالباً ما يكون مهملاً! من واجبنا دراسة ديننا في جهودنا المستمرة؛ لنصبح عباداً أفضل لله. ليس لعائلاتنا فقط حقوق علينا، وإنما كما هو مذكور في الحديث، لأجسادنا علينا حقاً أيضاً، وتتضمن أن نعتني بها ونهتم بصحتنا.

«ينبغي أن أبذل جهداً خاصاً لضمان أنني أخصص وقتاً لنفسي، جسدي ودراسة الدين، إذا لم أفعل ذلك، فسأشعر حينها بأن لا قيمة لي» مي.

برغم أن معظم أخواتي أمهات متفرّغات لتلك المهمة، إلا أنهن لا يوجدن جميعهن في البيت، ويقمن بالأعمال المنزلية مع الكثير من الأطفال يجرون حولهن. إنهن أخوات من مجتمعنا استطعن تحقيق توازن مذهل في أعمالهن، وغالباً ما يؤدين الالتزامات العائلية ويعملن أو يدرسن. ليس سهلاً، برغم ذلك، إيجاد عمل ملائم إسلامياً، ويسمح لنا بتغطية أنفسنا بالطريقة التي نريد وتتوافق مع متطلباتنا العائلية.

على أي حال، تغلبت الكثير من الأخوات على هذه العقبة إما بإنشاء أعمالهن الخاصة أو بالعمل بشكل مستقل من المنزل. تدير إحدى الأخوات من مجتمعنا، كريمة، عمل توريد أطعمة ناجح للغاية خارج لندن؛ وهي صاحبة القول الفصل: تعمل مرتدية نقابها، وطعامها يتكلم نيابة عنها. كانت تقول لي دائماً: إنه إذا كان عملكِ جيداً بما فيه الكفاية، فسينجح لدى الناس بغض النظر عن مظهرك. لكن، كما هي حال الكثير من «الأمهات العاملات» الأخريات، لذلك الدور تحدّياته الخاصة به وحصته الكافية من المشكلات.

بدأت العمل عندما كان عمر ابني نحو الثلاثة شهور، أعتقد أنني لم أستطع منع نفسي. مع التشجيع من بعض الأمهات اللواتي يعشن بالقرب مني، قمت بإنشاء مدرسة منزلية إسلامية صغيرة للأطفال في الحي. بعد سنة، كان لدينا تسعة أطفال ونغطي كل موضوعات المناهج المدرسية،كانت قد أصبحت جزءاً رئيساً من حياتي.

علـى أي حال، عندما بدأ ابني يكبر، بدأت أشـعر بالذنب أكثر فأكثر. لم يكـن آنذاك يذهب للّعب في منزل إحدى الأخوات في الصـباح وأراد أن يشـترك في كل مـا يخص الأولاد، مـع عواقب تعطيل العمـل. وعند ذلك، عندما ذهبت لزيارة صديقتي في ويلز، اكتشفت أن ابنة أخيها، التي كانت بنفس عمر ابني، تقول آنذاك كلمات وتتعرف إلى صـور. كنت مذهولة، لم يكن لدي الوقت أو المخيلة لقراءة تلك الكتب الصـغيرة مع ابني، وانتابني شـعور مروّع. مـاذا كنت أفعل؟ لم يكن الله ليسـألني عـن أولئك الأطفال الآخريـن، كان سيسـألني عن ابني. كيف كنت سـأبرّر إهمال مسـؤوليتي الأساسية من أجل العمل الذي لم أكن بحاجة للقيام به لأسباب مادية؟

قـرّرت أن ابني ينبغي أن يكون أقصـى أولوياتـي، وقلت للآباء: إننا لن نفتتح المدرسـة في الفصـل الجديد. واسـتطعت تكريس وقتي لاستكشاف مواهـب ابني وتطويرها. لكن برغم ذلك، شـعرت بالقلق. كنت أعرف أن ما قمت به كان صـائباً في عيون الله، بالمحصـلة، كان ابني مسؤوليتي ولم أسـتطع تجاهل ذلك. لكن مواهبـي الإبداعية كانت تتدفـق، وبدأت أكتب قصصـاً وشعراً للأطفال وأحمل فرشاة الرسـم مجدداً، وكنت أعرف أن تلك أشـياء أستطيع القيام بها بسهولة فيما أعتني باحتياجات ابني. وكان ذلـك المعيـار الرئيس بالنسـبة لي، كنت أعـرف أنني أرغـب بالعمل، وأن أسـتفيد من وقتي بشـكل مبدع ويكون لي اهتمامات خارج المنزل، لكني لم أكن أرغب بإهمال دوري الرئيس في أثناء القيام بذلك.

على أي حـال، أحببت المخرج الذي وفّره لي النشـاط الإبداعي وكتابة القصـص المصـوّرة للأطفـال، واسـتمتعت بالعمل مـع الناشـرين. كان ذلك أيضـاً امتيـازاً لإنتاج كتب خياليـة للأطفال عن ديننـا، على أمل أن

أسـهم في تقديم فهم أفضـل للإسـلام. عبّرت أخوات أخريات يعملن عن مشـاعر مشابهة بشأن أعمالهن، إنها وسيلة تحرّر، نوع من التغيير ونشاط اجتماعي، إضافة إلى كونها مصدراً للدخل.

«الأمر صـعب، لكني أسـتمتع به. أسـتمتع بعملي، أستمتع بالنشاط الاجتماعـي ولقـاء النـاس. أحـب الوجـود بجانب الأخـوات: هذا يناسـب إيماني، سـنتكلم عن أشياء، سنضحك وسـنتناقش. لهذا حتى عندما أحظى بعطلة، أكون سـعيدة للاسـتراحة، لكني أفتقد للوجود بجانب الأخوات كل يوم» أم محمد.

لكن لم يكن هناك أدنى شـك في ذهني بأن دوري الرئيس يتمثّل بكوني زوجـة وأماً، وبين الحين والآخر، كان علي تذكير نفسـي بذلك، وأن أضـع العمل جانباً للاعتناء باحتياجات عائلتي. لطالما كنت أشـعر بقوة أنني إذا قمت بواجباتي فإن الله سـيبارك كل شيء آخر أفعله بالنجاح. والحمد لله أنه قد سدّد خطاي حتى الآن.

وهكـذا، بالتزامن مـع إقامـة علاقة وثيقة مـع شـبابنا، تعليمهم عن الله، شـرح طريقتنا في الحياة والعالم من حولنا، قضاء وقت كافٍ معهم، الاستمتاع معاً وإنشاء حياة عائلية غنية ومتنوعة، نأمل بوصفنا مسلمين في الغرب بأن نمنح أولادنا أفضل ما يمكن للطفولة الإسلامية أن تقدّمه. وإذا نجح الأمر، لن يشعر أولادنا بالقسوة ـ سيجدون السعادة، المتعة والإنجاز ضمن طيّات الإسلام.

«أنا فخورة بكوني مسـلمة وأريد أن يشـعر ابني كذلـك. أعتقد أنه إذا شـعر بامتياز كونه مسـلماً، فسـأحارب كل الأشياء التي تحرّك رغباته. لا أريده أن يشعر بأنه يفتقر لأي شيء» ليلى.

إنشــاء عائلة مسلمة حقاً ليس عملاً سهلاً، لكنه عمل نبيل. إنها إحدى أســس البناء المتــين لمجتمعنا ومســتقبل أجيالنــا؛ لأنه ينتج عنهــا أطفال ملتزمون، على أمل أن يكبروا راشدين ملتزمين ويزيدوا من ذرية المسلمين الملتزمــين. بهذه الطريقــة، وعبر الالتــزام بمبادئنا والعيش وفقاً لمشــيئة مولانا، الله، تعدّ العائلة المســلمة نموذجــاً رائعاً عمّا يمكن لطريقة الحياة الإسلامية أن تقدّمه للمجتمع.

9

الجذور والأسس

إذا كان اعتناق الإسلام، الزواج وإنجاب طفل مغامرات قمت بها ضمن الإسلام، فإن تعلّمي وتقديري للقيم الإسلامية، الخضوع لله، الصبر، السعي لاكتساب المعرفة، كان شيئاً رائعاً وصعباً. كان تعلم الخضوع لمولاي الأصعب بعد سنوات من التمرّد المبجّل. كان تعلّم الصبر أمراً أسهل، وقد جلب معه السكينة والسيطرة على النفس. بدأ السعي لاكتساب المعرفة بالدين مع تلك الآيات الأولى من القرآن، كم تلعثمت في البداية، ثم سنة بعد أخرى، أصبحت أفضل مع ازدياد ثقتي بنفسي ومعرفتي بالعربية. وينتج عن المعرفة هدايا قيّمة من الإلهام، والفهم والاستبطان (بحث الدوافع). وحياة المسلم ليست محكومة فقط بالأعمال اليومية من حلال وحرام، شرعية وغير شرعية. لا يمكن معرفة النساء المسلمات من خلال حجابهن، وزواجهن وأولادهن فقط. إنهن في أفضل الحالات، مثل إخوتهن المسلمين، بشرٌ يحاولن السيطرة على رغباتهن، ألا يستسلمن لنفاد الصبر واليأس، ويسعين، مثل كل من يذهب في رحلة عظيمة، للبحث عن المعرفة. إنهنَّ طالبات دين، يبحثن، يسألن، يحفظن ويتصرفن دائماً وفقاً لما تعلمنه. إنها هذه القيم، وليس الأفعال الدنيوية في الحياة اليومية، التي تمنحنا قوتنا، وشجاعتنا، ومرونتنا وأملنا. تعزّز هذه القيم كينونتنا وتجعلنا نتشبث بطريقتنا في الحياة.

لقد تصـديت للكثير من القضـايا الخلافية التي تتناول مسـائل تتعلق بالنساء المسلمات، إضافة إلى قضايا تشكّل جوهر حياتنا اليومية، طريقة لباسـنا، زواجنا، أولادنا. كل هذه مثل أزهار وفاكهة على أغصان شجرة. لكن من المهم أن نتذكر أن الشجرة ليست أوراقاً فحسب، لها جذع وجذور عميقة. تعزّز هذه الجذور قيمنا وينبغي استكشـافها؛ لنفهم حقاً معنى أن نعيش الإسلام.

الكفاح للخضوع

هناك بضع كلمات غير محبوبة في مجتمع اليوم مثل «إذعان» و «طاعة». يتناقض هـذان المفهومان مع «حرية» ديمقراطياتنا الليبرالية المعاصـرة. في الواقع، اسـتعمال كلمات إنكليزية لوصـف مفاهيم إسلامية معينة عمل ينطـوي علـى مجازفة كبيرة. هنـاك الكثير مـن الكلمات التي نسـتعملها بانتظام في اللغة الإسـلامية لها معاني سلبية أو ناقصة في السياق الغربي المعاصر، ومنها: «إذعان»، و«طاعة»، و«استقامة» و «تقوى». في الواقع، هذه الأيام، يبدو أن أي شيء له علاقة بالورع الديني يصبح موضع سخرية.

ليست هذه الحال بين المسلمين. لا نشارك في ازدراء المجتمع لهذه القيم وغيرها التي يحثّ عليها الإسـلام. ربما يكون هذا أحد العوامل التي تجعل العالم الإسـلامي يبدو غـير مفهوم للغرب؛ في مجتمعاتنـا، ما يزال الرب مهماً، ويشغل بين المسلمين الملتزمين مركز علاقاتنا.

«أحد الأسـئلة التي طرحتها على نفسي: «هل أذعنت فعلاً؟» أعتقد أنه حتى هذا اليوم، أتسـاءل إن كنت قد فعلت حقاً. سـأقول: إنني أذعنت، لكن الله يعرف تماماً ما في قلبي حقاً» عالية.

بالفعل، الإذعان جوهر إيماننا والطريقة التي نعيش بها حياتنا. الإذعان هو أولاً لله وحدوده. هذا يعني محبة ما يحب، الابتعاد عن كل ما يغضبه، الإيمان بكلمته والعيش وفقاً لشريعته. كل هذا يستلزم الإذعان له، لأنه وفقاً لما قالته لي سارة: «عندما تكتشفين الحقيقة، لن تكون دائماً ما ترغبين به». هناك أوقات يتعارض فيها ما نعرف أنه ينبغي القيام به مع ما نرغب بفعله، دفع الفواتير بدلاً من الذهاب في رحلات خلال عطلة نهاية الأسبوع، قراءة القرآن بدلاً من مشاهدة التلفاز. الحياة معركة مستمرة بين الواجب والرغبة. بالفعل، هذا مذكور في الحديث، وفيما الطريق إلى نيران جهنم محاطة بالملّذات والإغراءات، فإن الطريق إلى الجنّة محاطة بالصعاب، والأشياء التي تتطلب تضحية وكفاحاً. بالطبع، حالما تؤدين واجبك، تشعرين بالراحة الناتجة عن معرفة أنكِ قمت بالصواب. في لغة الإسلام، يدعى الكفاح لإنجاز واجبك بدلاً من إطلاق العنان لرغباتك جهاد النفس.

«بالنسبة لي [الإذعان] يعني التخلي عمّا أرغب فعله من أجل ما طلب مني الله القيام به». ليلى

سألت أخوات عمّا يعنيه «الإذعان» لهن، وبالنسبة لهن جميعاً، كان مقاومة رغباتهن جزءاً مركزياً فيه.

بكلمات سارة: «الإذعان هو اكتشاف السكينة مع الله، إيجاد السكينة في نفسك وأن تكوني صادقة مع الله. إنها حول تنحية رغباتكِ جانباً؛ لأن كل ما يطلب منا القيام به لصالحنا بطريقة أو بأخرى. ربما لا نقدّر ذلك، ونريد أن نعرف السبب، لكن كل ما يطلبه منا لصالحنا. عندما لا تطيعين

الله وتعرفين أن كلامه الحق، وأن أوامره حق، تضطربين. شخصياً، عندما لا أطيع الله، لا أكون في سكينة مع نفسي».

مجتمعنا مفتون بالعصيان. نعتبر أن التمرد ضد الوضع القائم، وتحدّي السلطة وتخطي الحدود أمرٌ مثيرٌ للإعجاب. لهذا كيف يتوافق ذلك مع ثقافة تكون فيها السلطة التي نتكلم عنها هي مولى السماوات والأرض؟ عندما يضع الحدود لكل زمن ولكل البشر من الواضح، في هذا السياق، أنه لا يمكن الحفاظ على الصورة الساحرة للتمرّد.

خلافاً لوجهة النظر الغربية، الطاعة وليس التمرّد التي يتم اعتبارها سمة شخصية جيدة في الإسلام. تم إعلاء شأن الطاعة في مجتمعات العالم طيلة آلاف السنين، وفي تلك المجتمعات يُتوقع من المواطنين طاعة أولي الأمر، كبار السن والتقيّد بالتقاليد والابتعاد عن المحرّمات المتنوعة. تغيّر الكثير في العقود الأخيرة. على أي حال، في الإسلام، برغم أن الطاعة تحتل مكانة مرموقة، إلا أنها ليست مطلقة دون قيود: الطاعة مباحة فقط عندما يؤمر المرء بفعل الخير. لا طاعة في الاستبداد، الاضطهاد، الإثم، الخطيئة، الخداع أو الاعتداء. وتستند الطاعة في الإسلام على الدليل. الإذعان والطاعة لا تعنيان أن نتبع من غير هدى أي شيخ يقول كلمتين بشأن الدين. ينبغي أن يبرهنوا على أقوالهم، وإذا كان ما يأتون به الحق، عندها وفقط عندها، لهم منا السمع والطاعة.

الصبر

في عدّة مواضع من القرآن، يأمر الله بالصبر. يمدح الأنبياء نوحاً، وأيوب، ويعقوب، ومحمداً ﷺ والصالحات، مريم وآسية (زوجة فرعون).

يتم إعلاء شأنهم جميعاً لثباتهم وصبرهم، خاصةً مع الصعاب التي ترافق طاعة الله ودعوة الناس لعبادته وطاعته.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34].

تتماشى ميزة الصبر مع الإذعان، لأن الإذعان ليس سهلاً دائماً بالطبع. جهاد النفس، المعركة الروحية مع رغبات المرء، لا تنتهي أبداً وتحتاج إلى يقظة مستمرة والكثير من الصبر. الصبر في عبادة الله، الصبر على الصعاب التي قد يجلبها ذلك، الصبر مع الناس الآخرين، الصبر مع وعد الله. سوف يساعدكن الصبر على وضع النقاب في قيظ الصيف، ويمنعكن من الاستسلام لدى مواجهة مشكلات زوجية، سيجعلكن قويات بما فيه الكفاية لإنهاء الصيام عندما تكون معدتكن تصرخ طلباً للطعام، ويمنعكن عن لعن القدر عندما لا تسير الأمور كما ترغبن.

لا غنى عن الصبر في حياة المسلم. إنه ملاذنا في أوقات الشدّة، نحن صبورات فيما يخص أوضاعنا، ونعرف بأن الله سيبدل العسر يسرا، وأنه سوف يستجيب لتضرعاتنا وأنه رحيم بعباده. يحمينا الصبر من الشك واليأس وهو مفتاح سكينتنا.

﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 24].

الحرية

كل هذا الكلام عن الإذعان، والطاعة والصبر يجعلنا نبدو مثل شهيدات يعانين منذ زمن طويل. هل هذه حقاً حياة المسلمة؟ آمل أن يكون

كل ما تقدّم في هذا الكتاب قد هدّأ من مثل تلك المخاوف. لكن، مخافة أن يكون هناك فكرة بأن حياة المسلمة نوع من الحصار، نوع من الاضطهاد في حد ذاته، سألت أخوات ما إذا كن يشعرن بالحرية. ورفضت الإجابات السهلة اللاذعة نوعاً ما!

أولاً، والأكثر أهمية، حرّرنا الإسلام من عدم معرفة هدف وجودنا. لقد أجاب عن الكثير من أسئلتنا: «لماذا أنا هنا؟»، «ما هدف حياتي؟»، «ما معنى الحياة؟». قال لي رجل مرة إنه لم يطرح على نفسه أبداً أياً من تلك الأسئلة، وأنه سعيد جداً بعيش الحياة يوماً إثر آخر، والتعامل مع كل يوم عندما يأتي. ربما كان يقول الحقيقة. لكن كل حضارة أنتجها الإنسان لنا سعت، بطريقتها الخاصة، إلى الإجابة عن تلك الأسئلة عبر الدين، والفلسفة والتأمل. البشر دون شك كائنات روحانية، ولدينا طموحات عالية وتوقعات كبيرة، ولطالما حاولنا الوصول إلى فهم نهائي عن سبب وجودنا هنا. نحن لسنا مثل الحيوانات التي تولد، تأكل، تتلاقى، تنتج ذرية وتموت على تلك الحالة. إرادتنا حرّة ونتخذ خياراتنا بأنفسنا. ويعلّمنا إسلامنا الخيار الذي يحبّه الله، والذي سيقود إلى سعادتنا في هذه الدنيا وفي الآخرة.

قالت أم محمد، فتاة الحفلات سابقاً، الآتي: «لقد تحرّرت من المجهول. كنت أعود إلى المنزل من الحفلات وأجلس بجانب النافذة وأفكّر: هذه ليست هي الحياة. لا يمكن أن تكون هذه ما خُلقت لأجله. كنت أؤمن أن هناك رباً، وأؤمن أنه موجود هناك». كنت أقول: «أرجوك، دلّني على سبب وجودي هنا. لا يمكن أن أكون هنا فقط حتى أقفز للأعلى والأسفل في هذه الحفلة، أعود للمنزل وأنام، أذهب للتسوّق في صبيحة اليوم اللاحق وإلى

العمل يوم الإثنين. لا يمكن أن يكون هذا هدفي. لن أموت وأكتشف أن ذلك كان هدفي». لكني أشعر الآن بحرية مطلقة، وأشعر بسعادة مع ديني. لقد فتح الله قلبي. لقد فهمت سبب وجودي وأنا سعيدة بذلك. أنا سعيدة لأن مولاي أراد مني عبادته. لماذا قد لا أرغب بعبادته؟ أشعر بحرية مطلقة؛ لأنني لست أَمَة لمجتمع ولست أَمَة لأفكار شخص ما عن الإسلام. أنا أَمَة لما طلبه مولاي مني.

حرّرنا الإسلام أيضاً من السعي لتحقيق السعادة من خلال أشياء عابرة زائلة في هذا العالم. كما قالت لي كلير: «حرّرنا الإسلام من أشياء معينة، مثل صورتكِ، تقديم نفسكِ للمجتمع كما تعتقدين أنه ينبغي عليكِ ذلك، تحقيق أهداف أكاديمية أو مهنية تعتقدين أن الناس يريدون منكِ تحقيقها. وما تزالين تريدين ذلك عندما تصبحين مسلمة، لكن لديكِ إطار عمل ومبادئ للعمل وفقها».

> «من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدّر له».
>
> حديث رواه الترمذي

بخلاف الكثيرين، لا نعتقد أن المال يشتري السعادة. حتى إذا كنا نتمتع بالراحة المادية، لا ننظر إلى ذلك وحده بأنه يجلب لنا السعادة. لا تأتي السعادة من امتلاك ثروة أو شهرة كبيرة، إنها تأتي من القناعة بما منحه الله لكِ. لسنا ضحايا غسيل الدماغ المادي الذي استهلك الكثيرين في العالم. بالنسبة لنا، الثروة وسيلة لتحقيق غاية، وليست غاية بحدّ

ذاتهـا. نعرف أنها من الله وأنها اختبار إضـافة لكونها نعمة، سـوف يتم سـؤالنا حول كيف أنفقناها. هل أنفقنا مالنا بإسراف وتبذير، دون أدنى فكرة حول كيفية اسـتعمالنا له لمسـاعدة الآخرين ومسـاعدة أنفسـنا في الحياة الآخرة؟ يحرّرنا كل ذلك من القيم الاستهلاكية التي تسعى وسائل الإعلام لنشرها.

«قبل الإسـلام، لم يكن لدي مـا يكفيني أبداً، وكنـت دائماً أجري، أجـري وأجـري. في الإسـلام، هناك حرّيـة: اكتشـفت أن لدي ما يكفيني الآن، وأنا سعيدة، الحمد لله» كلير.

الأمر سهل جداً، عندما يصل المرء إلى مستوى معين من الراحة المادية، يبقى يتطلع قدماً، ويطمح إلى المستوى اللاحق. إذا لم يصل المرء إلى ذلك المسـتوى، يُصاب بالإحباط وعدم القناعة. العلاقات تأتي وتذهب، الأولاد يغادرون المنزل، الأعمال تتغير، المنازل تُباع والصـحة تتدهور،كل الأشياء التي نعتمد عليها لتجعلنا سعداء، التي تمنح معنى لحياتنا، زائلة. بالنسبة للمسـلمين، إنه الله وحده، الحي الباقي دائماً، في الخير والشر، والإذعان له ومحبته ستجعلنا نتجاوز تلك الأوقات.

بوصـفنا مسـلمين، لا نجادل في المعتقدات السـابقة، الأديان الشـائعة وطرق التفكير السـائدة. نعرف ما نؤمن به، نعرف الصـواب من الخطأ، ولا نشـعر بحاجـة للتأقلـم مع الأفـكار السـائدة في وقت معين. مـا لدينا ونتمسـك به ثابت ومتين. إنها صخرة في بحر هائج، حيث «الحقائق» بقدر من يعملون على نشرها.

«كنت أعتقد أنني سعيدة، حتى تعرفت على الدين. ثم أدركت كم كنت غير سعيدة؛ لأنني كنت قلقة دائماً بشأن الظهور بطريقة معينة، والمشاركة في النشاطات الاجتماعية ومحاولة مجاراة الآخرين، وإبقاء الناس سعداء، والارتقاء إلى مستوى أشياء كثيرة. لكن عندما تتعرفين على الدين، تدركين أنه ليس عليكِ فعل ذلك حتى تكوني محبوبة» صديقة.

بعد أن فكّرت أكثر في الموضوع، استرسلت كلير قائلة: «كانت التأثيرات السلبية ظاهرة في شخصيتي، نفاد الصبر، فقدان السيطرة على النفس، التشاؤم، مقارنة بدروس الصبر، السيطرة على النفس والتفاؤل التي كان الإسلام قد علّمني إياها. أعتقد أنكِ تستسلمين، وعندما تستسلمين، تشعرين بالحرية».

لأن الإسلام يضع مثل تلك المعايير العالية، بما يخص الإيمان، العبادة، الشخصية، الأخلاق والعلاقات مع الناس الآخرين، فقد منحنا ذلك شيئاً نبيلاً وشامخاً لنصبو إليه. لم نعد قانعات بأن نعيش حياة مبتذلة ضحلة، دون أن نعمل على تطوير أنفسنا أو تنقية أرواحنا. نحن نكافح باستمرار، ولا نتوقف البتّة، ونجونا، بسبب هذا، من الكثير من المشكلات. لكل عمل نقوم به معنى، معنى يتجاوز الحياة اليومية، الدنيا.

«لقد حرّرني الإسلام من الشفقة على الذات والهواجس النفسية. يمنحكِ الإسلام الكثير من التفاؤل، على ما أعتقد، حتى [في] أشياء بسيطة مثل النظر إلى أولئك الذين تكون حالتهم أسوأ منكِ، تقدير الأشياء التي تملكينها وتدركين إنعام الله عليكِ» كلير.

لأننا نؤمن بكلام الله ونثق به، نحن متحررات من اليأس وفقدان الأمل. ليس هناك وقت أبداً نشعر فيه بعدم وجود أمل، وأن الأشياء لن تتغير أبداً والحياة لا تستحق العيش. أن تكوني مسلمة معناه أن تكوني واثقة، وألا تيأسي أبداً من الله.

يحمي أسلوب الحياة الإسلامي أولئك الذين يعيشونه من العديد من المناحي المؤذية في مجتمع اليوم. نحن بأمان من الإدمان، الكحول، إساءة استعمال العقاقير، الأوبئة التي تنتقل عن طريق الجنس، الحمل غير المرغوب به، الإجهاض، التحرش الجنسي، من ضمن أشياء أخرى كثيرة.

قضية بعد أخرى، كانت الأخوات يكرّرن آراء بعضهن، وفي الجوهر، قلن جميعاً الشيء نفسه: نشعر بالحرية في إذعاننا، وفي إسلامنا.

«اقرأ!»

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: 1 - 3].

منذ نزلت هذه الآيات على النبي الأمّي ﷺ، أصبح الإسلام دين الدراسة والتعليم. الصحابة تعلّموا معتقدات الإسلام وأحكامه من النبي ﷺ نفسه. هم، بالمقابل، علّموا ذلك إلى الجيل اللاحق ــ التابعين ــ الذين نقلوا المعرفة إلى الجيل الذي جاء بعدهم. وبعدهم، عبر التاريخ الإسلامي، أبقى الأئمة المعرفة الإسلامية تنبض بالحياة. قاموا بإنشاء مدن ومراكز للتعليم، من المدينة إلى بغداد، الأندلس إلى تمبكتو. أمعن الأئمة، رجالاً ونساءً، التفكير في النصوص القديمة واستنبطوا إجابات للتحدّيات والقضايا المعاصرة.

لكن مثل تلك الدراســة ليست حكراً على الأئمة. قال النبي ﷺ: «طلب العلــم فرض عين على كل مســلم»، وبالفعل منذ بداية إســلامنا، أردنا أن نتعلم بأنفســنا. لهذا قرأنا، وطرحنا الأســئلة وناقشــنا ما كنا قد تعلّمناه. لم نكن مســتعدات لقبول كلام أي شخص إن لم يقدّم دليلاً عليه، القرآن، السُــنّة أو كلام أحد الأئمة من الماضي، شيء يثبت أنه إسلامي حقاً وليس رأي شخص غير مطلع على الموضوع.

العلم والإيمان

برغــم أنتــي اعتنقت الدين مع بعض المعرفة بــه، إلا أنني كنت ما أزال أتعلم بشــأن الإســلام كل يوم. غالباً، كنت أعبرّ عن وجهات نظر متشددة للغايــة والتي تتناقض تماماً مع الإســلام، وأناقش رأيــي بحدّة، حتى أقرأ شــيئاً، مثــل آيــة أو حديــث، كان يثبــت لي أن الله قال شــيئاً مختلفاً. كان ذلــك واحداً من أكــبر اختبارات الإذعان: التخلي عــن الأفكار التي لطالما اعتنقناهــا حالما تدركين أنها تتناقض مع ما قاله الله ورســوله. ما لم يكن شيئاً أوافق عليه، غالباً ما كنت أقرأ وأتأمل في البراهين وأمعن التفكير في المناقشات حتى أتخلى فعلاً عن شيء ليس مسموحاً.

وهــذا ما تفعله اكتســاب المعرفة بشــيء ما بكِ: تجعلك ترين الأشــياء بطريقة مختلفة، وتتغير أولوياتكِ. يحدث ذلك طيلة الوقت. مثلاً، في وقت مــا في حياتــك، ربما يكون أدب ميلــز وبون الراقي قد أثــار إعجابك، لكن حالما تقرئين شكسبير، تعرفين شيئاً مختلفاً وتتغير وجهات نظركِ في ميلز وبون، آمل ذلك!

الأمر نفسه في الدين. عندما تعرفين أهمية الصلاة وكيف تغسل كل السيئات كما يغسل جدول الماء النظيف الأوساخ، يتغير شعورك نحوها: تقضين وقتاً أطول بها، وتتوقعين أكثر منها.

عندما تعرفين عن حكمة الصيام وكيف يمحو كل سيئات السنة السابقة، يتغير شعورك نحوه: تصبحين أكثر تصميماً على القيام بذلك، وإصرارا على التحكم برغباتك.

عندما تعرفين عن الثواب الكبير الذي تكسبينه من قراءة القرآن، ستبذلين جهوداً أكبر: لن تستسلمي عندما تلف العربية لسانك أو عندما تتلعثمين، وستحاولين بجهد أكبر فقط.

«يوجد مقدار كبير من المعرفة هناك، ومن الواضح أنه مهما اكتسبتِ، ينبغي أن تحاولي التصرف وفقاً له. ذلك هو الشيء المخيف بشأن المعرفة: حالما تكتسبينها، ينبغي أن تتصرفي وفقاً لها. إنها مسؤولية كبيرة. إذا قرأت شيئاً أو تعلمتِ شيئاً أو أخبرك أحد بشيء ما، تشعرين بضغط ينجم عن ضرورة التصرف وفقاً لذلك» عالية.

تزيد المعرفة إيمانكِ أيضاً. تصبحين أكثر ثباتاً بمعتقداتكِ وبالطريق الذي كنت قد اخترته. عندما تقرئين عن وحي القرآن، أسباب النزول، طريقة جمعه، معجزاته، يقوّي ذلك إيمانكِ وعزيمتكِ.

عندما تعرفين أسماء الله الحسنى وصفاته المُثلى ـ الرحمن، الرحيم، اللطيف، الخبير، الودود ـــ لا تقنطين أبداً من رحمته وتصبحين أكثر إصراراً على فعل الخير.

هذا هو تأثير المعرفة على إيمان الشخص.

ويجعلك كل ذلك مسـلمة أفضـل، شخصاً أفضـل، مثالاً لأولئك الذين حولـك. بالفعـل، ينبغـي ألا نقلـل أبداً مـن تأثـيرات المعرفة علـى الفرد والمجتمع.

السعي لاكتساب المعرفة

بدأت تجاربي الخاصـة في السعي لاكتسـاب المعرفة عندما كنت أنتقل مع سـاندرا وحنّا في أرجاء لندن لحضـور الخطب الإسلامية. بدأنا، عبر تلك الرحلات، نتآلف مع التعبيرات الشـائعة في سياق المعرفة الإسلامية، الفقـه، العقيدة، الأخلاق، التجويد. لم يكن حضـور الخطب غذاءً روحياً بالنسـبة لنا فقط، وإنما كان نشـاطاً اجتماعياً أيضـاً. أتذكر ذهابي مع صـديقاتي المعتـادات إلى خطبة ألقاهـا متحدّث أمريكي بارز في وسـط لنـدن، كانـت الإثارة كبـيرة، رأينـا أخوات أخريـات نعرفهن، بعضـهن يرتدين الحجاب للمرة الأولى، التقينا أخوات جديدات، أشخاصاً آخرين اعتنقوا الإسـلام، واشـتركنا جميعاً في تلك المناسبة الرائعة التي لم تكن ممتعة فقط وإنما مجدية أيضـاً. كانت تبدو أفضـل أنواع النشـاطات في نهاية الأسبوع وأكثرها فائدة.

بعـد أن تزوجت وانتقلت للسـكن قرب مسـجد ضـمن مجموعة كبيرة ممن اعتنقوا الإسلام، وجدت نفسي في مجتمع يحتل فيه السعي لاكتساب المعرفة أولوية قصوى، هنا، كان التركيز منصبّاً على الصفوف الإسلامية التقليديـة أكثر من المحاضـرات الإسـلامية التي يتـم إقامتها بين الحين والآخر، ولهذا أصـبح تعليمي أكثر تركيزاً. للمرة الأولى، حضـرت دروساً منتظمة، سجلت ملاحظاتي بعناية وحفظت كل ما طلبه منا المعلم. واظبت

أنا وزوجي على حضـور تلك الصـفوف، وكان أحدنا يلقي غالباً نظرة على ملاحظات الآخر، نتباحث ونختبر بعضنا.

كانـت إحدى أفضـل تجاربـي عندما نظّم المسـجد، مع بعضـ المراكز الأخرى، مؤتمراً في عطلة نهاية الأسـبوع في بلدة شـمال إنكلترا. لم يسبق أن أمضيت عطلة نهاية أسبوع مثل تلك.

كانوا قد اسـتأجروا مباني جامعية وسـكناً طلابياً؛ ليكون غرفاً لنا في نهايـة الأسـبوع. كانت حافـلات محمّلة بالناس قد وصـلت، من كل أنحاء المملكـة المتحـدة، وكان المكان كله مليئاً بالمسـلمين الذيـن اجتمعوا لهدف نبيل: اكتسـاب المعرفـة. كان هناك جو أُسـري دافئ بـين الأخوات؛ وكان الجميع يبتسـم لدى تبادل السـلام، يتشـاطرون ما لديهم ويتحدّثون إلى غربـاء. كانـت الفتيات المراهقات يجتمعـن معاً، ويبدو عليهن الرشـد في عباءاتهن ونصـف الجلباب والأوشـحة، ويتلقفن أخبار سـنة مضت. كان الأولاد يمرحون في الأنحاء ويلعبون على المروج الخضراء الرائعة، مطمئنين إلى أن أمهاتهم لسن بعيدات عنهم.

في صـبيحة يوم الأحد، تركت زوجي وطفلي نائمين في غرفتنا الصغيرة ومشـيت عبر الأروقـة في هدوء الصـباح الباكر بعد صـلاة الفجـر، آمنة مطمئنـة، إلى قاعة الطعام حيـث اجتمع عدد من الأخـوات. هنـاك، ألقت سيدة باكستانية كبيرة في السن على مسامعنا خطبة إسلامية، وكان كلامها مثيراً لامس قلوبنا، ذرف الدموع من عيوننا ورسم الابتسامة على شفاهنا. بعد ذلك، تحدّثنا لبعض الوقت، تبادلنا الأفكار والمشاعر، ثم انطلقنا لأداء صلاة الضحى. وعندما تناولنا الإفطار معاً، حلّت علينا السكينة.

من الصعب وصف الشعور السائد بين الناس عندما يكون المرء منغمساً في تلقي المعرفة بوصفه فرداً في مجموعة. انتابني ذلك الشعور أكثر من أي وقت آخر عند إقامة أسبوع حلقات دراسية عن فروع المعرفة الإسلامية، التي علّم فيها طلبة متقدمون في المعرفة الإسلامية. كانت تلك إحدى المناسبات التي استطعنا فيها الدراسة بتركيز شديد والتي صهرتنا معاً. بالنسبة لي، كان الاستيقاظ في الصباح الباكر، السير بين المنشآت التي لا تزال هادئة إلى المدرسة حيث سيتم إقامة الحلقة الدراسية؛ الأيام التي قضيناها بجانب بعضنا، التقارب، التعلّم، الإصغاء، تسجيل الملاحظات؛ الأمسيات التي قضيناها في التنقيح، النقاش والحفظ، في المسجد وفي المنازل المنتشرة في أنحاء المدينة، وضعت نوراً خاصاً على وجوه الأخوات، وألقاً في عيونهن.

يقول أحد الأحاديث فيما معناه: إنه عند ذكر الله في تجمّع، تجتمع الملائكة وتتضرع بالدعاء للأشخاص الموجودين فيه. خلال ذلك الأسبوع الخاص، كان الأمر كما لو أننا نستطيع سماع خفق أجنحة الملائكة، سماع أصواتهم الخافتة ورؤية الضوء الذي يشع على كل شيء. شعرنا بسعادة غامرة، بالسكينة. وقد أثّرت بنا تلك التجربة المهمة. كنا قد وجدنا ملاذاً من كل مشكلاتنا الدنيوية، لم يكن أحد في عجلة من أمره للذهاب إلى العمل، المدرسة أو تهدئة طفل يبكي: حتى إذا لم يكن ذلك ممكناً سوى أسبوع واحد فقط، لم نكن أمهات، زوجات أو بنات: كنا طالبات علم. بدا العالم الخارجي يتلاشى عندما كنا نسمع اللغة العربية من المعلمين، يتبعها إيقاعات كلام المترجمين، سمعنا صرير الأقلام على الورق تحتها. وكنا طيلة الوقت نفكّر: «يا له من دين رائع ... يا لروعة هذا الدين!». كنا نتعلم أشياء كثيرة كانت سابقاً غير واضحة، وانتابنا شعور رائع؛ لأننا نتلقى العلم من معلّمين بارزين.

لن أنسَى جلوسي في المسجد عصر أحد الأيام بعد الصف، أراجع ما تعلّمناه في ذلك اليوم مع مجموعة من الأخوات. سألنا بعضنا عن براهين أحكام دينية مختلفة، شروط تصنيف الأحاديث المتنوعة، قواعد التجويد، معتقدات الإسلام الجوهرية. وفيما كان كل ذلك يجري، رأيت بالمصادفة بعض الفتيات الصغيرات، الجديدات على الدين، اللواتي حضرن إلى المسجد للصلاة. كان النظر إلى وجوههن ـ الإعجاب، الدهشة والغبطة ـ انعكاساً لجمال ما لدينا. لا يقوم الكثير من المسلمين بدراسة الدين بعمق، ناهيكِ عن الوجود في مثل ذلك الجو الآسر. كان إيماننا كبيراً، إخلاصنا قوياً، وشعرنا بأننا نستطيع التخلي عن الدنيا (الحياة الدنيوية) وكل ما فيها بسهولة وأن نجلس هناك في غرفة الصف تلك نتعلم عن الدين إلى الأبد.

قرأت بضعة أسطر من الشعر، كنت قد كتبتها مع نهاية الحلقة الدراسية، على الملأ في آخر الأسبوع وأعتقد أنها تلخص حقاً مشاعرنا نحو المعلمين، والعلم والدين في ذلك الوقت:

أخواتكم في هذا الدين

يغمرهن اليقين

بأن السعي لاكتساب المعرفة غذاء

للمسلمات والمسلمين

كم نحن ممتنات

لإنعام الله

لأننا شاركنا في هذا الشرف

وتشبثنا بديننا

بأيدٍ ثابتة

قلوب ثابتة،

تكره أخواتكم أن يفترقن

عن المعلمين العزيزين

الذين أحببناهم كثيراً.

لم تجف الدموع،

ما تزال القلوب حزينة،

لأن أئمتنا سيتركوننا،

لرحمة هذه الأرض.

نكره العودة إلى الطرق القديمة،

تلك الدنيا الباهتة الفانية،

بعد هذا الغذاء المنتقى،

الذي كان قد أنار قلوبنا.

لقد ثارت شهيتنا،

لم يتم إرواء ظمئنا،

عسى الله أن يجعله ظمأً يحثّنا،

على السعي لاكتساب المعرفة حتى النهاية.

لهذا الآن، نرمي عليكم السلام،

إن شاء الله، لن تكون هذه المرة الأخيرة،

عسى الله أن يوحّد قلوبنا مرة أخرى،

بعد انقضاء هذا الوقت.

جزاكم الله خيراً،

من أخواتكم في الإسلام،

عسى أن نكدح سوية، نقيم الدين،

نتذوّق حلاوة الإيمان.

يجعلكِ السعي لامتلاك المعرفة تتغيرين بوصفك شخصاً. سلوككِ يختلف، مظهرك يتبدل وأفعالك تتغير. إنه شعور مماثل للصيام في رمضان، تنغمسين في عبادة دون انقطاع ويبدو الأمر رائعاً. بالنسبة لشخص لم يسبق له أن اختبر ذلك الشعور المذهل الذي ينتج عن الدراسة الروحية أو الدينية، لا بد أن سماع ذلك بعبارات النشوة التي ترافق المنوعات يبدو غريباً. لكن ذلك هو الأمر في أفضل الحالات: إنه غذاء للعقل والروح وتأثيراته طويلة الأمد، وتتغلغل في كل ثنايا حياتكِ. أتذكر كيف أنني وزوجي، المتزوجين حديثاً، كنا نذوق الأمرّين في المواصلات العامة، نسافر خارج لندن، مدة ساعتين على الأقل، لحضور خطبة إسلامية في منزل إحدى العائلات. ثم كنا نعود عبر المدينة، متعبين، في آخر الليل، ضمن قلّة من الركاب على متن القطار. فعلنا كل ذلك من أجل الثواب، والإثارة، ومتعة التعلّم بشأن الدين والوجود مع أشخاص آخرين، بآدابهم الرفيعة وابتساماتهم اللطيفة، كانوا هناك ليتعلموا عن الله أيضاً.

العلم والحرية

هناك نظريات عديدة بشأن أسباب الانحرافات العامة الموجودة في مجتمعات إسلامية معينة في العالم. يعزو بعضهم ذلك إلى فشل تلك المجتمعات في التحديث، ترسيخ الديمقراطية واللحاق بركب الغرب. يقول آخرون: إن اللوم يقع على الإسلام.

عبر العالم، تتعرض المجتمعات الإسلامية لاختبارات مختلفة، معدلات بطالة مرتفعة، الاستياء بين الشباب، مواقف تمييزية ضد المرأة، إضافة إلى اضطرابات سياسية ودينية. يتطلب الأمر كتاباً آخر لدراسة أسباب كل تلك المشكلات من وجهة نظر إسلامية، وهو شيء لست مؤهلة للقيام به، لكن العامل الوحيد السائد بين كل تلك المجتمعات تقريباً هو الافتقار العام للمعرفة الإسلامية. لقد ولّت الأيام التي كان المسلمون يدرسون بها دينهم بجدّية ويضعون ما يتعلمونه موضع التطبيق. وإذا كان يحق للمرء أن يتساءل: لماذا كل هذه الضجة حول امتلاك المسلمين للمعرفة بدينهم؟ ينبغي أن ننظر فقط إلى نتائج افتقار المعرفة والتفاهم: اضطراب سياسي، إرهاب، مادّية، جشع، فساد، عنف أهلي، ضمن كوارث اجتماعية أخرى.

إن للعودة إلى المعرفة الإسلامية الحقيقية ووضعها موضع التطبيق الكثير من الفوائد، على المستويين الشخصي والاجتماعي. في أفضل الحالات، عندما يبدأ المرء التعلّم بشأن الإسلام ويمارس شعائره، تتغير شخصيته، يصبح أكثر مخافة للرب، يعرف أن الله يستطيع رؤية وسماع كل ما يفعله، وستتم كتابة ذلك وسؤاله عنه كله؛ يصبح أكثر حذراً بشأن ما يقوله وكيف يقوله، يسيطر على أعصابه ويبتعد عن الكذب والغيبة،

يصـبح حريصاً في طريقة معاملته للآخرين، ويعرف أن لهم حقوقاً عليه؛ ويكون حـذراً في تعاملاتـه التجارية، ويبتعـد عن الغش، الخـداع والأمور الحـرام، مثل الربـا (الفائدة)، يتحمل المزيد من المسـؤولية الاجتماعية، ويسعى للتخفيف من معاناة الآخرين، ويجود بالصدقات ويساعد الآخرين حيثما استطاع. وحتى عندما تظهر المشكلات ويتم ارتكاب الأخطاء، يعود إلى الله، يسـعى لنيل مغفرته، وإلى القرآن والسُّـنّة ليحلّها وفقاً لشـريعة الله. في الجوهـر، يبـدأ تجسـيد الخصـائص النبيلة في الإسـلام: تقوى الله، التواضـع، الكرم، الصدق، اللطف، الرحمة، ضمن أشياء أخرى. إن مجتمعاً يتكون من مثل هؤلاء الأشخاص سيكون رائعاً بالتأكيد.

ومجتمع قائم على العبادة المخلصـة لله سـيحظى بالكثير من الإنعام؛ لأن كل شـيء رهن إشـارته، سـواءٌ كانت أمطار الخير، الحكم الصـالح، العائلات المسالمة أو سعادة الأفراد.

أفترض أن ما أقوله: إن المسـلمين يمتلكـون الأدوات لإحياء دورهم من ضـمن الدين، لكنهم لن يسـتطيعوا اسـتعمال تلـك الأدوات إلا من خلال العلم، دراسة الدين بإخلاص، وتطبيق كل ما يتعلمونه.

ربما يجد بعضـهم في ذلك تبسـيطاً مفرطاً للمشـكلات التي تواجهنا، لكن ينبغي علينا، بوصفنا مسلمين، أن نؤمن بوعد الله:

﴿وَعَـدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْـرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

لا يرتـاح جميـع الناس لفكرة مجتمع تتم إدارته وفقـاً لمبادئ علمانية، مجتمع قائم على الرأسـمالية والقيم المادّية، مجتمع دون حدود أخلاقية، مجتمع يكون فيه الجيران غرباء، مجتمع حيث النسـاء سـلع جنسـية على كل لوحـة إعلانية وغلاف مجلة، مجتمـع لا يُذكر فيه الله. مهما كان عدد الراغبين بتصـديق ذلك، إلا أن تلك بالنسـبة للكثيرين ليست قمة الثقافة البشرية والمجتمع. بالفعل، يتطلع المسلمون بشكل مختلف قُدماً إلى الأمام، لأن أسسـهم وجذورهـم مختلفـة تمامـاً. أعتقد، كمـا علّم الإسـلام، أن اكتسـاب المعرفة بالدين إحدى الخطـوات الأولى نحو بناء مجتمعات تكون مثالاً مشـرقاً لكل البشر، مسلمين وغير مسلمين على حدٍ سواء. هناك من سيهزأ بهذا كله، ويدّعي أن عصر الإسلام، مثل عصري الإغريق والرومان من قبله، قد انتهى، وأن حقبة سـيادة «الديـن» الديمقراطي الليبرالي قد ولّت إلى الأبد. إلى هؤلاء الناس، وخاصـةً المسلمين بينهم، أطلب منهم أن يسـألوا أنفسـهم الآتي: هل خلقهم الله؟ هل نزّل القرآن ليكون حقاً إماماً لكل البشر، في كل العصور؟ هل أدّى نبيّه ﷺ الأمانة كما ينبغي؟ إذا كانت الإجابات لا، فسيكونون عندها أحراراً في قول ما يحلو لهم، ليس للإسلام عليهـم من شـيء. لكـن إذا أجابوا بنعم، ينبغـي أن يسـتعدوا عندها لأن ينظروا إلى العالم برؤية جديدة، بالطريقة التي يراه الله بها، كما أوضـح في كتابه ومن خلال رسـوله. بالنسبة لنا نحن المسلمين، الوحي ليس بعض الخيالات العابرة، إنه حقيقة لا لبس فيها.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَـةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَـرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه: 124 - 126].

أعتقـد أن الافتقـار إلى المعرفة الإسـلامية الصـحيحة في مجتمعاتنا تبدو واضـحة للغاية بالنسـبة لنا، نحن النساء المسـلمات. نحن من تكون معاناتنـا أكـبر عندما تكون مسـتويات الدين العامة منخفضـة، عندما لا نعـرف حقوقنـا وعندما لا يعرفها الرجال أيضـاً أو لا يخافون الله بما فيه الكفايـة لمنحها لنا. في مجتمعات مثل هذه لا يحق لنا أن نرث، أن نحصـل على الطلاق، ويتم منعنا عن المسـجد. نحن من يتعرض للاضطهاد نتيجة الثقافات الأبوية والمواقف المتشددة. نحن من يتم تقطيعنا، تقسيمنا وقتلنا، وفقاً للعادات السـائدة. ليس الإسلام من يضطهد النساء المسلمات، وإنما افتقار المعرفة أو تطبيق تلك المعرفة التي تضطهد.

في البدايـة، كان الإسـلام قـوة تحرير للمجتمع ككل وللنسـاء بشـكل خاص. قبل الإسـلام، لم يكن للنساء في شبه الجزيرة العربية، مثل معظم أصـقاع العـالم، أي حقوق، يمكـن تزويجهن برغم إرادتهـن، ليس لديهن حقـوق بالملكية أو المـيراث، وتتم معاملتهن مثل الملكيات المنقولة، والأسـوأ مـن كل ذلك، كان إنجاب بنت عاراً كبيراً جداً لدرجة أنه كان شـائعاً وأد البنات، وهن على قيد الحياة. منح الإسـلام النسـاء الحماية، حق الحياة بـدلاً مـن الموت، بأن يكـون لهن هويتهـن القانونية والاجتماعية الخاصـة بهن، الحـق في التعليم، التجارة والموافقة على زواجهن، وحصـولهن على الرضـا الجنسي، وضع شـروط في عقود زواجهن، أن يحصلن على المهور بأنفسـهن، إنهاء حالات الزواج تلك إذا دعت الحاجة لذلك، الذهاب إلى المسـجد ودراسـة الدين. في ذلك الوقت، كانت النسـاء يسألن النبي ﷺ، ويتلقين العلم على يديه، وهاجرن معه، وقاتلن في الحروب إلى جانبه ومتن في سـبيل الإسـلام. كانت هناك خديجة بنت خويلد، سـيدة الأعمال، أول

من آمن برســالة النبي ﷺ والمؤيدة المخلصة له؛ وكانت هناك سُميّة، أول شــهيدة في الإسلام، التي رفضــت الرجوع عن إيمانها عندما فعل الرجال من حولها ذلك، أســماء بنــت أبي بكر التي كانت تنقــل الطعام والأخبار، وحيــدة تحت جنــح الظــلام، إلى النبــي ﷺ وأبيها في مخبئهما، نســيبة بنت كعب التي قاتلت بشــجاعة كبيرة خلال غزوة أُحد، وكثيرات غيرهن. ظهرت أولى المعلّمات في الإسلام خلال ذلك الوقت، نساء مثل عائشة بنت أبي بكر التي لم تعلّم النســاء كما هو متوقع فحســب، وإنما علّمت الرجال أيضاً. كانت الأولى في صف طويل من المعلّمات اللواتي تفوقن في دراستهن للدين، نقــل الحديث، حفظ مجلدات بأكملها، وقــد علّمن آلاف الطلاب، فمن بإملاء كتب وأنتجن بعضــاً من أشــهر المعلمين في التاريخ الإسلامي، بمن فيهم الإمام مالك والبخاري، جامع الحديث الشــهير. كانت لكل هذه النســاء الرائعات، وأخريات مثلهن، شخصــيات مختلفة، كانت بعضــهن حكيمات، بعضهن متهورات، بعضهن مثقفات، بعضهن شجاعات، بعضهن جريئات وبعضــهن لينات العريكة. لكن الله أسبغ عليهن من فضله وتبوأن مراكز مرموقة ضــمن مجتمعاتهن في تاريخ الإســلام وبين المســلمين، كل هــذا في وقت كانت فيه النســاء في الغرب وأماكــن أخرى ما زلن يكافحن؛ ليتم الاعتراف بهن مخلوقات لها أرواح وفصلهن قانونياً عن أزواجهن.

وعندهــا، في مكان ما على الطريــق، بدأ هذا التقليد النبيل يذوي حتى أصــبح المرء، اليوم، لا يســتطيع عدّ الأئمة الإناث على أصــابع يد واحدة. وفيما تراجع مستوى المعرفة العام، كذلك تراجعت معرفة النساء ومكانتهن وموقعهن في المجتمع. وعندما لا تفهم النســاء دينهن، لا يعرفن حقوقهن؛ وعندمــا لا يعرفن حقوقهن، لا يمكنهن المطالبة بها. وهكذا نشــأت أجيال

من البنات يشـاهدن أمهاتهن يعشن بهذه الطريقة وقبلنها، وشاهد أجيال من الأبناء آباءهم يتصرفون على تلك الحال وقبلوا بها، حتى أصبح كل ما يمكن أن يدّعيه مجتمعهم بأن اسـمه «مسلم»، برغم أن مجتمعهم أبعد ما يكون عمّا جاء به النبي ﷺ. هذه مأسـاة الجهل الكبيرة، إنها تُفرز ثقافة الجهل، ثقافة تخنق في النهاية الجمال الذي قد يكون لدى الناس.

لهـذا أعتقد أنه فقـط عندما تعـود المجتمعات الإسـلامية إلى معرفة دينها، سـتبدأ تطبيق الإسلام كما ينبغي لها وتحصد حقاً فوائد ذلك، في هذه الحياة والآخرة.

هذه المعرفة الثمينة

قد تم وضعها

بعناية قلوبنا،

تضيء مثل نجمة في منتصف الليل،

شمعة في الظلام.

عسى أن تتدفق عبر قلوبنا

وأوصالنا

الكلام على لساننا

عسى أن تنعكس على المحيطين بنا،

أزواجنا

والشباب.

عسى الله أن يجعل الضوء اللامع يشرق،

يشرق على عائلاتنا،

يضيء قلوبنا ومنازلنا،

ومجتمعاتنا.

إذا كانت مجتمعاتنا قوية

وكافحت لتتعرف على الله،

فستظهر أعمال الخير،

وتنمو، إن شاء الله.

وعندما تنمو، سينتج عنها

أطفال سيكدحون

لنيل العلم، تطبيق السُنّة،

لعمل الخير في حياتهم.

يا ألله، اجعل الخير يضيء مشرقاً،

وغيّر الأشياء التي نفعلها،

غيّر أرواحنا،

عائلاتنا

وغيّر هذه الأمّة أيضاً.

10
جوهر الأخوة

أخواتي

ينحدرن

من أمات كاريبيات

ومالكي عبيد إسبان

من ملكات أفريقيات

وسادة استعماريين،

من بدو البربر

ومزارعين بروس

من فلاحات القرى

وإقطاعي الأرض،

من أغنياء

وفقراء،

من سود،

بيض

وبنيين

من مسلمين،

يهود،

نصارى

وهندوس.

لقد جمعهم

الإسلام، معاً

في هذا الزمان وهذا المكان.

لقد لامست حياتهن حياتي،

غيّرتها،

أثرتها،

باركتها.

ما بين الحجاب والجلباب، التودّد والزواج، الأطفال ونظام القيم الجديد، اكتشفت جوهرة أخرى في حياتي الإسلامية: الأخوّة شعرت بها في المسجد، عندما كانت همسات تحية السلام ـ السلام عليكم ـ وتلاوة القرآن تملأ الغرفة. شعرت بها خلال صلاة الجماعة عندما كانت أجساد النساء تلتصق معاً، كتفاً بكتف، يقرأن صلاتهن السرية، يركعن ويسجدن. شعرت بها في الاحتفالات بالمولود الجديد وفي الولائم، احتفالات النساء، الأطفال والطعام. شعرت بها خلال رمضان، عندما كنا نفطر معاً ونقف معاً لأداء صلاة التراويح الطويلة. التقارب، التضامن، الأمان والحب: الوهج الدافئ للأخوية التي تستند إلى ما هو أكثر من مجرد الجنس المشترك. لأن هذه أخوية الإسلام، أخوية ستتفوق على كل ما سواها، جوهرة ثمينة

ولامعة تضـيء وجوه النسـاء عندما يتحدثن عن مشاعرهن نحو أخواتهن في الإسلام.

«تعتقد أنها لطيفة للغاية»

نشأت دون إحساس بأخوة حقيقية. ضمن مدّ وجزر السياسات الاجتماعية الناشئة، لم يكن هناك مساحة للعواطف والرومانسية الأنثوية.

حتـى أكون عادلـة، كانت لدي بضـع صـديقات مقرّبـات عندما كنت مراهقـة، لكننا لم نكن أبـداً جزءاً من مجموعة كبيرة من الفتيات اللواتي يخرجن مع بعضـهن دائماً، كان هناك الكثير مـن التنافس المتعلق بذلك. لهذا تشـبثنا ببعضـنا، سـعيدات بأن نكون اثنتين، وربما ثلاثة معاً. كانت فتيـات أخريات يعددن أننا نشـكل تهديداً لهن يقلن دائمـاً عنا: «يعتقدن أنهـن لطيفات للغايـة!». لم يكن هناك بالتأكيد حـب أخوي، مجرد غيرة، تفضـيل النفسـ على الآخريـن ونكد. كان يتـم خيانة الثقة، عـدم الوفاء بالوعود وسرقة الأصدقاء الحميمين.

لكـن بالطبـع، بعد أن قلت كل ذلك، كنا في معظـم الأحيان مثل معظم الفتيـات الأخريات في أنحـاء العالم: ننهمك في النميمة ونتكلم عن نسـاء أخريات من خلف ظهورهن، أو أمامهن، وفقاً للمناسـبة: «ينبغي أن ينظر بعضـ الناسـ في المرآة قبل أن يخرجـوا من منازلهم!» أو «أفٍ، لا تسـدي لنفسـها أي صـنيع بارتداء ذلك السروال!». لهذا، لم نكن ضحايا بريئات: كنـا قاسـيات دون رحمة أيضـاً عند التقليل من شـأن النسـاء الأخريات وإظهار ذلك في صحبتهن. لم يكن هناك وفاء، شعور بالتضامن، أو عناية ببعضنا: كانت كل فتاة وحدها.

ستدّل لمحة على معظم المجلات الموجهة للمراهقات والشابات على نوعية الذهنية التي يتم تشجيعنا على امتلاكها. تبقى الموضوعات الرئيسة ثابتة دون تغيير وتتناول الرجال، والجنس والأزياء. أو الجنس، والرجال والأزياء. أو الأزياء، والجنس والرجال. ربما مع بعض التبرّج وظهور الرجال بكثافة كبيرة. وتنفخ هذه المجلات كامل صورة «المرأة المتحررة»، وتقدّم نفسها على أنها مجلات تخص «المرأة العصرية». ألم تستبدل، في الواقع، أدوات التنظيف ووصفات فطيرة التفاح بأمور تافهة مثل الهوس بالمظهر، المكانة مع الجنس، الجنس، الجنس؟ لا عجب أن معظمنا ليست لديها أبداً شيء مهم تتكلم عنه إذا كان ذلك ما نصبو إليه!

وبرغم أن الفتيات اللواتي خرجت معهن كن مثل أندادنا فيما يخص مكر المراهقات، إلا أننا كنا نعد أنفسنا أكثر ذكاءً من أغلبية الفتيات اللواتي عرفناهن، فتيات نادراً ما قرأن كتاباً أو مقالاً، شاهدن الأخبار، طرحن أسئلة، شكّلن آراءً أو استكشفن ما وراء عوالمهن الصغيرة الخاصة بهن. برغم وجود الكثير من الأسباب الاجتماعية التي كانت تمنع الفتيات من تطوير أنفسهن، إلا أننا لم نكن نبالي: كل ما كنا نعرفه أننا نريد تحدياً، ولم يكن «الاستمتاع» مع الفتيات الطريقة التي يمكن الحصول بها على ذلك.

عندما كانت سنوات المراهقة تلك تقترب من نهايتها، أصبحنا نقضي المزيد من الوقت برفقة رجال راشدين. كانت الصداقات مع هؤلاء الرجال البالغين مختلفة عن تلك التي أقمناها مع طلاب المدارس. برغم أنه كان نادراً وجود فتاة تستطيع الدخول في نقاش جدّي يتناول أي شيء عدا الشباب، والعلاقات والملابس، كان الرجال متعددي المواهب: كانوا يستطيعون مناقشة القضايا الراهنة، والسياسة، والفلسفة والأشياء الأكثر أهمية في الحياة.

كان لهم آراء ولم يكونوا خائفين من التعبير عنها أو مناقشة بنودها. أيضاً، لم يكونوا يقضون الأمسيات في الكلام عن أصدقائهم والنميمة بشأن حياة الناس الخاصة. لم يكونوا يتأوهون من عدم وجود نساء جيدات، يشتكون من صديقاتهم أو حجم بطونهم المنتفخة. بالتأكيد، كانت لديهم نزعة للحديث بشكل مطوّل عندما يتعلق الأمر بالرياضة أو السيارات، لكن على العموم، كانت صحبتهم ممتعة ومثيرة.

لكن، كما ذكرت سابقاً، نادراً ما كانت الصداقات مع الرجال تخلو من مشاعر الانفعال الجنسي. إذا لم تكن الفتاة تضمر مشاعر خفيّة نحو الشاب، كان دون شك يضمر مشاعر خفيّة نحوها، مشاعر تنتظر فرصة لتعبّر عن نفسها. لهذا، برغم أن قضاء الوقت مع الرجال كان أكثر متعة بطرق عديدة، إلا أنه كان سيفاً ذا حدّين: تكون الفتاة حذرة دائماً، وينبغي بها عدم إظهار الكثير من اللحم، وألا تكون مفعمة بالحيوية، «متحررة» كثيراً، خشية أن تسيء فهمها الصديقة الحميمة، أو الأسوأ من ذلك، الشاب نفسه. نتيجة لذلك، لم تكن هناك ثقة مطلقة في الطبيعة الأفلاطونية لتلك العلاقة، صديقة حميمة خارج البلدة، السير على الأقدام إلى المنزل في آخر الليل، قضاء ليلة ممتعة خارج المنزل، كل هذه فرص ليقوم الشاب أخيراً بخطوة ويخبر «صديقته» حقيقة مشاعره. غالباً، كان يعقب ذلك انهيار كامل لتلك العلاقة، كيف يمكن أن تبقى الأمور على حالها وهي تعرف أنه ينظر إليها على ذلك «النحو»؟

الصديقات

على أي حال، عندما ذهبت إلى الجامعة، وجدت نفسي بين شابات متحفّزات فكرياً وعاطفياً واللواتي لا يقضين اليوم بطوله يتكلمن من وراء

ظهور بعضهن. كانت تلك سيدات شابات يتساءلن مثلي عن الأشياء، واللواتي يحللن المواقف، يجادلن آراءهن بشكل واضح. خضنا في أحاديث سياسية وفكرية طيلة الوقت، واشتركنا في أفكارنا ومشاعرنا حول قضايا شخصية أيضاً. اختبرت الكثير من النساء هذا التغيير في صداقاتهن الراشدة مع نساء أخريات.

على أي حال، أحد الأشياء التي ذكرتها معظم الأخوات عند الحديث عن صداقاتهن قبل اعتناق الإسلام كانت في مستوى تكرار الغيبة، والنميمة والإشاعة. ليس ممكناً تحديد عدد «الساعات المهدورة» في حديث النساء عن بعضهن أو أشخاص آخرين، نقل الأسرار، نشر الإشاعات، الأكاذيب، التلفيق والتي تتنكر بزي نصيحة ودّية أو آخر الأنباء. كما قالت سارة: ستقولين: «لست أنقل الكلام أو شيئاً من هذا القبيل، لكن وبرغم أنه من الممتع أن تكوني الشخص الذي «يكشف الفضائح»، وتجعلين الجميع يضحك من إهاناتك وسخريتك الجارحة، ليس الأمر نفسه عندما تكونين الطرف المتلقي، وتتناقل الأخريات أخبارِك، ويهزأن من ذوقك في الملابس والرجال ويمزّقن حياتكِ إرباً فيما يتناولن أكواباً من الكابتشينو. لكن غالباً ما يكون هذا شيئاً لا نوقف بعضنا عن القيام به، نقع فيه بشكل طبيعي ويتآمر الجميع على إبقاء هذا التقليد النسائي الرائع على قيد الحياة.

برغم وجود حالات عن رجال ونساء يتواصلون مع بعضهم بطريقة ناضجة بعيدة عن الجنس، إلا أنني وجدت في ضوء تجربتي أن هذه العلاقات قليلة ومتباعدة. يبدو الأمر كما لو أن الرجال يأتون بكامل طاقتهم ـ التوستيرون (الهرمون الذكري)، الفحولة، ثقتهم بأنفسهم

ــ التـي تتفاعل مع الطاقـة الأنثوية وتجعل النسـاء يبـدأن تحريك جفون عيونهن، يلعبن بشعرهن، يغيّرن نبرة صوتهن، وتختفي فجأة تلك الرفقة، التضـامن وتهيمـن الطاقـة الأنثوية. يصـبح هنـاك توتر جديـد في الجو والرجال في مركز الاهتمام.

أخبرتنـي كلـير عن حادثـة تذكّرها بكل هـذا. جاءت صـديقة للعائلة لزيارة والدتها واسـتطاعت سـماعهما تتحدّثان. فجأة، تغيّرت نبرة المرأة بشـكل كامل ـ أصـبحت لعوباً ـ ولم تسـتطع معرفة السـبب. ثم اكتشـفت الأمر: لقد دخل رجل إلى الغرفة. قالت: «لا تسـتطيع بعض النسـاء تمالك أنفسهن أمام الرجال، وترين التغيير الذي يطرأ عليهن. كما لو أنها ليست الشخص نفسه. الأمر متأصل للغاية».

إنه حضـور الذكر الذي يجعل النسـاء يعدون بعضهن منافسات لبعض في جذب انتباهه، ويجعلهن يتبارين في إتقان لعبة اللقاء. وإذا بقي الرجال يلعبون هذا الدور المركزي في علاقات النساء، فسيبقى التضامن الحقيقي والأخوة حلماً ضبابياً، ومجرد شعار على قميص.

محبة الأخوات ...

في الإسـلام، العلاقـات بين النسـاء محكومة بقواعد ونمـاذج الأخوة الإسـلامية. يتم تعليم المسلمين أن يعدوا بعضهم إخوة وأخوات في الإيمان وأن يحبّوا بعضهم في الله.

كما يقول الله في القرآن:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].

في حديث ورد في صحيح مسلم، أنه يكفي أولئك الذين يحبّون بعضهم في الله شرفاً، رجالاً ونساءً على حدٍ سواء، أن يعرفوا «أن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابّون بجلالي؟ اليوم أظلهم بظلّي يوم لا ظلّ إلا ظلّي».

للأخوات حقوق على بعضهن، تبادل تحية السلام، زيارة بعضهن عند المرض، إسداء النصح لبعضهن، من ضمن أشياء أخرى. والآداب نفسها التي تنطبق على علاقاتنا الأخرى تنطبق على الصداقات بين النساء، نحترم بعضنا، لا نتكلم سوى بالخير عن بعضنا، وأن نكون صادقات، لطيفات وكريمات. بالفعل، الحديث مليء بالنصائح حول كيفية تعاملنا مع بعضنا كإخوة وأخوات في الإسلام. أحد الأمثلة على ذلك قول الرسول ﷺ: «إيّاكم والظنّ فإن الظنّ أكذب الحديث ولا تحسّسوا ولا تجسّسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً».

على أي حال، هناك عوامل أخرى تجعل الأخوة الإسلامية قوة لها شأنها. طريقة العيش الإسلامية ـ البنية الاجتماعية، الفصل في المكان بين الذكور والإناث، الحجاب ودور العائلة ـ مناسبة تماماً لعقد صداقات وثيقة تقوم على الثقة والمساندة بين النساء.

في البنية الاجتماعية الإسلامية، يعد المنزل مجالاً أنثوياً. إنه مسؤوليتها وهي الملكة فيه. هناك تنزع حجابها، تتخلى عن حذرها، تقضي الوقت مع المقرّبين لها، تكون على سجيتها. هناك تشديد كبير أيضاً على الكرم وحسن الضيافة، هناك ثواب في إطعام ضيوفك، ويتم حض المسلمين على زيارة بعضهم. لهذا من الشائع عند الذهاب لزيارة منزل إحدى الأخوات

أن نجد أنه مليء بنساء يقرأن، يسترخين، يطهين، يتحدّثن على سجيتهن. نجد فضاءً خاصاً بالنساء فقط، حرم ليس فيه رجال. لا يستطيع الرجال دخول غرفة فيها نساء أخريات، ينبغي عليهم البقاء بعيداً واستدعاء زوجاتهم أو أطفالهم إذا كانوا بحاجة إليهم. ليس لدى معظم الرجال مشكلة في قضاء زوجاتهم وقتاً مع الأخوات بدونهم، فيما يكونون يقضون الوقت مع الإخوة.

عامل آخر يؤثر بشكل كبير على علاقاتنا هو حقيقة أن الرجال والنساء لا يختلطون اجتماعياً. تم توضيح ذلك سابقاً، ولا شك بأن عدم الاختلاط أحد الأسباب التي تجعلنا نحن النساء قريبات كثيراً من بعضنا.

نظراً لعدم وجود رجال في تجمّعاتنا الاجتماعية، لا نشعر بضرورة توخّي الحذر: لا يوجد أحد ينظر إلى مقاساتنا، يقارننا بغيرنا ويحكم علينا. لهذا لا نعد أننا نتنافس أو نضاهي بعضنا، ليس هناك ما نتنافس عليه.

لا نقلق أبداً من انجذاب أزواجنا إلى صديقاتنا، لأنهم لا يقضون وقتاً معهن، وربما لن يروهن دون حجاب أبداً.

يخطئ الكثيرون في اعتبار تحفّظ النساء المسلمات أمام الرجال بأنه خجل. برغم أن ذلك ليس بالضرورة صحيحاً، لكننا، كقاعدة، لا نتصرف بطريقة وديّة غير رسمية مع الرجال. لا نتبادل الدعابات معهم، ولا ندخل في أحاديث وديّة معهم ولا نتودّد بكل تأكيد إليهم. نحتفظ بكامل شخصياتنا، دعاباتنا، اندفاعتنا، مزاحنا، حساسيتنا، لطفنا، غنائنا ورقصنا لأولئك الأقرب إلينا: عائلاتنا والنساء الأخريات. تظهر هناك

شخصـية الأخت الحقيقية، حيث لا ضرر أو سوء فهم. كنساء، نتعلّم معاً، نحتفل معاً، نعمل معاً ونمرح معاً في بيئة خالية تماماً من القلق والمشكلات المحتملة، والفتنة. نحن أحرار بأن نكون على سـجيتنا ونثق ببعضنا، طالما أن الطاقة المتعلقة بالذكور لم تعد جزءاً من فضائنا الاجتماعي.

بين أخوات، بين صديقات

تغـيرت الكثير من الأشـياء منذ اعتنقنا الدين، معتقداتنا، ملابسـنا، طريقة معيشـتنا وعلاقاتنا مع النسـاء الأخريات. عندمـا التزمنا تعاليم الإسـلام، كنا نعـرف أن الخروج مع الرجال ليس عملاً صـائباً. لهذا كان علينـا أن نعيد تكييف علاقاتنا مع النسـاء اللواتـي نعرفهن. كان علينا أن نعمل لاكتسـاب صـديقات، التحدّث فقط مع النساء، ونتعلّم كيف نتواصل كأخوات في الإسلام.

بالنسـبة لبعضـهن، كان الأمر سهلاً: توافقن مباشـرة مع «الأخوات». وجدت أخريات الأمر صعباً: كان غياب الرجل غريباً، وكانت الطريقة التي تواصلت بها الأخوات مع بعضهن مختلفة تماماً عمّا هو سائد في الجاهلية. كبداية، كانت الأخوات يبتسـمن دائماً لبعضـهن. كن سعيدات دائماً. كن مهذبـات دائماً. سـواء التقيت بهـن في أروقة الحرم الجامعي أو المُصـلّى نفسـه، كن دائماً يُلقين السـلام، يبتسـمن، وغالباً ما يصـافحن ويعانقن بعضهن أيضاً. لقد كن مختلفات فحسب.

ثم بعد مدة من الزمن، بدأنا نتغير أيضـاً. وجدنا أنفسـنا نبتسـم لكل الأخـوات اللواتـي نلتقي بهن، نحييهن بالسـلام أيضـاً. كان هناك شـيء لطيـف وإيجابي للغاية بشـأن الطريقة التي تعامل بها الأخوات بعضـهن.

كنت أنا وحنّة ما نزال نمزح مع بعضنا دون رحمة، لكننا لم نفعل ذلك مع أخوات أخريات، كن يبدون لطيفات للغاية. كان ذلك مرتبطاً بحقيقة أنه برغم أننا قد اعتنقنا الإسلام، إلا أن معظمهن كن فتيات آسيويات، وقد ولدن مسلمات. كنت أرى أخوات من أعراق مختلفة يتصرفن بشكل مختلف قليلاً مع بعضهن. على أي حال، لم تتغير بعض العوامل، بغض النظر عن الخلفية العرقية للأخوات، كن ودودات، وهادئات، ودافئات ومرحّبات كثيراً. وكان هذا بالتأكيد شعوراً جديداً. لم يكن يسعنا سوى الردّ على التحية بمثلها.

بوصفنا أخوات شابات ما زلن يتلقين العلم طيلة الوقت، كنا نرى بعضنا أساساً بعد الدروس وفي نهاية الأسبوع. كنا نقضي ذلك الوقت في زيارة بعضنا، تبادل أطراف الحديث، الإصغاء إلى أشرطة عن الإسلام أو الذهاب للتسوق في أسواق شارع غرين المختلفة. كنا نزور بعضنا، ننام في منازل الأخوات الأخريات ونبقى مستيقظات حتى نتناول طعام السحور ويحين وقت صلاة الفجر. يمكنني أن أقول بصدق: إننا لم نكن بحاجة لتواجد الرجال حولنا. كنا سعيدات معاً، قانعات بصحبة بعضنا، مطمئنات.

كنت قد رأيت مراهقات مسلمات في مجتمعنا يمررن بالتجارب نفسها التي خضناها شابات اعتنقن الإسلام، ولحسن الحظ أنهن لم يتأثرن بالعوامل التي أفسدت العلاقات خلال مدة مراهقتنا. كن يمضين أيضاً وقتهن معاً، يدرسن دينهن موضوعات أخرى ويتكلمن عن خططهن للمستقبل. كن يزرن منازل بعضهن أيضاً، يذهبن إلى المسجد والتسوق معاً ولا يسهبن في الحديث عن شيء ما مطولاً! ونعم، كن يتكلمن أيضاً

عن الأزياء وكل تلك الأشـياء الخاصـة بالفتيات! لكـن بخلاف مجتمعات أخرى، لا تعزل المراهقات والعازبات أنفسهن عن الأكبر سناً والمتزوجات. أساسـاً، يحضـرن الصفوف والتجمّعات نفسـها مثلنا. وبرغم أنهن غالباً مـا يختفـين في مناطق منزوية مـن المنزل لتبـادل الدعابات والمـزاح، إلا أنهـن يظهرن متبرجات مفعمـات بالحيوية، ويحببن دائمـاً الجلوس معنا والإصـغاء إلينا، ويتبادلن وجهات النظر، يطرحن الأسئلة ويلتقطن حكمة أمهاتهن وصـديقات أمهاتهن. ولا يبتعدن أبداً أيام العيد؛ لأنهن يعرفن أن أمهاتهن يعلمن كيف يقضين وقتاً ممتعاً حقاً!

حفلة الزفاف التي وصفتها سابقاً مثال جميل عن الطاقة الأنثوية الرائعة التي تتغلغل في مناسـباتنا الاجتماعيـة. مع وجود الرجال في غرفة أخرى، أو في حالة أفضـل، في منزل آخر، تحتفل الأخوات بزفاف صديقتهن بالأغاني، والدموع والضـحكات. يعدّ الـزواج تجربة تجمعنا معاً وتضـيف بعداً جديداً لعلاقاتنـا مع بعضـنا. أساسـاً، حالما يقترن زوجـان، يختفيان من المشـهد الاجتماعي مدة من الوقت، وينشـغلان ببعضهما عن الإخوة والأخوات. يبقى بعضـ الأزواج علـى تلك الحال، مرتاحـين مع بعضـهما، ولا يرغبان بإقامة الكثـير مـن العلاقـات الاجتماعية. علـى أي حال، غالبـاً ما تعـود الأغلبية العظمى إلى المشـاركة في الأحداث، المسجد، حفلات العشاء، الاجتماع معاً، حلقات السـباحة، الرياضـة والخـروج في نزهات. بالمحصـلة، تكون علاقة الزواج التي تسـودها المحبة رائعة، لكن برغم ذلك لا شيء يضاهي اجتماعاً جيداً للأخوات لتقوية الإيمان، وتنشيط الذهن والضحك قليلاً.

يُضيف إنجاب الأطفال بعداً آخر للروابط بين الأخوات. بخلاف بعض الأمهات للمرة الأولى، قلّما نجد أنفسـنا في موقف نكون فيه الوحيدات في

مجموعاتنـا اللواتي أنجبن طفلاً وعليهن اختبار العزلة التي ينطوي عليها ذلك. لدهشـة الكثير من القابلات، لم أكن بحاجة أبداً لحضـور صـفوف خاصـة بالـولادة أو الانضـمام إلى مجموعـة مـن الأمهـات؛ لأن الأمهات الخبيرات كن يحطن بي من كل جانب، واللواتي أجبن عن أسـئلتي بشـأن الحمل، والولادة والعناية بالطفل. بالنسبة للكثيرات منا، نشأ أطفالنا معاً، في منازل الأخريات، وكانوا يدعوننا «خالة». كنا غالباً نقوم بتنظيم حفلات، تجمّعات ونزهات للأطفال معاً، سواء كان ذلك ضمن بضع صديقات فقط أو للمجتمع بأكمله. أتذكّر أحد «أيام الرياضة» الذي نظّمه المعلمون في دار حضـانة ابني في منتزه جميـل بالمنطقة. برغم أنـه كان منتزهاً عاماً، إلا أنه كان موزّعاً إلى أقسـام بصـفوف من الأشـجار وأحواض الزهور. كان يوماً رائعاً: جاءت كل الأخوات يحملن الطعام، الشـطائر، الدجاج المقلي، الخبز الهندي، البطيخ والفراولة، والمشروبات، متلهفات لإسعاد أطفالهن في أول «أيام الرياضـة» الخاصـة بهم. كان الطقس رائعـاً وانتاب الجميع شعور بالسـعادة الغامرة، وحالما انتهت سـباقات الأطفال، بدأت سباقات الأخوات، ولم يتوقفن! شـاركنا في سـباقات فردية، وأقمنا سباقات تتابع، وسـباقات قفز ووثب، شعر الأطفال بإثارة كبيرة. لا أعرف ماذا كانت ردة فعل عابري السـبيل الذين اسـتطاعوا إلقاء نظرة خاطفة علينا من منظر كل تلك «النساء المحجّبات» اللواتي يستمتعن بوقتهن كثيراً.

مجـال آخـر للتعاون هو نطـاق العمل. في غالب الأحيـان، عندما تعمل النسـاء في مجتمعنـا، يعملـن في بيئة نسـوية سـواء كان ذلك في مدرسـة الجاليـة أو إدارة عملهـن الخاص. تسـتمتع الأخـوات اللواتـي يعملن في مدرسـتنا بمزايا الأخُوة كل يوم. تعمل الأخوات الأخريات المسـتقلات معاً

بتلك الروح نفسـها مـن التعاون عندما نقوم بتنظيم المناسـبات معا، أيام تجميل، أسـواق ونزهات عائلية في الهواء الطلق. أمتلك ذكريات رائعة عن مناسـبات عديـدة كنا قد نظّمناها في الجاهلية، مـع خبيرات التجميل في الطابـق الأعلى، وعاملات تدليك في الغرفة الخلفية، ومزيّنات الشـعر في إحـدى غرف النوم، فتانة الضـفائر والحنّة في حجـرة الجلوس والأخوات اللواتـي يهتممن بالطعـام في المطبخ. وكان المنزل نفسـه مليئـاً بالأخوات اللواتي حضـرن لتجميل أنفسـهن، دعم الأخوات في جهودهن أو للحصول ببسـاطة على اسـتراحة من الأطفال والاسـترخاء. برغـم أن تلك الأيام كانت مفعمة بالنشـاط، إلا أن شـعورنا كان دائماً جيداً بعدها، خاصةً إذا حصلنا على بعض الفائدة أو أجرينا نقاشاً مثمراً. ولطالما أرادت الأخوات أن يعرفن متى ستتم إقامة الجولة اللاحقة.

سواء كان ذلك في منازلنا أو في المسجد، في الوظيفة أو العمل، في الحيّز الخاص بنا، نكون أحراراً وواثقات من أنفسنا دون حرج، لا نخشى أن يأخذ أحد عنا أفكاراً خاطئة، أن يحكم علينا، أو أن نرسـل إشـارات مشوشة له. في تلك الاجتماعات، سـواء كانت رسـمية أم غير ذلك، يمكن للأخوات أن يبقين على سـجيتهن، الاستفادة من تجارب بعضهن ومناقشة قضايا وثيقة الصلة بتلك الموضوعات. ضحكنا معاً، بكينا معاً وتعاملنا مثل شقيقات.

«ذهبـت إلى المسـجد وكان هنـاك اجتماع للأخوات هنـاك. كل ما أتذكّره هو ابتسامات جميع من كان هناك، كل الأخوات، كل النساء، جميعهـن جميـلات ما شـاء الله بطريقة مـا، حالمـا ينزعن عنهن النقاب. كنا جميعاً صـادقات للغاية. كان ذلك إلهاماً. لم يسـبق لي أن وُجدت في حلقة كلها نساء مثل تلك من قبل ...» سارة.

اختـبرت والدتي بنفسـها حياتنا الاجتماعية المفعمـة بالحيوية عندما زارتني من الخارج، تمت دعوتها إلى معظم الأمسيات في أثناء إقامتها معي، وأحبت «الأخوات»، كما دعتهن. كامرأة، أثار إعجابها الدفء، والضـحك والرفقة التي تجمعنا، وعددتها شـيئاً جميلاً وخاصاً. عندما أشفق الناس على والدي لأن ابنته الذكية المفعمة حيوية ونشـاطاً قد اعتنقت الإسـلام، وأخفت نفسـها خلف خمار، كان يقول لهم دائماً: ألا يشعروا بالأسى عليّ، وأن لدي الوقت الكامل حتى لا أمضي قدماً في تلك الحياة الكئيبة التي كان يبدو أنهم يتوقعونها.

لا شيء سوى الحب

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 63].

تمتد الروابط بين النسـاء المسـلمات إلى ما هو أبعد من الصـلات بين الإناث. إنها تشمل نظرة مشتركة، أهدافاً عامة ومعتقداً يوحدهن بطريقة لا تسـتطيعها الحسـابات الدنيوية. كوننا أخوات في الإسلام، نبذل أقصى جهدنـا لنحب بعضـنا في الله. هذا يعني أن الأسـباب التـي تدفعنا لنحب شخصاً ليست مصطنعة أو ماديّة: نحب أختنا لأنها تُذعن لله. يتفوق هذا الحب لأسـباب دينية وروحية على حدود العـرق، والعمر، والثروة والطبقة الاجتماعية.

قالت لي سـارة: «في الجاهلية، نتسـلّى مع مجموعة معينـة؛ لأننا نرى فوائد محددة في ذلك لأنفسـنا. في الإسـلام، الأمر ليس كذلك. قد يكون هنـاك أخت لا تعتني بمظهرها أبداً، وحالتهـا مزرية تماماً، وقد يكون لها

كل تلك السـمات التـي لم تكوني تقدرينهـا في الجاهلية، لكـن ربما تكون شـديدة الورع، وربما تكون مسـتمعة جيدة، أو شخصاً تستطيعين التحدّث إليه عن مشـكلاتك، والتي ربما تسـديك نصـيحة جيدة طيلة الوقت. ولا تهتمين بما قد تعتقده امرأة أخرى عن صديقتك الآن؛ لأنكِ تعرفين أفضل سبب لتحبي شخصاً وأن ذلك ينبغي أن يكون في الله.

تسـتلزم محبة أحد في الله أن تحبي كل ما هو إسلامي في شخصيتها، محبتهـا وعبادتهـا لله، أخلاقها، تأثيرها الإيجابي، إخلاصـها، جدارتها بالثقـة وفهمهـا. علـى أي حـال، كمـا هو الأمـر مـع أي أفـراد آخرين، هنـاك عوامل أخـرى تقرّب بعضـ الأخوات من بعضـهن، مثـل التجارب المشـتركة، التاريخ المشترك، الثقافة، روح الدعابة أو الاهتمامات الفكرية والهوايات.

لكن بالطبع لا تسـتطيع إحدانا أن تتوقع التوافق مع كل أخت. ماذا عن الاختلافات الشخصية أو عدم وجود عوامل انجذاب؟

شـرحت سـارة: «حتى إذا لم تكوّني صـداقة مع مثل تلك الأخوات، إلا أنـكِ تحبينهن؛ لأنهن يُدعـنّ لله ولأنهن أخوات في الإسـلام، وأحب ذلك الإخلاص. بالنسـبة لي، هذا هو الشيء الوحيد الذي قد يجعل شخصاً ما مخلصـاً: القيام بأشـياء من أجل الله. هذا إخلاص صـافٍ ونية صافية. تشعرين بوجود ذلك الإخلاص بين الأخوات».

بالفعـل، هنـاك الكثـير مـن الحـب، الكثير مـن الحب الواضـح، بين الأخوات. ترين ذلك في ابتساماتهن، تسمعينه في ضحكاتهن وتشعرين به، بشـكل يكاد يكون حقيقياً، في الهواء، في الجو. عبّرت عالية عن مشاعرها

نحـو أخواتها بهـذه الطريقة: «أحب أخواتي أكثر من أي شـيء، حتى أكثر من عائلتي».

«تابعت قائلة: «أكون بغاية السـعادة في أيام مثل هذه. عندما أنضـم ـ كاحلاً إلى كاحل ـ إلى أخواتي، عندما أصـلّي لمولاي، أصـلّي بغض النظر عمّـن يكون بجانبـي، أو أمامي أو خلفي، لأن الله جمـع بيننا مجدداً وأننا سنكون معاً في الجنّة، إن شاء الله».

وهـذا غريب، لكن الأوقات التي كان فيها قلقي شـديداً على ذلك الحب هي تلك الأوقات التي كنا فيها معاً نسعى لاكتساب المعرفة، أو نتلو القرآن أو نصلّي صلاة العشاء أو نناقش أحد أوجه الدين. في أوقات مثل هذه، عندما تكون العيون لامعة والقلوب خاشعة بذكر الله، يمكن أن تشعري بقلبك يمتلئ حباً لأولئك الذين من حولك، أخواتكِ، صحابتكِ في هذه الرحلة.

الثقة

سألت أم محمد عن مشاعرها بشأن الأخوة وقد ذكرت «الثقة» بوصفها إحدى المزايا الرئيسة لصداقاتها في الدين.

قالت لي: «كانت لدي صديقات جيدات مقرّبات مني في الجاهلية، لكن في الإسلام، شعرت أنني أستطيع الوثوق بالأخوات أكثر مما وثقت بالنساء من قبل. أشـعر أنهن، وقبل كل شيء، يخشين الله، وأنهن لن يؤذينني بأي طريقـة كانت. لقـد كان لي صـديقات [في الجاهلية] وكنـت مقرّبة كثيراً منهـن سـنين طويلة، لكني شـعرت أنني أسـتطيع قول أشـياء للأخوات لا يمكنني قولها لهن. شـعرت بأنني أسـتطيع أن أكون صريحة للغاية معهن،

وأن هنــاك ثقة كبيرة وانفتاحاً بيننا. وشــعرت بالســعادة مع كل الأخوات اللواتي التقيت بهن، كانت تلك أخواتي. لم يعد الأمر أنني وحيدة كما كانت الحال في الجاهلية، لكني شعرت بالحب والقبول من قبل الأخوات».

«الحمــد لله، عندمــا اعتنقت الإســلام، وجدت صــداقة حقيقية. أســتطيع الذهاب إلى أي أخت [ضــمن المعقول] وطلب أي شــيء أو السؤال عن أي شيء، وسوف يشعرن بالسعادة للإجابة عن أسئلتي. ربما تكون قضــية شخصية، وربما تكون قضية مالية. في الجاهلية، لم أكن أســتطيع أبــداً الذهــاب إلى أيٍ من صــديقاتي وطلب المال منهن، وكان من الأفضل الاستغناء عن ذلك» عزيزة.

لأن سلوكنا محكوم بالإرشادات الإسلامية، لدينا جميعاً المعايير نفسها ونعــرف جميعنا نوع المعاملة التي نتوقعها من بعضــنا. في الجاهلية، غالباً ما كانت الأســرار تنتشــر، لكن لا خوف من حدوث ذلك مع الأخوات. نثق ببعضــنا، لن نكذب على بعضنا، لن نحاول خداع بعضنا، أو نغتاب بعضنا، ولن نحاول إلحاق الأذى ببعضنا بأي طريقة. ولأننا نشترك في هذه القيم، نســتطيع الاسترخاء بصــحبة بعضــنا، مطمئنات من فقدان الثقة، وسوء الظنّ والشكوك.

المساواة

«في الجاهلية، كنا ننظر إلى منازل الناس، إلى مكانتهم الاجتماعية، إلى مظهرهم. وإذا كان الشــخص لا «يبدو مناســباً»، فلن يستطيع الذهاب إلى الحفلة معكِ. في الإســلام، لا يهم سواء كنتِ طويلة أم قصيرة، جميلة أم قبيحة» أم محمد.

في مجتمعنا، لا تمييز أو تنافس في معاملة الأخوات لبعضهن على مقتنيات مادّية. بين الأخوات (والإخوة)، الصغيرة تتكلم إلى الكبيرة، الغنية تجلس مع الفقيرة، التي اعتنقت الإسلام تتعلّم ممن ولدت مسلمة. لأننا نحب بعضنا في الله، لا نختار صديقاتنا وفقاً لمظهرهن، أو مكانتهن أو ثروتهن.

> «صديقاتي لا ينشغلن الآن بأنفسهن تماماً، ولم يعد الأمر يتمحور «كله حولي». من قبل، كان لدي مجموعة متنوعة من الصديقات من خلفيات مختلفة. لكني أقول: إن هناك أشخاصاً لم أكن لأخصص لهم أي وقت في الجاهلية ولم يكونوا يخصصون أي وقت لي. ربما كانوا يستخفّون بي في الجاهلية أو ربما كنت أستخف بهم. لكننا صديقات، ونحن أخوات الآن، ونتكلم بالمستوى نفسه: نحن متساويات» سارة.

الإسلام عامل مساواة رائع، وبين الأخوات وحدها المعرفة في الدين هي التي تجعل الأخت تحظى بالاحترام الأكبر. نحترم أيضاً الأخوات الكبيرات في السن، «الخالات»، وهن يحترمننا بالمقابل. على أي حال، لا يمكن مقارنة مثل هذا الاحترام بالغطرسة أو التكبّر، سواء في الدين أو الأخوة التي تربط بيننا.

الأخلاق

سبب آخر لقوة الأخوة بيننا هو أننا نعامل بعضنا جيداً، بأخلاق عالية، وفقاً لإرشادات النبي محمد ﷺ. من النادر أن تكون هناك أخوات يتحدّثن إلى بعضهن بطريقة مؤذية، أو سخرية وفظاظة. ونادراً جداً رؤية

أخوات يصـرخن على بعضهن يشـتمن أو يتجادلن. لا تصل الخلافات في وجهات النظر إلى تلك المرحلة. وإذا وصلت يوماً، ينتهي الأمر بالأختين أن تطلبا الصـفح من بعضهما وتلتمسان عفو الله. قال النبي ﷺ في حديث: «لا يحلّ لمسـلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيصـدّ هذا ويصـدّ ذاك وخيرهمـا الذي يبـدأ بالسـلام». ومن غير الجائز عـدم الكلام مع المسلم ثلاثة أيام، ويوجد حافز قوي للإصلاح فيما بينهما. غالباً ما تتكلم الأخوات بشـأن أي قضـية قد تنشـأ بينهن، ولا يرغبن بـأن يحملن أفكاراً شريرة في قلوبهن.

تمنعنـا أخلاقنا أيضـاً عـن الغيبة والنميمة على بعضـنا أو الإصـغاء لشـخص آخر يقوم بذلك. نعبّر أيضاً عن محبتنا لبعضنا بالكلمات، وهذا ما أمر به الله ورسـوله ﷺ. تتبادل الأخوات الهدايا، يسـاعدن بعضـهن يُسدين النصـح لبعضهن، يُطعمن بعضـهن، ويزرن بعضهن عند المرض، يصلّين ويتضرعن لبعضهن ويحاولن الوجود بجانب بعضهن، كل ذلك من ضمن روح الأخوة الإسلامية.

> «لـدي الكثـير من التجـارب الجيدة مـع الأخوات عندمـا اعتنقت الدين. أخوات سـيمنحنني آخر قرش يملكنه دون إعلامي، والقيام بأشـياء مثل تركها تحت وسـادتي. لدي الكثير مـن الأمثلة الجيدة حقـاً، نماذج الأدوار الجيدة فعلاً عندمـا اعتنقت الدين. الأخوات اللواتـي كن قويات جداً جداً حينها، وما زلن، ما شـاء الله، قويات جداً الآن ... لقد كن مثل الأوكسجين بالنسبة لي» غانية.

كما هي الحال مع أي صداقة، هناك الكثير من الأسباب التي تجعل بعض الأخوات يتأقلمن مع بعضـهن بشكل أفضل مما يفعلن مع أخوات أخريات،

لكن جمال الأمر، أن الأخلاق التي نتعامل بها مع تلك الصديقات المقرّبات نفسها التي نتعامل بها مع الدائرة الأوسع من الصديقات. لكل أخت حقوق في الإسلام وهذا يضمن أنه حتى إذا لم تندمجي بالضرورة مع أخت ما، فإنك برغم ذلك ستعاملينها بكل احترام وتقدير.

«من الواضح أنكِ ستقابلين أشخاصاً في الحياة لا تتوافقين معهن، ولا يصبحن أفضل صديقاتكِ. علّمنا الإسلام أن للجميع حقوقاً وأن عليك منحهن حقوقهن» أم محمد.

جوهر الأخوّة

«نبذل جميعنا قصارى جهدنا من أجل الشيء نفسه، ونرغب جميعنا بالشيء نفسه، إن شاء الله» عالية.

يشيد هذا الكتاب بأخواتي الرائعات. لقد كن مصدر إلهام له، وجزءاً من تأليفه. من خلال قوتهن وحيويتهن، كنت قد اختبرت حياة لم أكن أعتقد أنها ممكنة أبداً: حياة مع أخوات أحببتهن ووثقت بهن. إنها حياة طيبة. إنها حياة نبيلة. إنها الحياة التي أحب. الأخوة الإسلامية شيء خاص. إنها تتجاوز التنوّع، تتجاوز الطبقة الاجتماعية، تتجاوز كل أنواع الأشياء الدنيوية. إنها تعني التقارب، الدفء، وهي رقيقة وقوية. إنها لا تشبه أي شيء آخر؛ لأنها تستند إلى أسس شديدة الصلابة: الحب في الله.

المحتويات